http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج
المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلى
الموضوع : فقهى و تحليلى
القرن : الخامس عشر
الناشر : دار الفكر المعاصر
مكان الطبع : بيروت دمشق
سنة الطبع : ١٤١٨ ق
تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

و شملت هذه التوبة أيضا الثلاثة الذين خلّفوا عن هذه الغزوة ، أي أرجئوا وأخّروا عن المنافقين ، فلم يقض فيهم بشيء ، وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم ، واعتذر أقوام فقبل عذرهم ، وأخّر النبي صلى اللّه عليه وسلّم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن.

وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاري وغيرهما. قال كعب فيما رواه مسلم :

كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أمرنا حتى قضى اللّه فيه فبذلك قال اللّه عز وجل : وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وليس الذي ذكر اللّه مما خلّفنا تخلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه.

والأوصاف الثلاثة التي وصفهم بها القرآن دليل على صدقهم في التوبة. لذا

---

(١) الكشاف : ٢/ ٦١

ج ١١ ، ص : ٧١

أمر تعالى بالصدق بعد هذه الأوصاف ، وهو خطاب لجميع المؤمنين يأمر فيه تعالى التزام مذهب الصادقين وسبيلهم.

والآية هذه توجب الصدق ، وهو أمر حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق ، وأبعدهم عن منازل المنافقين ، وهي دالة على فضل الصدق ، وكمال درجته.

ولا شك بأن التوبة النصوح من أخص أحوال الصدق ، فما على العاقل المتقي إلا ملازمة الصدق في

الأقوال ، والإخلاص في الأفعال ، والصفاء في الأحوال ، ومن اتصف بذلك صار مع الأبرار ، وحظي برضا الإله الغفار.

موقفا صدق وإيمان للمقارنة مع المتخلفين : الأول-

عن أبي ذر الغفاري أن بعيره أبطأ به ، فحمل متاعه على ظهره ، واتبع أثر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ماشيا ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم لما رأى سواده : كن أبا ذر! فقال الناس : هو ذاك ، فقال :

»

(٦٧/١١)

رحم اللّه أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

والثاني-

أن أبا خيثمة الأنصاري بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم في الحر والريح ، ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح ، فمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب ، فقال : كن أبا خيثمة! فكان ، ففرح به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، واستغفر له « ١ » .

---

(١) الكشاف : ٢/ ٦١- ٦٢

ج ١١ ، ص : ٧٢

فرضية الجهاد على أهل المدينة والأعراب وثوابه [سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٠ الى ١٢١]

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

الإعراب :

وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً مفعول به ، وهو اسم منقوص كقاض ، ودخلته الفتحة في النصب لخفتها ، وجمعه أودية ، وليس في كلام العرب فاعل جمعه أفعلة غيره.

البلاغة :

يَطَؤُنَ مَوْطِئاً بينهما جناس اشتقاق ، وكذلك يَنالُونَ ... نَيْلًا صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً بينهما طباق.

(٦٨/١١)

المفردات اللغوية :

أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ إذا غزا وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ بأن يصونوها عما رضيه لنفسه من الشدائد ، والرغبة الأولى : المحبة والإيثار ، والثانية : الكراهة ، وهو نهي بلفظ الخبر ذلِكَ أي النهي عن التخلف بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم ظَمَأٌ عطش نَصَبٌ تعب مَخْمَصَةٌ جوع يَغِيظُ يغضب نَيْلًا أسرا أو قتلا أو أخذ مال إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إلا استوجبوا به الثواب والجزاء عليه لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ أجرهم على إحسانهم ، بل يثيبهم ، وهو تنبيه على أن الجهاد إحسان ، أما في حق الكفار فلأنه سعي في تكميلهم بأقصى ما يمكن

ج ١١ ، ص : ٧٣

كشرب المريض الدواء المرّ ، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم من سطوة الكفار واستيلائهم.

وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً أي في الجهاد ولو مثل التمرة وَلا كَبِيرَةً مثل إنفاق عثمان رضي اللّه عنه في تجهيز جيش العسرة وادِياً في مسيرهم ، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل ، والمراد أي أرض إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ أثبت لهم ذلك لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ بذلك أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أو أحسن جزاء أعمالهم.

المناسبة :

بعد أن أمر اللّه تعالى بقوله : وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ بالصدق في متابعة الرسول في جميع الغزوات ، أكد هنا ذلك ، فنهى عن التخلف عنه ، وأبان حسن الجزاء على الجهاد.

التفسير والبيان :

(٦٩/١١)

يعاتب اللّه تعالى المتخلفين عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم في غزوة تبوك ، من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، ورغبتهم بأنفسهم عن مشاركته في المشاق التي تعرض لها ، فقال : ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ .. أي ما كان ينبغي لأهل المدينة المؤمنين ، ومن حولهم من قبائل العرب المجاورة لها كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم ، التخلف عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم في غزوة تبوك ، بل عليهم

أن يصحبوه ، فإن النفير كان فيهم ، وخص هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم ، وأنهم أحق بذلك من غيرهم ، بل إن المراد من النص النهي عن التخلف ، والتوبيخ عليه لأن المتخلف يؤثر نفسه على نفس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم التي لا بد من إيثارها وحبها أكثر من حب النفس.

وظاهر هذه الألفاظ وجوب الجهاد على كل هؤلاء إلا أصحاب الأعذار بدليل العقل ، وبقوله تعالى : لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها [البقرة ٢/ ٢٨٦] وقوله أيضا : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ .. [النور ٢٤/ ٦١] ولا يقصد بهذا وجوب الجهاد عينا على كل واحد ، فقد دل الإجماع على أن الجهاد فرض كفاية ،

ج ١١ ، ص : ٧٤

فيكون مخصوصا من هذا العموم ، ويكون المنصوص عليهم هم المقصودين بالنص العام.

ولا يصح لهؤلاء إيثار أنفسهم على نفس الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، فلا يرضوا لأنفسهم بالدعة والراحة ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم في المشقة.

(٧٠/١١)

لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع والجهاد ، بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم- من معاناة ومكابدة ومشاق كالعطش والتعب والجوع والألم في سبيل اللّه ، ووطء جزء من أرض الكفر يغيظ الكفار ، والنيل من الأعداء بالأسر أو القتل أو الهزيمة أو الغنيمة- يستوجب الثواب الجزيل المكافئ لما قدموه وزيادة ، وذلك مما يوجب المشاركة في الجهاد ، إن اللّه لا يضيع أجر المحسنين ، أي لا يدع له شيئا من الثواب على إحسانه إلا كافأه به ، كقوله تعالى :

إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا [الكهف ١٨/ ٣٠].

وكذلك لا ينفق هؤلاء المجاهدون (الغزاة) « ١ » في سبيل اللّه نفقة صغيرة ولا كبيرة ، أي قبيلا ولا كثيرا ، ولا يقطعون واديا ، أي في السير إلى الأعداء ، إلا أثبت لهم الجزء الأوفى ، ليجزيهم اللّه أحسن الجزاء على عملهم لأن الجهاد في سبيل اللّه إعلاء لكلمة الإسلام ، وصون الإيمان ، وحفظ الأوطان ، وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا واستعبدوا.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١- فرضية الجهاد ووجوبه على أهل المدينة وقبائل العرب المجاورة لها ، بسبب كون المدينة عاصمة الإسلام ، وكونهم سكانها ، وجيران الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ،

---

(١) الغزو والجهاد والحرب كلها بمعنى واحد في اللغة.

ج ١١ ، ص : ٧٥

و يصيبهم مباشرة ما أصابه من مجد أو خير أو نصر أو غير ذلك.

٢- لا يصح لمؤمن إيثار نفسه على نفس الرسول صلى اللّه عليه وسلّم لأن الإيمان لا يكمل إلا بأن يحب الرسول صلى اللّه عليه وسلّم أكثر مما يحب نفسه.

٣- إن كل ما يتعرض له المجاهد من مكابدة ومتاعب في السفر للجهاد يثاب عليه ثوابا جزيلا.

(٧١/١١)

٤- إن في الجهاد إحسانا ، سواء في حق الأعداء لأنه قد ينقلهم من دائرة الكفر إلى دائرة الإسلام ، وفي حق المسلمين لأنهم يصونون به الحرمات : حرمة الدين والإيمان ، وحرمة البلاد والأوطان والأموال والأعراض ، ويحققون به العزة والمجد والكرامة.

٥- تستحق الغنيمة بمجرد الاستيلاء ، كما قال الشافعي لأن اللّه تعالى جعل وطء ديار الكفار بمثابة النّيل من أموالهم ، وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذي يغيظهم ، ويدخل الذّل عليهم ، فهو بمثابة نيل الغنيمة والقتل والأسر.

٦- إن هذه الآية منسوخة بالآية التالية بعدها : وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً .. وإن حكمها كان في حال قلة المسلمين ، فلما كثروا نسخت ، وأباح اللّه التخلف عن الجهاد مع الحكام لمن شاء. قال قتادة : كان هذا خاصا بالنبي صلى اللّه عليه وسلّم ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة ، فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة. قال القرطبي : قول قتادة حسن ، بدليل غزاة تبوك.

أما المعذورون الباقون في المدينة فلهم مثل أجر العاملين المجاهدين لما

روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواما ، ما سرتم مسيرا ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه ، قالوا : يا رسول اللّه ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم العذر »

وأخرجه مسلم من حديث جابر قال : « كنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم في غزاة ، فقال :

ج ١١ ، ص : ٧٦ إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض »

(٧٢/١١)

فأعطى صلى اللّه عليه وسلّم للمعذور من الأجر مثل ما أعطى للقوي العامل. ويؤكد ذلك أن النية الصادقة هي أصل الأعمال ، فإذا صحت في فعل طاعة ، فعجز عنها صاحبها لمانع منها ، فله الثواب على عمله

لقوله صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه البيهقي عن أنس وهو ضعيف : « نية المؤمن خير من عمله » .

الجهاد فرض كفاية وطلب العلم فريضة [سورة التوبة (٩) : آية ١٢٢]

وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

الإعراب :

لو لا : للتحضيض ، وهي داخلة هنا على الماضي ، فتفيد التوبيخ واللوم على ترك الفعل فيما مضى ، والأمر به في المستقبل.

المفردات اللغوية :

لِيَنْفِرُوا إلى الجهاد فَلَوْ لا فهلا وهي تفيد الحض والحث على ما تدخل عليه نَفَرَ خرج للقتال فِرْقَةٍ قبيلة أو جماعة عظيمة طائِفَةٌ جماعة قليلة أقلها اثنان أو واحد ، ومكث الباقون لِيَتَفَقَّهُوا ليتعلم الباقون الفقه والأحكام الشرعية ، والتفقه : تكلف الفقاهة والفهم ، وتجشم مشاق التحصيل وَلِيُنْذِرُوا يخوفوا إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ من الجهاد ، بتعليمهم ما تعلموه من الأحكام لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ليحذروا عقاب اللّه بامتثال أمره ونهيه ، والحذر من الشي ء : التحرز منه.

سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت : إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً

أَلِيماً

و قد تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم ، فقال المنافقون : قد بقي ناس في البوادي ، هلك أصحاب البوادي ، فنزلت : وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً.

(٧٣/١١)

و أخرج ابن أبي حاتم أيضا عن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عمير قال : كان المؤمنون ، لحرصهم على الجهاد ، إذا بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم سرية ، خرجوا فيها ، وتركوا النبي صلى اللّه عليه وسلّم بالمدينة في رقة من الناس ، فنزلت.

قال ابن عباس : لما شدّد اللّه على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدا ،

ففعلوا ذلك ، وبقي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم وحده ، فنزل :

وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ الآية.

وقال ابن عباس أيضا : فهذه مخصوصة بالسرايا ، والتي قبلها بالنهي عن تخلف واحد ، فيما إذا خرج النبي صلى اللّه عليه وسلّم.

المناسبة :

هذه الآية من بقية أحكام الجهاد ، فهي لا توجب على جميع المؤمنين الجهاد إذا لم يخرج النبي صلى اللّه عليه وسلّم إليه ، وإنما أرسل سرية. وحينئذ يجب على المؤمنين طلب العلم والتفقه في الدين لأن الجهاد يعتمد على العلم ، ولأن نشر الإسلام في الأصل يتوقف على البيان بالحجة والبرهان.

التفسير والبيان :

هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلهم ، فتكون فئة منهم للتفقه وفئة أخرى للجهاد ، فإنه فرض كفاية على الناس ، كما أن طلب العلم فرض كفاية أيضا.

فما كان من شأن المؤمنين أن ينفروا جميعا ، ويتركوا النبي صلى اللّه عليه وسلّم وحده ، فإن

ج ١١ ، ص : ٧٨

الجهاد فرض كفاية ، متى قام به البعض سقط الإثم عن الباقين ، لا فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل ، وإنما يصبح فرض عين إذا خرج الرسول للجهاد واستنفر الناس إليه.

فهلا نفر في أثناء النهضة من كل جماعة كالقبيلة أو البلد طائفة قليلة منهم للتفقه في الدين ، ومعرفة أحكام الشريعة وأسرارها ، حتى إذا ما رجع المجاهدون من المعركة أنذروهم من الأعداء وحذروهم من غضب اللّه وعرفوهم أحكام الدين ، لكي يخافوا اللّه ، ويحذروا عاقبة عصيانه ، ومخالفة أمره.

و الضمير في لِيَتَفَقَّهُوا ، ولِيُنْذِرُوا للمقيمين مع النبي صلى اللّه عليه وسلّم. وضمير إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ أي المجاهدون من الجهاد.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على الأحكام التالية :

١- الجهاد فرض كفاية ، وليس فرض عين ، إذ لو نفر الكل لتعطلت مصالح الأمة ، وتضررت الأسر والأولاد ، فليخرج فريق من المسلمين للجهاد ، وليقم فريق يتفقهون في الدين ، ويحفظون الحريم ، ويصونون مصلحة البلاد.

حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع. وهذه الآية مبينة لقوله تعالى : إِلَّا

تَنْفِرُوا وللآية التي قبلها : انْفِرُوا.
وقال مجاهد وابن يزيد : ناسخة والأصح القول بأنها مبينة لا ناسخة. وكل من مِنْ المفيدة للتبعيض ، والفرقة (الجماعة الكثيرة) والطائفة (الجماعة الأقل) يفيد كون الجهاد وطلب العلم موجها للبعض.
٢- وجوب طلب العلم ، والتفقه في القرآن والسنة ، وهو فرض على الكفاية لا على الأعيان بدليل قوله تعالى : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
ج ١١ ، ص : ٧٩
لا تَعْلَمُونَ
[النحل ١٦/ ٤٣]. وآية لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وإن اقتضت فقط الحث على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام ، فقد لزم طلب العلم بأدلة أخرى ، مثل
حديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه ابن عدي والبيهقي عن أنس ، ورواه آخرون.
والطائفة وإن أطلقت على الاثنين والواحد في اللغة ، فلا شك إن المراد بها هنا جماعة لقوله تعالى : لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ فجاء بضمير الجماعة ، ولأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب.

(٧٥/١١)

و مما يدل على أن الواحد يقال له طائفة قوله : وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا [الحجرات ٤٩/ ٩] يعني نفسين ، بدليل قوله تعالى : فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ فجاء بلفظ التثنية. وأما ضمير اقْتَتَلُوا وإن كان ضمير جماعة ، فأقل الجماعة اثنان ، في أحد القولين للعلماء.
٣- يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم لأن الآية أمرت بإنذارهم إلى الدين الحق ، وعليهم أن يحذروا الجهل والمعصية ، ويرغبوا في قبول الدين. فغرض المعلم الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم اكتساب الخشية. هذا ..
وطلب العلم ينقسم قسمين : فرض على الأعيان كالصلاة والزكاة والصيام ، وفرض على الكفاية كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه.
وطلب العلم فضيلة عظيمة ، ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل ،
لما رواه مسلم : « من يرد اللّه به خيرا يفقهه في الدين »
و
روى الترمذي عن أبي الدرداء قال :
سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقول : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل اللّه به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات

ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل

ج ١١ ، ص : ٨٠

العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

٤- خبر الواحد حجة لأن الطائفة مأمورة بالإنذار أو الإخبار ، وهو يقتضي فعل المأمور به ، ولأنه سبحانه أمر القوم بالحذر عند الإنذار ، والمراد : ليحذروا.

السياسة الحربية في قتال الكفار [سورة التوبة (٩) : آية ١٢٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

المفردات اللغوية :

يَلُونَكُمْ يجاورونكم الأقرب فالأقرب غِلْظَةً شدة وخشونة ، أي اغلظوا عليهم مَعَ الْمُتَّقِينَ بالعون والنصر.

المناسبة :

لما أمر اللّه سبحانه المؤمنين بقتال المشركين كافة ، كما يقاتلونهم كافة ، أرشدهم في هذه الآية إلى الطريق الأصوب الأصلح ، وهو أن يبتدءوا من الأقرب فالأقرب ، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد. وقد فعل النبي صلى اللّه عليه وسلّم وصحابته بهذه الخطة ، فقد قاتل قومه في مكة ، ثم قاتل سائر العرب ، ثم انتقل إلى قتال الروم في الشام ، ثم دخل صحابته العراق.

وهكذا سار خط الدعوة الإسلامية على هذا الترتيب ، فقال تعالى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء ٢٦/ ٢١٤] ثم اتسع نطاقها إلى الجزيرة العربية ، فقال

ج ١١ ، ص : ٨١

تعالى : وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها [الأنعام ٦/ ٩٢] وقال عزّ وجلّ :

سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ [الفتح ٤٨/ ١٦] ثم انتشرت خارج الجزيرة بين أهل الكتاب فقال سبحانه : قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ [التوبة ٩/ ٢٩] وقال تعالى : وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام ٦/ ١٩] أي لأنذر العرب ومن يبلغه القرآن في كل زمان ومكان.

فالسياسة الإسلامية تسير على منهج دعوة الأقرب فالأقرب سلما ، وقتال الأقرب فالأقرب إذا توافرت

دواعي القتال.

التفسير والبيان :

(٧٧/١١)

يأيها المؤمنون قاتلوا الأقرب منهم فالأقرب إلى ديار الإسلام ، فإن الأقرب أحق بالشفقة والإصلاح ، ولأن تكوين الأتباع المؤمنين من الجوار بالدعوة الإسلامية أفيد وأحصن وأجدى ، وفيه حماية الديار والوطن ، ولأن هذا الترتيب يحقق قلة النفقات ، والاقتصاد في نقل الآلات وانتقال المجاهدين بأمان ، حتى لا يطعنوا من الخلف.

وهذا بالطبع يشمل أولا اليهود حوالي المدينة كقريظة والنضير وخيبر ، ثم المشركين في جزيرة العرب ، ثم أهل الكتاب وهم الروم في الشام شمال المدينة.

وسياسة القتال أن يجدوا في المؤمنين المقاتلين غلظة أي شدة وخشونة ، وقوة وحميّة ، وصبرا على القتال ، وجرأة على خوض المعارك والفتك والأسر ونحو ذلك ، وهذه طبيعة الحرب ومصلحة القتال ، ونظير الآية قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ ، وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ [التوبة ٩/ ٧٣].

وأعلموا أن اللّه مع المتقين أي بالنصر والحراسة والإعانة ، والمتقون : هم

ج ١١ ، ص : ٨٢

المتبعون أوامر اللّه ، المجتنبون نواهيه. فهذه المعية ملازمة للتقوى ، فاللّه معكم إذا التزمتم أحكام شرعه ومن أهمها إقامة الفرائض والسنن ، والثبات والصبر والطاعة والنظام ، وابتعدتم عن اختراق حدوده والتقصير في إعداد العدة المناسبة لكل عصر وزمان ومكان ، كما قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ [الأنفال ٨/ ٦٠].

وإذا أريد بالمتقين المخاطبون ، ففيه إظهار بدل الإضمار للدلالة على أن الإيمان والقتال من باب التقوى ، والشهادة بكونهم من زمرة المتقين. وإذا أريد بالمتقين الجنس دخل المخاطبون دخولا أولياء ، والكلام تعليل وتوكيد لما قبله ، أي قاتلوهم واغلظوا عليهم ولا تخافوهم لأن اللّه معكم أو لأنكم متقون.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يلي :

(٧٨/١١)

١- التعريف بكيفية الجهاد ، وكون الابتداء به بالأقرب فالأقرب من العدو ، ولهذا بدأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بالعرب ، ثم قصد الروم بالشام. وروي عن الحسن البصري أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [التوبة ٩/ ٥]. والأصح أنها غير منسوخة لأنها للإرشاد ورسم خطة الحرب في قتال الكفار. قال قتادة : الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب ، والأدنى فالأدنى « ١ » .

٢- أمر المؤمنين بالاتصاف بالغلظة على الكفار ، حتى يجدهم الكفار متصفين بذلك. وهذا لا شك في أثناء القتال ، أما قبل بدء المعركة فشأن المسلمين هو الرفق واللين والدعوة إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن وجدوا تنمرا وتجهما

---

(١) تفسير القرطبي : ٨/ ٢٩٧ ، تفسير الرازي : ١٦/ ٢٨٨

من الأعداء ، عوملوا بما يناسب من العنف والشدة فالفائدة في الشدة في هذه المواطن أقوى تأثيرا في الزجر والمنع عن القبيح والشر ، وقد يحتاج الأمر إلى الرفق واللطف. فالأمر بالعنف ليس مطردا ، وإنما يعمل بما هو الأوفق ولو في أثناء المعركة.

٣- إن اللّه نصير المتقين في السلم والحرب ، والواجب أن يكون الهدف من القتال تقوى اللّه ، لا طلب المال والجاه.

موقف المنافقين من سور القرآن [سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٤ الى ١٢٧]

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٢٧)

الإعراب :

وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ جملة حالية.

البلاغة :

فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ أي كفرا مضموما إلى الكفر بغيرها. ولما ازداد المنافقون عند

ج ١١ ، ص : ٨٤

نزول السورة عمى ، أضيف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة.

أَ وَلا يَرَوْنَ هذه ألف استفهام ، دخلت على واو العطف ، وهو خطاب على سبيل التنبيه.

المفردات اللغوية :

سُورَةٌ من القرآن فَمِنْهُمْ من المنافقين مَنْ يَقُولُ لأصحابه استهزاء إيماناً تصديقا يَسْتَبْشِرُونَ يفرحون بها وبنزولها مَرَضٌ شك وضعف اعتقاد وكفر ونفاق رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ كفرا ونفاقا إلى كفرهم وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا على الكفر.

(٨٠/١١)

أَ وَلا يَرَوْنَ أي المنافقون يا أيها المؤمنون يُفْتَنُونَ يبتلون بأصناف البلاء ، أو بالجهاد مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أي أنهم يتعرضون للعذاب في الدنيا في كل عام مرة أو مرتين ، وقال مقاتل : يفضحون بإظهار نفاقهم كل سنة مرة أو مرتين ثُمَّ لا يَتُوبُونَ من نفاقهم وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ يتعظون. وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فيها ذكرهم وقرأها النبي صلى اللّه عليه وسلّم نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ تغامزوا بالعيون إنكارا لها وسخرية ، أو غيظا ، لما فيها من عيوبهم هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ أي أنهم يريدون الهرب ، ويقولون : هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، فإن لم يرهم أحد قاموا ، وإن رآهم أحد أقاموا وتثبتوا ثُمَّ انْصَرَفُوا على كفرهم صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عن الهدى والإيمان ، وهو يحتمل الإخبار ، والدعاء بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ الحق ، لسوء فهمهم وعدم تدبرهم.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى أنواعا من مخازي المنافقين وأعمالهم القبيحة ، كتخلفهم عن غزوة تبوك ، وتعللهم بالإيمان الفاجرة ، ذكر هنا أنواعا أخرى أخطر مما سبق ، وهي استهزاؤهم بالقرآن وتهربهم حين سماعه لأنه كلما نزلت سورة مشتملة على تبيان فضائحهم وعيوبهم تأذوا من سماعها ، وكذلك كلما سمعوا سورة وإن لم يذكر فيها شيء عنهم ، استهزءوا بها وطعنوا فيها ، وأخذوا في التغامز والتضاحك على سبيل الطعن والهزء.

ج ١١ ، ص : ٨٥

التفسير والبيان :

إذا ما أنزلت سورة من سور القرآن وبلغت المنافقين ، فمنهم من يقول لإخوانه أي يقول بعضهم لبعض : أيكم زادته هذه السورة إيمانا ؟ أي تصديقا بأن القرآن من عند اللّه ، وأن محمدا صادق في نبوته.

و من المعروف أن الإيمان الصحيح : وهو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس ، يزيد بنزول القرآن ، ويتضاعف بسماعه سماع تدبر وإمعان ، مما يدفع إلى العمل بما نزل فيه. وفي هذا دلالة واضحة على أن الإيمان يزيد وينقص ، كما هو مذهب الأكثرين.

فأجابهم اللّه تعالى عن حقيقة أثر القرآن : فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن يقينا وتصديقا وقوة دافعة إلى العمل به ، وهم أي وحالهم أنهم يفرحون بنزول السورة لأنها تزكي أنفسهم ، وترشدهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة. قال الزمخشري في فَزادَتْهُمْ إِيماناً : لأنها أزيد لليقين والثبات وأثلج للصدر ، أو فزادتهم عملا ، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل.

والذين في نفوسهم شك وكفر ونفاق ، فتزيدهم السورة كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، ويستحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا وهم كافرون بالقرآن وبالنبي صلى اللّه عليه وسلّم. وهذا مناقض للهدف من إنزال السورة ، فهي في الحقيقة هدى ونور ، وشفاء لما في الصدور ، وجلاء لما في القلوب ، كما قال تعالى :

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً [الإسراء ١٧/ ٨٢] وقال عز وجل : قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ، فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ [فصلت ٤١/ ٤٤] فهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيء المزاج لا يفيده الغذاء إلا تأخرا ونقصا.

ج ١١ ، ص : ٨٦

و بعد أن بيّن اللّه تعالى أن المنافقين يموتون كفارا ، أوضح أنهم يتعرضون أيضا لعذاب الدنيا كل عام مرة أو مرتين ، فقال : أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يختبرون كل عام مرة أو مرتين بأنواع الاختبار العديدة من جهاد وقحط ومرض وهي التي تذكّر الإنسان باللّه ، وتجعله ميالا إلى الإيمان وترك الكفر والتمييز بين الحق والباطل.

ثم إنهم مع توالي الاختبارات لا يتوبون من ذنوبهم السابقة ، ولا يتعظون فيما يستقبل من أحوالهم ، مما يجعلهم غير مستعدين لقبول الإيمان.

وإذا أنزلت سورة قرآنية على النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وهم جلوس عنده ، تلفتوا وتغامزوا بالعيون وتهكموا لفساد قلوبهم ، وعزموا على الهروب ، قائلين : هل يراكم الرسول صلى اللّه عليه وسلّم أو

المؤمنون إذا خرجتم ؟

ثم انصرفوا جميعا عن مجلس النبي صلى اللّه عليه وسلّم أي تولوا عن الحق ، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه ، كقوله تعالى : فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [المدثر ٧٤/ ٤٩- ٥١] وقوله : فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ [المعارج ٧٠/ ٣٦- ٣٧] أي ما لهؤلاء القوم يخرجون مسرعين ، هروبا من الحق ، وذهابا إلى الباطل.

صرف اللّه قلوبهم عن الحق والإيمان وعن الخير والنور. وهذا إما دعاء عليهم به أو إخبار عن أحوالهم.

ذلك الصرف بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها ، ولا يريدون فهمها ، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا ، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه ، كقوله تعالى : فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف ٦١/ ٥].

ج ١١ ، ص : ٨٧

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- الإيمان يزيد وينقص ، وهو مذهب أكثر السلف والخلف ، فالمؤمنون يزدادون إيمانا بما يتجدد نزوله من القرآن ، ويفرحون به ، لتزكية نفوسهم ، وتحقيق سعادتهم.

٢- الكفر يتراكم بعضه فوق بعض ، وينضم بعضه إلى بعض لأنهم كلما جددوا بتجديد اللّه الوحي كفرا ونفاقا ، ازداد كفرهم واستحكم ، وتضاعف عقابهم.

٣- المنافقون المستهزئون بالقرآن يموتون على كفرهم إن لم يتوبوا ، مما يدل على مداومة الكفر.

٤- وسائل تذكير المنافقين بالإيمان والحق كثيرة متكررة ، فتتوالى عليهم اختبارات عديدة كالأمراض والأوجاع ، والشّدة والقحط ، والجهاد مع النبي صلى اللّه عليه وسلّم كل عام مرة أو مرتين ، ويرون ما وعد اللّه من النصر والتأييد.

٥- ومن الوسائل الداعية لإيمان المنافقين أيضا ما ينزل به القرآن كاشفا أسرارهم ، معلما بمغيبات أمورهم ، ومع ذلك ينصرفون عن تلك الحال التي هي مظنّة النظر الصحيح والاهتداء ، ولا يسمعون القرآن سماع تدبر وتعقل ونظر في آياته : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ [الأنفال ٨/ ٢٢].

أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها [محمد ٤٧/ ٢٤].

وقوله : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً قول صادر على سبيل الاستهزاء ، وقوله نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ اكتفاء بنظر بعضهم إلى بعض على سبيل الهزء ، وطلب الفرار.

ج ١١ ، ص : ٨٨

٦- إن اللّه تعالى صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه في مذهب أهل السنة ، لصرف نفوسهم عنه لقوله : صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وهو إما دعاء عليهم أي قولوا لهم هذا ، وإما خبر عن صرفها عن الخير والرشد والهدى ، مجازاة على فعلهم.

وهذا رد على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم ، وجوارحهم بحكمهم ، يتصرفون بمشيئتهم ، ويحكمون بإرادتهم واختيارهم.

(٨٤/١١)

صفات الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ذات الصلة بأمته [سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٨ الى ١٢٩]

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

الإعراب :

ما عَنِتُّمْ ما : مصدرية ، وهي مع عَنِتُّمْ في تأويل المصدر ، وتقديره : عزيز عليه عنتكم. وهو إما مرفوعبعزيز لأنه وقع صفة لرسول ، وإما مبتدأ ، وعَزِيزٌ خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع لأنها صفة رَسُولٌ.

المفردات اللغوية :

مِنْ أَنْفُسِكُمْ أي منكم ومن جنسكم ، وهو محمد صلى اللّه عليه وسلّم عَزِيزٌ شديد أو شاق ما عَنِتُّمْ أي عنتكم أي مشقتكم ولقاؤكم المكروه حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أن تهتدوا والحرص : شدة الرغبة في الحصول على الشيء رَؤُفٌ شفوق ، والرأفة أخص من الرحمة ، وتكون مع الضعف والشفقة والرقة رَحِيمٌ يريد لكم الخير ، والرحمة عامة شاملة حال الضعف وغيره فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الإيمان بك فَقُلْ : حَسْبِيَ كافي تَوَكَّلْتُ وثقت به لا بغيره وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الكرسي الْعَظِيمِ خص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات.

ج ١١ ، ص : ٨٩

المناسبة :

لما أمر اللّه رسوله صلى اللّه عليه وسلّم أن يبلغ في هذه السورة تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها إلا من خصة اللّه بالتوفيق ، ختمها بما يوجب سهولة تحملهم تلك التكاليف ، وهو أن هذا

الرسول صلى اللّه عليه وسلّم منكم ، فكل ما يحققه من عز وشرف فهو عائد إليكم ، وهو بحال يشق عليه ضرركم ، وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم ، فهو كالطبيب الحاذق إذا أقدم على علاجات صعبة ، فإنما يريد الخير ، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير.

و كذلك لما بدأ السورة ببراءة اللّه ورسوله من المشركين ، وقص فيها أحوال المنافقين شيئا فشيئا ، خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم والمن عليهم بكونه جاءهم رسول من جنسهم أو من نسبهم عربي قرشي يبلغهم عن اللّه ، متصف بالأوصاف الجميلة من كونه يعز عليه مشقتهم بالوقوع في العذاب الأخروي ، ويحرص على هداهم ويرأف بهم ويرحمهم « ١ » .

روى الحاكم في المستدرك عن أبي بن كعب قال : آخر آية نزلت : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ ... إلى آخر السورة. وروى الشيخان عن البراء بن عازب قال :

آخر آية نزلت : يَسْتَفْتُونَكَ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ وآخر سورة نزلت : بَراءَةٌ. وعن ابن عباس : آخر آية نزلت : وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ وكان بين نزولها وموته صلى اللّه عليه وسلّم ثمانون يوما. وهذا قول سعيد بن جبير أيضا.

التفسير والبيان :

امتن اللّه تعالى على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم ، أي من

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ١١٧

ج ١١ ، ص : ٩٠

جنسهم وعلى لغتهم. لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم وبلغتكم ، كما قال تعالى : هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ [الجمعة ٦٢/ ٢] وقال أيضا :

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ [آل عمران ٣/ ١٦٤] وصف اللّه هذا الرسول بخمس صفات :

الأولى- قوله : مِنْ أَنْفُسِكُمْ أي من العرب ، والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته. قال ابن عباس : إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي صلى اللّه عليه وسلّم مضريّها وربيعيها ويمانيها ، أي أن نسبه تشعب في جميع قبائل العرب.

الثانية– عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ أي شديد عليه عنتكم أي مشقتكم ولقاؤكم المكروه في الدنيا والآخرة ، إذ هو منكم ، يتألم لألمكم ويفرح لفرحكم.

الثالثة– حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أي حريص على هدايتكم وإيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة.

الرابعة والخامسة– بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : سماه اللّه تعالى باسمين من أسمائه.

فإن تولوا أي أعرض المشركون والمنافقون عنك وعن الإيمان برسالتك والاهتداء بشرعك ، فقل : حسبي اللّه ، أي اللّه كافي في النصر على الأعداء.

لا إله إلا هو ، أي لا معبود سواه أدعوه وأخضع له ، عليه توكلت أي فوضت أمري إليه وحده ، فلا أتوكل إلا عليه.

وهو رب العرش العظيم ، والعرش : سقف المخلوقات كلها في السموات والأرض وما بينهما ، وخص العرش لأنه أعظم المخلوقات ، فيدخل فيه ما دونه

ج ١١ ، ص : ٩١

إذا ذكر ، إذ عليه تدبير أمور الخلق ، كما قال تعالى : ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ [يونس ١٠/ ٣].

روى أبو داود عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : « حسبي اللّه ، لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، سبع مرات ، كفاه اللّه ما أهمه ، صادقا كان بها أو كاذبا » .

وحكى النقاش عن أبي بن كعب أنه قال : أقرب القرآن عهدا باللّه تعالى هاتان الآيتان : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إلى آخر السورة.

(٨٧/١١)

و قد اتفق الصحابة حين جمع القرآن على وضع هاتين الآيتين في آخر سورة بَراءَةٌ روى أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن زيد بن ثابت في جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصاري ، لم أجدهما مع أحد غيره : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إلى آخرها. أي لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، كما ذكر ابن حجر.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر ، فقال :

لا أسألك عليها. بيّنة أبدا ، كذلك كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقرؤها.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمرين :

١- اتصاف النبي صلى اللّه عليه وسلّم بصفات خمس تستدعي من العرب الاستجابة لدعوته ، وتحمّل أعباء رسالته ، والقيام بالتكاليف التي أمر بها ، لأنه منهم وفيهم ، وحريص على اهتدائهم ، ورؤف رحيم بهم.

ج ١١ ، ص : ٩٢

٢- إن أعرض الناس عن دعوة النبي فهو يستنصر باللّه المعين الكافي ويكتفي باللجوء إليه في الدعاء والعبادة والإعانة ، والخضوع والتذلل ، لأن اللّه رب العرش العظيم ، والناس مقهورون تحت العرش بقدرة اللّه تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل.

(٨٨/١١)

ج ١١ ، ص : ٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس عليه السّلام

مكية وهي مائة وتسع آيات.

تسميتها :

سميت « سورة يونس » لذكر قصة نبي اللّه يونس فيها ، وهي قصة مثيرة ، سواء بالنسبة لشخصه الذي تعرض لالتقام الحوت له ، أو بالنسبة لما اختص به قومه من بين سائر الأمم ، برفع اللّه العذاب عنهم حين آمنوا وتابوا بصدق.

موضوعها :

تتميز بالكلام عن الأهداف الكبرى لرسالة القرآن وهي إثبات التوحيد للّه وهدم الشرك ، وإثبات النبوة والبعث والمعاد ، والدعوة للإيمان بالرسالات السماوية وخاتمتها القرآن العظيم ، وهي موضوعات السور المكية عادة.

مناسبتها لما قبلها :

ختمت سورة التوبة السابقة بذكر صفات الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، وبدئت هذه السورة بتبديد الشكوك والأوهام نحو إنزال الوحي على الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، للتبشير والإنذار ، وكانت أغلبية آيات السورة المتقدمة في أحوال المنافقين وموقفهم من القرآن ، وهذه في أحوال الكفار والمشركين وقولهم في القرآن. فالاتصال بالسورة المتقدمة واضح ، فقد ذكرت أوصاف الرسول صلى اللّه عليه وسلّم التي تستدعي الإيمان به ، ثم

ج ١١ ، ص : ٩٤

ذكر هنا الكتاب الذي أنزل ، والنبي الذي أرسل ، وأن شأن الضالين التكذيب بالكتب الإلهية.

ويلاحظ أنه لا يشترط وجود تناسب واضح بين السور ولا بين الآيات في ضمن السورة الواحدة ، فقد تتعدد الأغراض والانتقال من العقيدة إلى العبادة إلى الأخلاق والأمثال والقصص وأحكام السلوك والمعاملات ، وذلك أسلوب خاص بالقرآن لاجتذاب الأنفس حين التلاوة والبعد عن السأم والملل ، وقد أصبح هذا الأسلوب هو المرغوب فيه شعبيا كما يظهر في الإقبال على الروايات وأساليب العرض القصصي والتمثيليات ، لشد انتباه المشاهدين والقارئين والسامعين ، من خلال المفاجآت والاستطرادات وتحليل بعض القضايا الجانبية.

فقد يكون هناك تناسب بين السور ، كسور الطواسين وحواميم وسورتي المرسلات والنبأ ، وقد يوجد فاصل بينهما كسورتي الهمزة واللهب مع أن موضوعهما واحد.

ما اشتملت عليه السورة :

سورة يونس تتحدث عن الرسالات الإلهية ، والألوهية وصفات الإله ، والنبوة وقصص بعض الأنبياء ، وموقف المشركين من القرآن ، والبعث والمعاد.

(٨٩/١١)

١- بدأت السورة بتقرير سنة اللّه في خلقه بإرسال رسول لكل أمة ، وختم الرسل بالنبي صلى اللّه عليه وسلّم ، مما لا يستدعي عجب المشركين من بعثته : أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ [٢].

٢- ثم تحدثت عن إثبات وجود الإله من طريق آثاره في الكون : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. الآيات. ثم التذكير بمصير الخلائق إليه بالبعث والجزاء : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً .. وانقسام البشر إلى

ج ١١ ، ص : ٩٥

مؤمنين وكفار وجزاء كل منهم. وإنذار الجاحدين بإهلاك الأمم الظالمة :

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ...

٣- ثم أوضحت عقائد المشركين وذكرت خمس شبهات لمنكري النبوة والرسالة وناقشتهم نقاشا منطقيا مقنعا ، وأثبتت أن القرآن كلام اللّه ومعجزة النبي الخالدة على مر الزمان : وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وأقامت الدليل على كونه من عند اللّه بتحدي المشركين وهم أمراء البيان وأساطين الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله : أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ، قُلْ : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ...

وذكرت موقف المشركين من القرآن : وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ ....

٤- ثم ذكرت آثار القدرة الإلهية الباهرة التي تدل على عظمة اللّه وضرورة الإيمان به ، لأنه مصدر الحياة والرزق والنعم : قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ : اللَّهُ ، فَقُلْ : أَفَلا تَتَّقُونَ ؟ !.

٥- ثم تناولت بإيجاز للعبرة والعظة وتقرير صدق القرآن قصص بعض الأنبياء ، كقصة نوح عليه السّلام في تذكير قومه ، وقصة موسى عليه السّلام مع فرعون ، واستعانة فرعون بالسحرة لإبطال دعوة موسى ، وشأن موسى مع قومه ، ودعائه على فرعون ، ونجاة بني إسرائيل ، وغرق فرعون في البحر ، وقصة يونس عليه السّلام مع قومه ، فصار المذكور في هذه السورة ثلاث قصص.

٦- ختمت السورة بما أشارت إليه في الآية [٥٧] : يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وهو اتباع رسالة القرآن وشريعة اللّه ، لما فيها من خير وصلاح للإنسان : قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ ، وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ، ج ١١ ، ص : ٩٦

وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ

.

ذكر البيضاوي حديثا عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم : « من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بيونس ومن كذب به ، وبعدد من غرق مع فرعون »

، والظاهر أنه غير صحيح.

قضية إنزال الوحي إلى النبي صلى اللّه عليه وسلّم [سورة يونس (١٠) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (١) أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (٢)

الإعراب :

تِلْكَ آياتُ مبتدأ وخبر ، أي تلك التي جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم. والمراد من تِلْكَ : هذه أي هذه آيات الكتاب أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا أن وما بعدها في تأويل المصدر في موضع رفع اسم كانَ ، وعَجَباً خبره ، واللام في لِلنَّاسِ متعلقة بمحذوف ، لأنه صفة لعجب ، فلما تقدم صار حالا ، لأن صفة النكرة إذا تقدمت عليها انتصبت على الحال. ولا يجوز أن تتعلق اللام بكان ، لأنها لمجرد الزمان ، ولا تدل على الحدث الذي هو المصدر ، فضعفت.

أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ كانَ : هي المفسرة ، لأن الإيحاء فيه معنى القول ، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه أنذر أن لهم الباء معه محذوف.

البلاغة :

الْحَكِيمِ بمعنى مفعول ، أي الحكم الذي لا فساد فيه ولا نقص.

أَنْذِرِ .. وَبَشِّرِ بينهما طباق. أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا استفهام معناه التقرير والتوبيخ.

ج ١١ ، ص : ٩٧

قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة. وإضافة قدم إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة ، ففي ذلك غاية البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم ، كما سميت النعمة يدا ، لأنها تعطى بها. وجاء في القرآن : مَقْعَدِ صِدْقٍ [القمر ٥٤/ ٥٥] ، ومُدْخَلَ صِدْقٍ [الإسراء ١٧/ ٨٠] ، ومُخْرَجَ صِدْقٍ [الإسراء ١٧/ ٨٠] ، وقَدَمَ صِدْقٍ [يونس ١٠/ ٢].

المفردات اللغوية :

الر تقرأ هكذا : ألف ، لام ، را. والحروف المقطعة في أوائل السور وتعديدها يقصد به التحدي ، والإشارة إلى أن هذا القرآن كلام مكون من الحروف العربية المألوفة غير الغريبة على العرب ، فما لهم عجزوا عن محاكاته ؟ مما يدل على كونه كلام اللّه. أو هي أداة استفتاح وتنبيه لما سيلقى بعدها.

تِلْكَ أي هذه الآيات آياتُ الْكِتابِ القرآن العظيم ، والإضافة بمعنى من الْحَكِيمِ المحكم ، أي هذه آيات القرآن المحكم المبين.

أَكانَ لِلنَّاسِ أي أهل مكة ، استفهام إنكار أَنْ أَوْحَيْنا أي إيحاؤنا ، والوحي : إعلام خفي إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ محمد صلى اللّه عليه وسلّم أَنْذِرِ خوّف ، والإنذار : الإخبار بما فيه تخويف النَّاسَ الكافرين بالعذاب وَبَشِّرِ التبشير : إعلام مقترن بالبشارة بحسن الجزاء أو الثواب قَدَمَ صِدْقٍ أي سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموه من الأعمال ، سميت قدما ، لأن السعي إلى هذه الفضائل بالقدم ، كما سميت النعمة يدا ، وإضافتها للصدق للتحقق. والصدق يكون في الاعتقاد

والأقوال والأفعال وسائر الفضائل. إنَّ هذا الكتاب وما جاء به محمد لَساحِرٌ مُبِينٌ بيّن واضح ظاهر ، والسحر : شيء مؤثر في النفوس بدون أن يكون له حقيقة.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما بعث اللّه محمدا رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر ذلك منهم ، فقالوا : اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فأنزل اللّه : أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً الآية. وأنزل : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا الآية [يوسف ١٢/ ١٠٩ ومواضع أخرى] ، فلما كرر اللّه عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشرا فغير محمد كان أحق بالرسالة : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى

رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ

[الزخرف ٤٣/ ٣١] يكون أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل اللّه ردا عليهم : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ الآية [الزخرف ٤٣/ ٣٢].

التفسير والبيان :

الر : تقرأ هذه الحروف الثلاثة هكذا : ألف ، لام ، را ، والقصد منها التنبيه إلى ما يتلى بعدها ليعتني المرء بفهم ما يسمع أو يقرأ ، وتعديد الحروف على طريق التحدي ، كما مر في أول سورة البقرة.

تلك آيات القرآن المحكم ، أو ذات الحكمة لا لاشتماله عليها ، أو تلك آيات السورة الحكيمة ، التي أحكمها اللّه وبينها لعباده ، كما قال تعالى : الر ، كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أي أحكمت معانيه ومبانيه.

والأولى بالصواب كما ذكر القرطبي أن المراد القرآن ، لأن الحكيم من نعت القرآن ، كما دل قوله تعالى : كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ. والحكيم : المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام.

أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ ينكر اللّه تعالى على من تعجب من الكفار على إرسال المرسلين من البشر ، أي عجيب أمر بعض الناس الذي ينكرون إيحاءنا إلى رجل من جنسهم من البشر ، كأن الاشتراك في البشرية تحول دون الإرسال ، وكأنهم يريدون رسولا من غير جنسهم ، كما قال تعالى في آيات أخرى حكاية عنهم : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا [التغابن ٦٤/ ٦] أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا [الإسراء ١٧/ ٩٤] لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً [فصلت ٤١/ ١٤] وقال هود وصالح لقومهما : أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ [الأعراف ٧/ ٦٣].

قال ابن عباس : لما بعث اللّه تعالى محمدا صلى اللّه عليه وسلّم رسولا أنكرت العرب ذلك ،

ج ١١ ، ص : ٩٩

أو من أنكر منهم ، فقالوا : اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، فأنزل اللّه عز وجل : أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً.

(٩٤/١١)

هذا التعجب في غير محله ، إذ أن كل الرسل كانوا بشرا : وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا ، وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ [الأنعام ٦/ ٩] وردد اللّه هذا المعنى في آيات كثيرة منها : قُلْ : لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ، لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا [الإسراء ١٧/ ٩٥]. فإرسال الرسول من جنس المرسل إليهم أدعى إلى قبول دعوته ، والتفاهم معه. وأما اختيار أحد هؤلاء البشر فاللّه أعلم من هو أولى للرسالة وأحق بالاصطفاء والاختيار : اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ [الحج ٢٢/ ٧٥] ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ [الأنعام ٦/ ٣١].

أما معايير البشر فهي خطأ ، مثل كون محمد صلى اللّه عليه وسلّم يتيم أبي طالب ، إذ قال القرشيون : العجب أن اللّه تعالى لم يجد رسولا إلا يتيم أبي طالب ، أو أنه فقير ، وهم يريدون كونه غنيا مترفا وزعيما مرموقا : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [الزخرف ٤٣/ ٣١] وهم يعنون إما الوليد بن المغيرة من مكة ، أو مسعود بن عمرو الثقفي من الطائف.

ومهمة هذا النبي الموحي إليه هي الإنذار من النار : أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ أي أوحينا إليه بأن أنذر الناس وخوفهم من عذاب النار يوم البعث ، إذا ظلوا كافرين ضالين عاصين ، كما قال تعالى : لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ ، فَهُمْ غافِلُونَ [يس ٣٦/ ٦] وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم قدم صدق عند ربهم ، أي سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة عند اللّه في جنات النعيم ، وأجرا حسنا بما قدموا.

والأعمال الصالحة : هي صلاتهم وصومهم وصدقهم في القول والفعل وتسبيحهم.

ج ١١ ، ص : ١٠٠

(٩٥/١١)

و الإنذار والتبشير هما من أخص صفات النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وقد صرح القرآن بهما في آيات كثيرة مثل : لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً [الكهف ١٨/ ٢] يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً [الأحزاب ٣٣/ ٤٥].

وفي الكلام حذف يدل الظاهر عليه تقديره : ومع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم ، رجلا من جنسهم ، بشيرا

ونذيرا ، قالَ الْكافِرُونَ : إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ أي قال المنكرون المكذبون رسالته : إن محمدا ساحر ظاهر. وعلى قراءة :

إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ معناه إن هذا القرآن سحر ظاهر بيّن. وعلى أي حال فإنهم وصفوا القرآن وصاحبه المنزل عليه بالسحر وكونه الساحر ، وهم الكاذبون في ذلك. ووصفوه بالسحر لما رأوا من تأثيره القوي في القلوب ، والسحر عندهم يطلق على كل فعل غريب خارق للعادة ، لا يعرف له سبب ، مؤثر في النفوس ، جذاب يلفت الأنظار.

(٩٦/١١)

ثم تبيّن لعقلاء العرب وحكمائهم أن القرآن ليس سحرا ، لأنهم جربوا السحر وعرفوه ، فلم يجدوه مطابقا له ، لأن السحر علم يعتمد إما على الحيل والشعوذة ، أو على خواص بعض الأشياء الطبيعية ، أو على علم النجوم ، أو على دراسات نفسانية ، والقرآن ليس من هذه الأشياء إطلاقا بالتجربة والحس والمشاهدة والموازنة ، وإنما هو مغاير لها ، وفوقها ، لأنه وحي من عند اللّه على قلب نبيه ، مشتمل على أحكام سامية عالية في التشريع والقضاء ، والسياسة والاجتماع ، والعلوم والأخلاق والآداب ، معجز في أسلوبه ونظمه ومعانيه ، يفوق قدرة البشر على محاكاته أو الإتيان بشيء من مثله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت ٤١/ ٤١- ٤٢] اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً ، مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ

ج ١١ ، ص : ١٠١

اللَّهِ ، ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ [الزمر ٣٩/ ٢٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

١- القرآن الكريم كتاب محكم واضح بيّن فيما اشتمل عليه من حلال وحرام وحدود وأحكام.

٢- الإيحاء إلى رجل من البشر ليؤدي رسالة اللّه إلى الناس أمر طبيعي منطقي ، ليس محل تعجب واستغراب ، وإنما هو موافق للحكمة والعقل والواقع.

(٩٧/١١)

٣- ليست مقومات اختيار الأنبياء بحسب معايير الناس ومفاهيمهم كالمال والغنى والثروة والجاه والزعامة ، وإنما المعيار هو ما في علم اللّه جل وعز من كون النبي المصطفى هو الأهل الأكفاء الأجدر

بتحمل أعباء الرسالة ، والأوفق لتحقيق المصلحة وتبليغ الوحي إلى الناس.

٤- مهمة الرسول هي الإنذار والتبشير ، إنذار من عصاه بالنار ، وتبشير من أطاعه بالجنة. وله خصائص أخرى مثل

ما أخبر النبي صلى اللّه عليه وسلّم في الصحاح عن نفسه أنه قال : « لي خمسة أسماء. أنا محمد وأحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو اللّه بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب : أي آخر الأنبياء ، كما قال تعالى : وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب ٣٣/ ٤٠] .

٥- لا يملك الضعيف أو الخاسر المفلس سوى الاتهام الرخيص الكاذب الذي لا فائدة منه ، لذا قال الكافرون : إن هذا أي الرسول صلى اللّه عليه وسلّم لساحر مبين ، أو إن هذا القرآن لسحر مبين ، بحسب القراءتين ، فوصف الكفار القرآن بكونه سحرا يدل كما قال الرازي على عظم محل القرآن عندهم ، وكونه معجزا ، وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة ، فاحتاجوا إلى هذا الكلام الذي ذكروه في معرض الذم ، على

ج ١١ ، ص : ١٠٢

ما يظهر ، وأرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر ، ولكنه باطل في الحقيقة ، ولا حاصل له ، أو ذكروه في معرض المدح ، وأرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله ، جار مجرى السحر.

اللّه خالق السموات والأرض وعلى الخلق عبادته [سورة يونس (١٠) : آية ٣]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣)

المفردات اللغوية :

خَلَقَ الخلق : التقدير والإيجاد فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أي في قدر أيام الدنيا لأنه لم يكن ثمّ شمس ولا قمر ، ولو شاء لخلقهن في لحظة ، ولكنه عدل عن ذلك لتعليم خلقه التثبت. واليوم لغة : الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه. الْعَرْشِ مركز تدبير المخلوقات ، ولا نعلم حقيقته ، والاستواء على العرش شيء يليق به تعالى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ بين الخلائق ، والتدبير : النظر في عواقب الأمر لإيقاعها على النحو المناسب محمودة العاقبة شَفِيعٍ يشفع لأحد إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ رد لقولهم إن الأصنام تشفع لهم ذلِكُمُ الخالق المدبر فَاعْبُدُوهُ وحده.

المناسبة :

بعد أن حكى اللّه تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة ، ورد عليهم تعجبهم بأنه من

الممكن الإيحاء إلى رجل يبشر على الأعمال الصالحة بالثواب ، وعلى الأعمال الفاسدة بالعقاب ، ذكر تعالى أمرين :

الأول هنا : إثبات أن لهذا العالم إلها قادرا نافذ الحكم بالأمر والنهي.

والثاني في الآية التالية : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، ليحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر بهما الأنبياء.

ج ١١ ، ص : ١٠٣

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أزمنة أو أيام ، قيل : كأيام الدنيا وهو قول الجمهور وهو الصواب ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدون ، والأصح عند جماعة أنه تعالى خلق الكون سماءه وأرضه في زمن لا يعلم مقداره إلا هو. واليوم في اللغة هو الجزء من الزمن. ثم استوى على العرش استواء يليق بعظمته وجلاله ، ولا يعلمه إلا هو ، والعرش هو كرسيه أو مركز تدبير الخلائق ، وهو أعظم المخلوقات وسقفها ، ولا يعلم أحد حقيقة العرش إلا هو سبحانه وتعالى.

و اللّه تعالى في استوائه على العرش يدبر أمر الخلائق والملكوت بما يتفق مع حكمته وعلمه ، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته.

وإذا كان اللّه الرب خالق الأكوان وفاطر السموات والأرض على هذا النظام البديع المحكم ، فيمكنه ولا يستبعد عنه أن يوحي بشيء من علمه على بشر من خلقه ، ليهدي الناس إلى سواء السبيل ، فذلك مظهر من مظاهر قدرته وإرادته ، فيجب على منكري النبوة الإيمان بهذا الوحي وتصديق صاحبه وتأييده بكل ما جاء به.

وللّه تعالى أيضا السلطان المطلق يوم القيامة في حساب الخلائق ، فلا يستطيع شفيع أن يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه أي إرادته ومشيئته ، كقوله تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ [البقرة ٢/ ٢٥٥] وقوله : وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ [سبأ ٣٤/ ٢٣] وقوله : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى [النجم ٥٣/ ٢٦] وقوله : يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا [طه ٢٠/ ١٠٩].

ج ١١ ، ص : ١٠٤

و في هذا رد واضح على عبدة الأصنام أو الملائكة أو البشر الذين يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم عند اللّه ، كما قال تعالى عن عبدة الأصنام : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى [الزمر ٣٩/ ٣].

وفيه أيضا إثبات الشفاعة لمن أذن له اللّه الرحمن.
ذلكم اللّه ، أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية من الخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف في الشفاعة ، هو ربكم المتولي شؤونكم ، لا غيره إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك.

(١٠٠/١١)

فاعبدوه ، أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، أفلا تذكرون ، أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر في أمركم أيها المشركون ، فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبدونه من الآلهة ، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى :
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [الزخرف ٤٣/ ٨٧] وقوله : قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلا تَتَّقُونَ [المؤمنون ٢٣/ ٨٦- ٨٧].
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [الزمر ٣٩/ ٣٨].
فلقد كان العرب يؤمنون بوحدة الربوبية ، كما فهم من الآيات المذكورة ، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية ، لذا قال تعالى : ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ. ثم دعاهم تعالى إلى التفكر بقوله أَفَلا تَذَكَّرُونَ أي أتجهلون فلا تتذكرون أن اللّه هو خالق السموات والأرض ، فتستدلوا بها عليه ؟ !
فقه الحياة أو الأحكام :
تدل هذه الآية على ما يأتي :
١- إثبات الألوهية أو وجود اللّه بإثبات صفة الخلق للّه تعالى : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ.
ج ١١ ، ص : ١٠٥
٢- كون خلق السموات والأرض في ستة أيام ، لتعليم الخلق التثبت في الأمور ، مع أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر.
٣- اتفق المسلمون على أن فوق السموات جسما عظيما هو العرش ، اللّه أعلم به ، وبكيفية استوائه عليه.
٤- إن اللّه وحده هو الذي يدبر الخلائق بمقتضى حكمته ، لا يشركه في تدبيرها أحد ، وتدبيره للأشياء وصنعه لها ، لا يكون بشفاعة شفيع وتدبير مدبر.

(١٠١/١١)

٥- لا شفاعة لأحد- نبي ولا غيره- يوم القيامة إلا بإذن اللّه تعالى لأنه تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب. وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون اللّه : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ [يونس ١٠/ ١٨] فأعلمهم اللّه أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل ؟ ! ٦- إن اللّه الذي فعل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره ، فهو وحده الذي يستحق العبادة بإخلاص له.

٧- قوله : أَفَلا تَذَكَّرُونَ دال على وجوب التفكر في تلك الدلائل القاهرة الباهرة ، وأن التفكر في مخلوقات اللّه تعالى والاستدلال بها على عظمته أعلى مراتب التفكير وأكملها.

إثبات البعث والجزاء [سورة يونس (١٠) : آية ٤]

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

ج ١١ ، ص : ١٠٦

الإعراب :

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم جَمِيعاً حال منصوب.

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا مصدران منصوبان بفعلهما المقدر ، أي وعد اللّه ذلك وعدا وحققه.

المفردات اللغوية :

إِلَيْهِ تعالى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ أي بدأه بالإنشاء حَقًّا صدقا لا خلف فيه ثُمَّ يُعِيدُهُ بالبعث لِيَجْزِيَ يثيب بِالْقِسْطِ بالعدل حَمِيمٍ ماء شديد الحرارة وَعَذابٌ أَلِيمٌ مؤلم بِما كانُوا يَكْفُرُونَ أي بسبب كفرهم.

التفسير والبيان :

أثبت اللّه تعالى في الآية السابقة وجوده ووحدانيته المقتضية توحيده الخالص في العبادة ، وهنا يثبت أمرا آخر مهما في الإسلام وهو البعث والجزاء.

يخبر اللّه تعالى أن إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة ، بعد الموت ، لا يترك أحدا منكم أبدا ، ووعد اللّه ذلك وعدا حقا ثابتا لا خلف فيه.

ثم ذكر أنه تعالى كما بدأ الخلق وأنشأه حين التكوين ، كذلك يعيده في النشأة الأخرى ، والإعادة أهون من البدء ، كما قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم ٣٠/ ٢٧].

أما البدء فمشاهد بلا نزاع ، ولكن البشر لم يستطيعوا إلى الآن معرفة النشأة الأولى والقوة الموجدة للحركة في المادة.

وأما الإعادة فيتوقع العلماء خراب العالم ، لكن بعضهم ينكر البعث والجزاء ، ولكن القرآن أقام الدليل عليه بأن القادر على البدء والتكوين ، قادر على إعادة الحياة مرة أخرى بعد الموت والفناء.

والهدف من الإعادة حساب الخلق بالعدل : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أي

ج ١١ ، ص : ١٠٧

ليجازي المؤمنين الذين آمنوا باللّه ورسله وما أنزل إليهم ، وعملوا الأعمال الطيبة الصالحة ، بالعدل والجزاء الأوفى ، فيعطي كل عامل ما يستحقه من الثواب :

وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ [الأنبياء ٢١/ ٤٧].

والجزاء بالعدل لا يمنع التفضل بمضاعفة أجر المحسنين ، كما قال تعالى :

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر ٣٥/ ٣٠] وقال سبحانه : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ [يونس ١٠/ ٢٦] فالحسنى جزاء ، والزيادة فضل من اللّه وإحسان.

(١٠٣/١١)

و أما الذين كفروا باللّه ورسله وأنكروا البعث ، وتعجبوا من الإيحاء إلى بشر ينذرهم ويبشرهم ، فلهم من الجزاء شراب ساخن شديد الحرارة يقطع الأمعاء ويشوي البطون ، بئس الشراب شرابهم ، ولهم أيضا يوم القيامة عذاب موجع مؤلم أشد الألم بسبب كفرهم ، من سموم وحميم وظل من يحموم : هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ [ص ٣٨/ ٥٧- ٥٨] هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [الرحمن ٥٥/ ٤٣- ٤٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يأتي :

١- إثبات المعاد (البعث) والحشر والنشر ، بدليل أنه تعالى قادر على كل شيء ، فهو الذي بدأ الخلق ، وهو الذي يعيده : كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [الأعراف ٧/ ٢٩] فاللّه قادر على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق ، فلأن يكون قادرا على إيجادنا مرة أخرى ، مع سبق الإيجاد الأول ، كان أولى وأهون.

٢- الجزاء ثابت على الأعمال ، أما جزاء المؤمنين الصالحين فهو مقصود

ج ١١ ، ص : ١٠٨

بالذات ، بدليل تعليل الرجوع إليه تعالى بأنه للجزاء : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لأن العدل يقضي بتقديم المقابل على العمل الصالح ، وهو جزاء حسن لا يعادل بالعمل المبذول ، بل هو أفضل وأرقى وأكمل منه بكثير ، كما قال تعالى : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

[السجدة ٣٢/ ١٧] وروى البخاري حديثا قدسيا : « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

و أما جزاء الكافرين على كفرهم فليس من مقاصد خلق الإنسان ، وإنما اقتضاه العدل والعقل ، للتمييز بين المحسنين والمسيئين ، وبين الأبرار والفجار ، وبين المؤمنين والكفار ، لأننا نرى الكفار والفساق في الدنيا في أعظم الراحات أحيانا ، ونرى العلماء والصالحين ضد ذلك ، فهل يعقل أن يتساوى العامل مع العاطل ، والمحسن مع المسي ء ؟ ! قال تعالى : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص ٣٨/ ٢٨] فثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى ، لإقامة العدل بين الخلائق.

ودلت الآية أيضا على أنه لا واسطة بين أن يكون المكلف مؤمنا ، وبين أن يكون كافرا لأنه تعالى اقتصر في هذه الآية على ذكر هذين القسمين.

والخلاصة : أثبت تعالى البعث والحشر والنشر بناء على أنه لا بد من إثابة أهل الطاعة ، وعقوبة أهل الكفر والمعصية ، وأن الحكمة تقتضي تمييز المحسن عن المسي ء.

ج ١١ ، ص : ١٠٩

إثبات القدرة الإلهية في الكون بالشمس والقمر واختلاف الليل والنهار [سورة يونس (١٠) : الآيات ٥ الى ٦]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)

الإعراب :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً ضياء : مفعول به ثان لجعل. وَقَدَّرَهُ الضمير إما راجع للشمس والقمر ، ووحّد لكنه في معنى التثنية ، اكتفاء بالمعلوم ، لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر مثل قوله تعالى : وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ [التوبة ٩/ ٦٢].

وإما أن يكون الضمير راجعا إلى القمر وحده لأن بسير القمر تعرف الشهور ، والشهور المعتبرة في

الشريعة هي الشهور القمرية ، المبنية على رؤية الأهلة ، وكذلك السنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية ، كما قال تعالى : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ [التوبة ٩/ ٣٦].

المفردات اللغوية :

ضِياءً ذات ضياء أي نور نُوراً أي ذا نور ، وسمي نورا للمبالغة ، وهو أعم من الضوء. وقيل : ما بالذات ضوء ، وما بالاكتساب من غيره نور ، وقد نبه تعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيّرة في ذاتها ، والقمر نيرا بالاكتساب من الشمس وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ الضمير لكل واحد من الشمس والقمر ، أي قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدر القمر ذا منازل ، والتقدير : جعل الأشياء على مقادير مخصوصة ، والمنازل : مكان النزول لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ أى لتعلموا بذلك حساب الأوقات من السنين والأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ المذكور إلا خلقا ملتبسا بالحق ، مراعيا فيه مقتضى الحكمة البالغة ، لا عبثا. لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ يتدبرون ، فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها.

ج ١١ ، ص : ١١٠

فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك وَالْأَرْضِ وفي الأرض من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغيرها لَآياتٍ دلالات على قدرته تعالى ووجوده ووحدته وكمال علمه وقدرته. لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ يتقون عواقب الأمور ، فيؤمنون ، لأن ذلك يحملهم على التفكر والتدبر ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى الأدلة على إثبات الألوهية والتوحيد ، والبعث ، من خلق السموات والأرض ، خصص بالذكر للتأكيد أحوال الشمس والقمر الدالة على التوحيد من جهة الخلق والإيجاد ، وعلى إثبات المعاد من جهة كونهما أداة لمعرفة السنين والحساب ، وذلك رصد للزمن الذي لا بد له من نهاية ، وموت أهله ، ثم ذكر المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار ، وما خلق اللّه في السموات والأرض.

فصارت الأدلة على الألوهية والتوحيد أربعة : خلق السموات والأرض ، وأحوال الشمس والقمر ، والمنافع المترتبة على اختلاف الليل والنهار ، وما خلق اللّه في السموات والأرض من حوادث وأحوال ، كالأمطار والرعد والبرق ، والزلازل والبراكين ، والمد والجزر في البحار ، وأحوال النبات والحيوان والمعادن.

التفسير والبيان :

اللّه ربكم هو الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الشمس في النهار ضياء للكون ، ومصدرا للحياة وإشعاع الحرارة الضرورية للحياة ، في النبات والحيوان ، وجعل القمر نورا في الليل يبدد الظلمات ، وقدر مسيره في فلكه منازل أو ذا منازل ، ينزل كل ليلة في واحد منها ، وهي ثمانية وعشرون منزلا معروفة لدى العرب ، يرى القمر فيها بالأبصار ، كقوله تعالى : وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ [يس ٣٦/ ٣٩].

ج ١١ ، ص : ١١١

و تخصيص القمر بذكر منازله ، إذا جعل الضمير عائدا إليه وحده ، لسرعة سيره ، ومعاينة منازله ، وإناطة أحكام الشرع به ، ولذلك علله بقوله :

لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ أي يعرف به حساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ، والفصول الأربعة ، والحساب مطلوب لضبط أوقات العبادة من صلاة وصيام وحج وزكاة ومعاملات وعقود.

وإذا كان تقدير المنازل لكل من الشمس والقمر ، فيعرف بهما حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام. وقد حث الشرع على الانتفاع بالحساب الشمسي في نحو قوله تعالى : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ [الرحمن ٥٥/ ٥] وقوله : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ [الإسراء ١٧/ ١٢] وفي كل من الحساب الشمسي والقمري فوائد ، فالحساب الشمسي ثابت ، والحساب القمري أسهل على البدوي والحضري ، فأنيطت به الأحكام الشرعية.

ما خلق اللّه ذلك المذكور من الشمس والقمر إلا خلقا متلبسا بالحق الذي هو الحكمة البالغة ، ولم يخلقه عبثا ، بل له حكمة عظيمة في ذلك ، وحجة بالغة ، كقوله تعالى : وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا [ص ٣٨/ ٢٧] وقوله : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ [المؤمنون ٢٣/ ١١٥].

يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي يبين اللّه الآيات الكونية الدالة على عظمته وقدرته ، والآيات القرآنية ، لقوم يعلمون طرق الدلالة على الخالق ومنافع الحياة ، ويميزون بين الحق والباطل.

إن في اختلاف الليل والنهار أي في تعاقبهما ، إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا

ج ١١ ، ص : ١١٢

ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه شيئا ، وفي طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ، ومالهما من نظام دقيق ، وما فيهما من برودة وحرارة ، وكون الليل لباسا وسكنا والنهار معاشا.

وإن ما خلق اللّه في السموات والأرض من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، وأحوال الرعود والبروق والسحب والأمطار ، وأحوال البحار من مد وجزر ، وأحوال المعادن من خواص وتركيب ونحو ذلك.

إن في ذلك كله لآيات ودلائل دالة على وجود اللّه ووحدانيته وقدرته وحكمته ، وعظمته ، وكمال علمه ، لقوم يتقون مخالفة سنن اللّه في التكوين ، وسننه في التشريع ، فسنة الكون الحفاظ على الصحة ، من خالفها مرض ، وسنة الحياة الاستقامة ، من أفسدها وخالفها ، أساء لنفسه ، وكل من لم يتق عقاب اللّه وسخطه وعذابه بارتكاب المعاصي ومخالفة السنن ، عوقب على ذلك في الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- إن أحوال الشمس والقمر وما فيهما من فوائد ، والمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار ، وكل ما خلق اللّه في السموات والأرض آيات دالة على وجود اللّه وتوحيده ، وكمال قدرته وعظيم سلطانه ، ولم يخلق اللّه ذلك إلا لحكمة وصواب ، ومصلحة للإنسان.

٢- وإن تقدير الشمس والقمر في منازل مفيد في التوقيت لمعرفة عدد السنين والحساب. قال السيوطي : هذه الآية أصل في علم المواقيت ، والحساب ، والتاريخ ، ومنازل القمر.

ج ١١ ، ص : ١١٣

٣- أودع سبحانه في أجرام الكواكب والأفلاك خواص معينة وقوى مخصوصة وفوائد وآثارا في هذا العالم ، وإلا كان خلقها عبثا وباطلا وغير مفيد.

٤- المستفيد من آيات الكون هم العلماء العقلاء ، والمتقون الذين يخافون اللّه ويحذرون عقابه ، والحذر يدعوهم إلى التدبر والنظر.

المؤمنون والكافرون وجزاء كلّ [سورة يونس (١٠) : الآيات ٧ الى ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (٧) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠)

الإعراب :

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ استئناف ، أو خبر ثان ، أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير.

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ خبر أو حال آخر منه أو من الأنهار ، أو متعلق بتجري أو بيهدي.

البلاغة :

لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فيه التفات ، مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله.

المفردات اللغوية :

لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لا يتوقعونه لإنكارهم للبعث ، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها ، واللقاء : الاستقبال والمواجهة. وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا بدل الآخرة بإنكارهم لها وغفلتهم عنها.

وَاطْمَأَنُّوا بِها سكنوا إليها ، وقصروا هممهم على لذائذها وزخارفها. وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ أي تاركون النظر في دلائل وحدانيتنا ، لا يتفكرون فيها ، لأنهما كهم فيما يضادها.

ج ١١ ، ص : ١١٤

مَأْواهُمُ ملجأهم الذي يأوون إليه وقد أطلق المأوى على الجنة في ثلاث آيات ، وعلى النار في بضع عشرة آية. بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الشرك والمعاصي. يَهْدِيهِمْ يرشدهم.

بِإِيمانِهِمْ بسبب إيمانهم ، إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة ، أو لإدراك الحقائق ، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه أبو نعيم عن أنس ، والظاهر أنه ضعيف : « من عمل بما علم ورّثه اللّه علم ما لم يعلم »

(١١٠/١١)

أو لما يريدونه في الجنة ، بأن يجعل لهم نورا يهتدون به يوم القيامة.

دَعْواهُمْ فِيها

طلبهم لما يشتهونه في الجنة ، والدعوى : الدعاء ، والدعاء للناس : النداء والطلب المعتاد بينهم ، والدعاء للّه : سؤاله الخير والرغبة فيما عنده ، مع الشعور بالحاجة إليه.

ودعاؤهم هنا أن يقولوا : سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ أي تنزيها لك وتقديسا يا اللّه ، فإذا ما طلبوه وجدوه عندهم.

وَتَحِيَّتُهُمْ فيها بينهم ، والتحية : التكرمة ، بقولهم : حياك اللّه ، أي أطال عمرك.

سَلامٌ السلامة من كل مكروه. أَنِ الْحَمْدُ أن مفسرة.

المناسبة :

بعد أن أقام اللّه تعالى الدلائل على إثبات الإله ووجوده ، وعلى إثبات البعث والجزاء على الأعمال يوم الحساب ، ذكر حال من كفر به وأعرض عن أدلة وجوده ووحدانيته ، وحال المؤمنين الذين عملوا

الصالحات ، ثم أوضح جزاء كل من الفريقين.

التفسير والبيان :

إن الذين لا يتوقعون لقاء اللّه في الآخرة للحساب والجزاء على الأعمال ، لإنكارهم البعث ، ورضوا بالحياة الدنيا بدل الآخرة لغفلتهم عنها ، واطمأنوا بها وسكنوا إليها وإلى شهواتها ولذائذها وزخارفها ، وكانوا غافلين عن آيات اللّه الكونية والشرعية ، فلا يتفكرون في الأولى ، ولا يأتمرون بالثانية ، أولئك المذكورون من الفريقين مثواهم ومقامهم النار وملجؤهم الذي يلجأون إليه ، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا مع كفرهم باللّه ورسوله واليوم الآخر. وهذا الجزاء توضيح للجزاء السابق المذكور في الآية [٤].

وعطف وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ الذي يقتضي المغايرة إما لتغاير

ج ١١ ، ص : ١١٥

الوصفين ، وإما لتغاير الفريقين ، والمراد بالفريق الأول : من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا وهم الماديون الملحدون ، والمراد بالفريق الثاني : من ألهته الدنيا عن التأمل في الآخرة والإعداد لها.

(١١١/١١)

هذا جزاء الفريق الكافر وهم الأشقياء ، أما جزاء الفريق المؤمن وهم السعداء فأخبرت الآية التالية عنه : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ...

أي إن الذين آمنوا باللّه وصدقوا برسله ، وامتثلوا ما أمروا به ، فعملوا الصالحات ، ولم يغفلوا عن آيات اللّه في الكون والشريعة ، يرشدهم ربهم بسبب إيمانهم إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي بهم إلى الجنة التي تجري من تحتها الأنهار ، ومن تحت غرفهم في جنات النعيم والخلد ، وهذا مثل للتنعم والراحة والسعادة والانسجام في تلك المناظر الخلّابة ، التي تأخذ بمجامع القلوب ، وتسرّ النفوس.

ومفهوم الترتيب بين الإيمان والعمل الصالح ، وإن دلّ على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح ، لكن دلّ منطوق قوله : بِإِيمانِهِمْ على استقلال الإيمان بالسببية ، وأن العمل الصالح كالتابع له والتتمة.

دَعْواهُمْ ... أي يبدءون دعاءهم وثناءهم على اللّه تعالى بهذه الكلمة :

سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ أي تنزيها وتقديسا لك يا اللّه ، أو اللهم إنا نسبحك ، وتحيتهم فيما بينهم سَلامٌ الدالة على السلامة من كل مكروه مثل قوله :

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً ، إِلَّا قِيلًا : سَلاماً سَلاماً [الواقعة ٥٦/ ٢٥- ٢٦] ، وهي أيضا تحية المؤمنين في الدنيا ، وهي كذلك تحية اللّه تعالى حين لقائه لأهل الجنة تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ : سَلامٌ

[الأحزاب ٣٣/ ٤٤] وتحية الملائكة لهم عند دخول الجنة : وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها : سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ [الزمر ٣٩/ ٧٣].

ج ١١ ، ص : ١١٦

و آخر دعائهم الذي هو التسبيح : الحمد للّه رب العالمين ، وهو أيضا أول ثناء على اللّه حين دخول الجنة : وَقالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ [الزمر ٣٩/ ٧٤] وهو كذلك آخر كلام الملائكة : وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ [الزمر ٣٩/ ٧٥].

قال ابن كثير : وفي هذا دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبدا ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وعند ابتداء تنزيل كتابه ، حيث يقول تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ [الأنعام ٦/ ١] الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ [الكهف ١٨/ ١].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١- للكافرين الجاحدين عذاب النار بسبب ما اكتسبوا أو اقترفوا من الكفر والتكذيب والمعاصي. وقد وصفهم اللّه تعالى بصفات أربع هي :

الأولى- إن الذين لا يرجون لقاءنا ، أي لا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا.

الثانية- ورضوا بالحياة الدنيا ، أي رضوا بها عوضا من الآخرة ، فعملوا لها.

الثالثة- واطمأنوا بها ، أي فرحوا بها وسكنوا إليها.

الرابعة- والذين هم عن آياتنا غافلون ، أي لا يعتبرون ولا يتفكرون بأدلتنا.

ج ١١ ، ص : ١١٧

٢- للمؤمنين المحقين العاملين الأعمال الصالحة جنات النعيم ، تجري من تحتهم أي من تحت بساتينهم أو أسرّتهم الأنهار ، يمجدون فيها اللّه تعالى بقولهم :

سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ويحمدون ربهم بقولهم : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ والفرحة تغمرهم ، والبهجة تملأ قلوبهم ، والسعادة ترفرف بأجنحتها عليهم ، تحية اللّه لهم ، أو تحية الملك أو تحيتهم لبعضهم :

سلام.

٣- التسبيح والحمد والتهليل قد يسمّى دعاء ،

روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا اللّه العظيم الحليم ، لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم ، لا إله إلا اللّه ربّ السموات وربّ الأرض ورب العرش الكريم »

قال الطبري : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ، ويسمّونه دعاء الكرب. وهذا الدعاء الصادر من أهل الجنة ليس بعبادة إذ لا تكليف في الجنة ، إنما يلهمون به ، فينطقون به تلذذا بلا كلفة.

٤- من السنة لمن بدأ بالأكل أو الشرب أن يسمّي اللّه عند أكله وشربه ، ويحمده عند فراغه ، اقتداء بأهل الجنة.

ورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة ، فيحمده عليها ، أو يشرب الشّربة ، فيحمده عليها » .

٥- يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه ، كما قال أهل الجنة : وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.

٦- الإيمان والعمل الصالح طريق الإنسان إلى الجنة. واللّه يهدي أي يسدد ويرشد بسبب الإيمان إلى طريق الاستقامة المؤدي إلى الثواب على الأعمال.

ويجوز أن يريد اللّه تعالى بقوله : يَهْدِيهِمْ أي في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة ، كقوله تعالى : يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ [الحديد ٥٧/ ١٢] ومنه الحديث : « إن المؤمن إذا خرج من

قبره ، صوّر له عمله في صورة حسنة ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من قبره ، صوّر له عمله في صورة سيئة ، فيقول : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار » .

وما على المؤمن إلا أن يستزيد من الأعمال الصالحة ليتبوأ مكانه في الجنة ، إذ ليست الجنة بمجرد الاتصاف بالإسلام ، أو بالتمنيات المعسولة ، كما قال تعالى :

لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلا يُظْلَمُونَ

نَقِيراً [النساء ٤/ ١٢٣- ١٢٤] والنقير : قدر النّقرة في ظهر النواة.

والإيمان : هو المعرفة والهداية المترتبة عليها. والمقصود : معرفة صفات اللّه تعالى ، لا معرفة ذاته فذلك مستحيل.

والأعمال الصالحة : عبارة عن الأعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة. والأعمال المذمومة ضدّ ذلك.

استعجال الإنسان الخير دائما والشرّ حال الغضب [سورة يونس (١٠) : الآيات ١١ الى ١٢]

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)

ج ١١ ، ص : ١١٩

الإعراب :

اسْتِعْجالَهُمْ منصوب على المصدر ، تقديره : استعجالا مثل استعجالهم. فحذف المصدر وصفته ، وأقام ما أضيفت إليه الصفة مقامه.

لِجَنْبِهِ في موضع نصب على الحال ، وعامله دَعانا وقيل : العامل : مسّ ، أي مسّ الإنسان مضطجعا أو قاعدا أو قائما ، والأول أرجح.

كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا مخففة من الثقلية واسمها محذوف أي كأنه ، وحذف ضمير الشأن.

البلاغة :

الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم ، ففيه تشبيه مؤكد مجمل. وبين الشرّ والخير طباق. ووضع الاستعجال موضع التعجيل لهم بالخير إشعارا بسرعة إجابته لهم في الخير.

المفردات اللغوية :

يُعَجِّلُ يقدمه على وقته ، والتعجيل : تقديم الشيء على وقته المقدر له.

اسْتِعْجالَهُمْ طلب التعجيل ، قال العلماء : التعجيل من اللّه ، والاستعجال من العبد. لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ بأن يهلكم ولكن يمهلهم ، وقضاء الأجل : انتهاؤه. فَنَذَرُ نترك. فِي طُغْيانِهِمْ الطغيان : مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان. يَعْمَهُونَ يترددون متحيرين. الضُّرُّ الشدة كالمرض والفقر والخطر. لِجَنْبِهِ أي مضطجعا أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً في كل حال. مَرَّ مضى في طريقته على كفره. كَذلِكَ أي كما زين له الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء. لِلْمُسْرِفِينَ المشركين ، والإسراف : تجاوز الحد.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى تعجب القوم من تخصيص محمد بالنبوة ، ثم ذكر أدلة التوحيد والبعث ، أبان هنا الجواب عن قول كانوا يقولونه : اللهم إن كان ما يقول محمد حقا في ادعاء الرسالة ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، ومضمون الجواب : أنه لا مصلحة لهم في استعجالهم الشر وإلا ماتوا وهلكوا.

ج ١١ ، ص : ١٢٠

و أما مضمون الجواب عن تعجبهم : فهو أني ما جئتكم إلا بالتوحيد والإقرار بالمعاد ، وقد أقمت الأدلة على صحتها ، فلا معنى للتعجب من نبوتي.

التفسير والبيان :

العجلة من طبائع الإنسان ، فهو دائما يتعجل الخير لأنه يحبه ، ويتعجل الشّر حين الغضب والحماقة والضجر ، فلو يعجل أو يسرع اللّه للناس إجابة دعائهم في حال الشر ، كاستعجالهم تحقيق الخير ، لأميتوا وأهلكوا ، وذلك مثل استعجال مشركي مكة إنزال العذاب عليهم ، كما قال تعالى :

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ [الرعد ١٣/ ٦] وقال سبحانه : وَإِذْ قالُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [الأنفال ٨/ ٣٢].

وسمى اللّه تعالى العذاب شرّا في هذه الآية لأنه أذى في حق المعاقب ، ومكروه عنده ، كما أنه سماه سيئة في قوله : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ .. وفي قوله : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها [الشورى ٤٢/ ٤٠].

ولكنه تعالى بحلمه ولطفه بعباده لا يستجيب لهم ويذرهم إمهالا لهم واستدراجا ، فإنه لو أجابهم لانتهى أمرهم وهلكوا ، كما هلك الذين كذبوا الرسل ، وربما آمن به بعضهم ، أما من عاند فيعاقبه اللّه بالقتل ، كما قال تعالى : قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ [التوبة ٩/ ١٤].

وأما عذاب سائر الكفار فنتركه إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ أي فنترك غير المتوقعين لقاءنا فيما هم فيه من طغيان الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين ، ولا نعجل لهم في الدنيا عذاب الاستئصال تكريما للنبي صلى اللّه عليه وسلّم ، ونمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم ، إلزاما للحجة عليهم.

ج ١١ ، ص : ١٢١

و كذلك اقتضت رحمته تعالى بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر ، في حال الضجر والغضب لأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك.

روى أبو داود والحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من اللّه ساعة فيها إجابة ، فيستجيب لكم »

و

قال عليه الصلاة والسلام أيضا : « إني سألت اللّه عز وجل ألا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه » .

ومن عجلة الإنسان أيضا وضجره وقلقه أنه إذا أصابه الضرّ أي الشدة والألم من مرض أو فقر أو خطر : يدعو ربه بإلحاح في كشف ضره وإزالته ، حالة كونه مضطجعا لجنبه ، أو قاعدا أو قائما وفي جميع أحواله لأن فائدة الترديد في القعود وغيره تعميم الدعاء لجميع الأحوال ، فإذا فرّج اللّه شدته وكشف كربته ، أعرض ونأى بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ، ومضى في طريقه من الغفلة عن ربه والكفر به ، كأنه لم يدع إلى شيء ولم يكشف اللّه عنه ضره.

فقوله : إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ أي إلى كشف ضر.

وذلك كقوله تعالى : وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ [فصلت ٤١/ ٥١] ، ثم قال تعالى : كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي مثل ذلك العمل القبيح المنكر أو التزيين وهو الذي حدث من اللجوء إلى اللّه تعالى وقت الشدة وتركه في الرخاء ، زيّن للمشركين طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك والإعراض عن القرآن والعبادات ، واتباع الشهوات.

والمراد بالإنسان في قوله : وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ هو الكافر لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة.

ج ١١ ، ص : ١٢٢

و قوله : دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً يراد به أحوال الدعاء.

و المراد بالمزين في قوله : زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ هو الشيطان أو النفس ، أو اللّه تعالى. وسمي الكافر مسرفا في نفسه وماله ومضيعا لهما لأنه في النفس جعلها عبدا للوثن ، وفي المال فلأنه أضاعه فيما لا يفيد. والأصح كما قال القرطبي أن الآية تعم الكافر وغيره ، وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين ، إذا أصابته العافية ، استمر على ما كان عليه من المعاصي.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الآتي :

١- اللّه لطيف بعباده حليم رحيم بهم لا يستجيب دعاءهم على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال الضجر والغضب ، فلو عجل اللّه للناس العقوبة ،كما يستعجلون الثواب والخير ، لماتوا لأنهم خلقوا في الدنيا خلقا ضعيفا ، وذلك على عكس خلقهم يوم القيامة لأنهم حينئذ يخلقون للبقاء.

فالآية ذامّة خلقا ذميما في بعض الناس ، يدعون في الخير ، فيريدون تعجيل الإجابة ، ثم يحملهم أحيانا سوء الخلق على الدعاء في الشرّ ، فلو عجّل لهم لهلكوا.

ومن حكمة اللّه تعالى أن آمن بالنبي صلى اللّه عليه وسلّم قومه العرب وآخرون من الأمم ، ومن يكفر يعاقبه اللّه بالقتل أو يؤخره إلى يوم القيامة ، وهذا معنى قوله : فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ ...

٢- لا يعجل اللّه للناس الشر ، فربما يتوب منهم تائب ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن. وقد رحم اللّه تعالى العالم كله بالنبي صلى اللّه عليه وسلّم ، فرفع عن الأمم عذاب الاستئصال لأنه رحمة للعالمين.

٣- الإنسان في جميع حالاته الاضطرارية لا يجد ملجأ أمامه سوى اللّه تعالى

ج ١١ ، ص : ١٢٣

فيدعوه لكشف ما تعرض له من ضرّ ، ولكنه سرعان ما ينسى ربه ، ولا يكون وفيا لفضل اللّه عليه ، فإذا نجا وكشف اللّه عنه الضر ، استمر على كفره ولم يشكر ولم يتّعظ.

(١١٩/١١)

٤- وكما زيّن للإنسان الدعاء عند البلاء ، والإعراض عند الرخاء ، زيّن للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي ، وهذا التزيين يجوز أن يكون من اللّه بخذلانه وتخليته ، ويجوز أن يكون من الشيطان بوسوسته. وإضلال الشيطان :

دعاؤه إلى الكفر.

سنة اللّه في إهلاك الأمم الظالمة الكافرة واستخلاف خلائف بعدهم [سورة يونس (١٠) : الآيات ١٣ الى ١٤]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

الإعراب :

لَمَّا ظَلَمُوا لَمَّا : ظرف لأهلكنا لِيُؤْمِنُوا اللام لتأكيد النفي.

وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ عطف على ظَلَمُوا ، أو حال من واو ظَلَمُوا بإضمار :

قد.

كَيْفَ تَعْمَلُونَ كيف : معمول تَعْمَلُونَ ومنصوب به.

البلاغة :

كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه.

ج ١١ ، ص : ١٢٤

لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ في النظر استعارة تمثيلية ، حيث شبه حال العباد مع اللّه ، بحال رعية مع حاكمها ، في إمهالهم للنظر في أعمالهم ، وأستعير المشبّه به للمشبه للتقريب والتمثيل ، لكن ليس كمثل اللّه شي ء. وأستعير لفظ النظر للعلم الحقيقي الذي لا يتطرق الشك إليه ، وشبه هذا العلم بنظر الناظر وعيان المعاين.

المفردات اللغوية :

الْقُرُونَ الأمم ، جمع قرن : وهم القوم المقترنون في زمان واحد. مِنْ قَبْلِكُمْ يا أهل مكة وأمثالكم. لَمَّا ظَلَمُوا بالشرك والتكذيب. بِالْبَيِّناتِ الدلالات الواضحات الدالة على صدقهم. كَذلِكَ مثل ذلك الجزاء : وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم. نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ الكافرين.

ثُمَّ جَعَلْناكُمْ يا أهل مكة. خَلائِفَ جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء أي استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر. لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فيها ، أتعملون خيرا أو شرا ، فنعاملكم على مقتضى أعمالكم ، وهل تعتبرون بالأمم السابقة ، فتصدقوا رسلنا.

وننظر : نشاهد ونرى.

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى أنهم كانوا يتعجلون العذاب ، وأوضح أنه لا فائدة في إجابة دعائهم ، ثم ذكر أنهم كاذبون في هذا الطلب إذ لو نزل بهم ضر ، تضرعوا إلى اللّه تعالى في إزالته وكشفه ، بيّن هنا ما يجري مجرى التهديد : وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال ، كما أنزله في الأمم السابقة ، ليكون ذلك رادعا لهم عن مطلبهم تعجيل العذاب.

التفسير والبيان :

يخاطب اللّه تعالى أهل مكة ويخبرهم بأنه أهلك كثيرا من الأمم قبلهم بسبب ظلمهم وتكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات ، كما قال : وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ،

وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً [الكهف ١٨/ ٥٩] وهلاك تلك القرى والأمم بالظلم : إما بعذاب الاستئصال لأقوام

ج ١١ ، ص : ١٢٥

الرسل الذين كذبوا بهم مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وإما بإضعافهم واستيلاء الأمم القوية عليهم بسبب ظلم الأفراد بالفسق والفجور أو ظلم الحكام.

لقد أهلكناهم لما كذبوا بالبينات الدالة على صدق رسلهم ، وما كانوا ليؤمنوا ، أي وما كانوا يؤمنون حقا ، وهو تأكيد لنفي إيمانهم ، وأن اللّه قد علم منهم أنهم يصرون على الكفر ، وأن الإيمان مستبعد منهم. والمعنى : أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل ، وعلم اللّه أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل.

كذلك .. أي مثل ذلك الجزاء أي الإهلاك ، نجزي كل مجرم. وهذا وعيد شديد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم.

ثم خاطب اللّه الذين بعث إليهم محمد صلى اللّه عليه وسلّم بقوله : ثُمَّ جَعَلْناكُمْ أي جعلناكم خلفاء في الأرض بعد تلك القرون التي أهلكنا ، لننظر أتعملون خيرا أم شرا ، وننظر طاعتكم لرسولنا واتباعكم له.

وفي هذا بيان بأن أمة الإسلام ستكون لها الخلافة في الأرض إذا لازمت الطاعة واتبعت هدي القرآن : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [النور ٢٤/ ٥٥] وقد تمت هذه فملكوا ملك كسرى وقيصر وفرعون وكثير من الأمم. وجاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن اللّه مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » .

والخلافة منوطة بالأعمال الصالحة ، لا بمجرد الوراثة للصفة الإسلامية.

ج ١١ ، ص : ١٢٦

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى المبادئ التالية :

١- إن إهلاك الأمم الظالمة قديما وحديثا إنما يكون بسبب الظلم ، والظلم :

إما الكفر والشرك ، وإما طغيان الأفراد أو الحكام.

٢- هذه الآية تخويف ووعيد لأهل مكة الكفار ولأمثالهم على تكذيبهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، فاللّه قادر على إهلاك الأمة التي تكذب محمدا صلى اللّه عليه وسلّم ، ولكن حكمته اقتضت إمهالهم لعلمه بأن فيهم من يؤمن ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن. وهكذا حال الأمم الحالية ، نرى في كل أمة اتجاها إلى إيمان الآلاف منهم بعقيدة الإسلام ونظامه.

٣- هذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان.

٤- الاستخلاف في الأرض منوط بالعمل الصالح ، فاللّه يستخلف قوما بعد آخرين لينظر كيف يعملون ، خيرا أو شرا ، فيعاملهم على حسب عملهم. وبما أن اللّه يعلم ما سيكون في المستقبل في كل أنحاء الكون ومن المخلوقات ، فيكون المقصود إقامة الدليل الحسي والمادي المشاهد على الناس من خلال أعمالهم الواقعية ، لذا قال المفسرون كالرازي :

ليس معنى الآية بأن اللّه تعالى ما كان عالما بأحوال الخلق قبل وجودهم ، وإنما المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ، ليجازيهم بحسبه ، كقوله : لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [الملك ٦٧/ ٢].

ج ١١ ، ص : ١٢٧

مطالبة المشركين بقرآن آخر أو بتبديل بعض آياته [سورة يونس (١٠) : الآيات ١٥ الى ١٧]

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

الإعراب :

بَيِّناتٍ حال. مِنْ تِلْقاءِ مصدر استعمل ظرفا.

البلاغة :

أَفَلا تَعْقِلُونَ استفهام إنكار وتوبيخ.

المفردات اللغوية :

آياتُنا القرآن. بَيِّناتٍ ظاهرات. قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا وهم المشركون الذين لا يخافون البعث. ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا ليس فيه عيب آلهتنا ، ولا ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت. أَوْ بَدِّلْهُ

بنفسك بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى. ما يَكُونُ لِي ما ينبغي وما يصح لي. أَنْ ما عَصَيْتُ رَبِّي بتبديله.

عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ هو يوم القيامة. وهذا يعني أنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

وَلا أَدْراكُمْ بِهِ ولا أعلمكم به على لساني ، وَلا : نافية عطف على ما قبله والمعنى أن الأمر بمشيئة اللّه تعالى ، لا بمشيئتي حتى أجعله على نحو ما تشتهونه. لَبِثْتُ مكثت. فِيكُمْ عُمُراً أربعين سنة. مِنْ قَبْلِهِ لا أحدثكم بشي ء. أَفَلا تَعْقِلُونَ أنه ليس من قبلي ، أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه ، لتعلموا أنه ليس إلا من اللّه.

ج ١١ ، ص : ١٢٨

(١٢٤/١١)

فَمَنْ أَظْلَمُ أي لا أحد. افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بنسبة الشريك إليه. أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ القرآن فكفر بها. إِنَّهُ أي الشأن. لا يُفْلِحُ لا يسعد. الْمُجْرِمُونَ المشركون.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى شبهتين للمشركين (و هما التعجب من إنزال الوحي على بشر وتخصيص محمد بالنبوة ، والمطالبة بتعجيل العذاب إن كان ما يقول محمد حقا ، ثم أثبت لهم الألوهية والتوحيد والقدرة على الوحي والبعث بخلق العالم وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه ، ذكر هنا النوع الثالث من شبهاتهم في الطعن في نبوة النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وهو التشكك في القرآن ، لذا طالبوه بأحد أمرين : أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن ، أو أن يبدل هذا القرآن. روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما : أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقرآن : الوليد بن المغيرة المخزومي ، والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن حنظلة ، فقتل اللّه كل رجل منهم بطريق آخر ، كما قال : إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ [الحجر ١٥/ ٩٥] فذكر تعالى أنهم كلما تليت عليهم آيات : قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ.

التفسير والبيان :

إذا قرأ الرسول صلى اللّه عليه وسلّم على المشركين كتاب اللّه وحججه الواضحة ، قالوا له : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ، ليس فيه ما يعيب آلهتنا ولا ما لا نؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال ، أو بدّله إلى وضع آخر ، بأن تجعل مكان آية الوعيد آية أخرى. ومقصدهم من هذه المساومة إذا نفّذ اقتراحهم إبطال دعواه أن القرآن كلام

ج ١١ ، ص : ١٢٩

اللّه. وقوله : قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا يعني لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب ، أي أنهم مكذبون بالحشر والنشر.

فأمره اللّه أن يقول ردا عليهم : ما يصح لي وليس من شأني أن أبدل هذا القرآن من قبل نفسي ، فإني ما أتبع فيه إلا ما يوحى إلي ، وهو ما أبلّغكم به ، وما علي إلا البلاغ ، فهو كلام اللّه تعالى ، والمتبع لغيره في أمر ليس له التصرف فيه.

وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر.

فقوله : إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ تعليل لما يكون ، ثم أكد ما سبق بقوله : إِنِّي أَخافُ .. أي إني أخشى إن ارتكبت أي مخالفة أو عصيان لما أمر ربي عذاب يوم عظيم هو عذاب النار يوم القيامة.

وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

ثم احتج لهم في مجال صحة ما جاءهم به ، وهو جواب عن طلبهم الأول تغيير القرآن ، بقوله : قُلْ : لَوْ شاءَ اللَّهُ .. أي قل لهم أيها الرسول : لو شاء اللّه ألا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم ، فإنما أتلوه بأمره ، وجئتكم به بإذنه ، وأفعل ذلك بمشيئته وإرادته. ولو شاء اللّه ألا يعلمكم به بإرسالي إليكم ، لما أرسلني ، ولما أعلمكم اللّه به ، ولا أخبركم به ، ولكنه شاء أن يرفدكم بهذا الكتاب المشتمل على الهدى والسعادة : وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ ، هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأعراف ٧/ ٥٢].

والدليل على ما أقول أني لبثت فيكم مقدار عمر أربعين سنة من قبل نزول القرآن ، لا أتلو شيئا منه ولا أعلمه أَفَلا تَعْقِلُونَ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر في أن من عاش أميا أربعين سنة ، لم يقرأ كتابا ، ولا تعلم من

أحد ، ولا خطّ بيمينه شيئا من الكلام ، لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولكل العلماء ، فأنتم وغيركم من الإنس والجن لم تستطيعوا معارضته.

وهذه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة لأنه كلام اللّه ، وليس كلام بشر ، بدليل أنكم فرسان البلاغة والفصاحة وأساطين البيان ، ولم تأتوا بسورة من مثله لأن فصاحته بذّت فصاحة كل منطيق ، وعلا عن كل منثور ومنظوم ، واحتوى على قواعد الأصول والفروع ، وأعرب عن قصص الأولين ،

وأخبر عن مغيبات المستقبل ، وجاء مطابقا للعلوم الصحيحة والنظريات العلمية الثابتة :

قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً [الإسراء ١٧/ ٨٨].

فلا أحد أظلم من رجلين : أحدهما- من افترى على اللّه الكذب بنسبة الشريك أو الولد إليه ، أو بتبديل كلامه على النحو الذي اقترحتموه ، أو بالتقول على اللّه والزعم أن اللّه أرسله ولم يكن كذلك.

والثاني- من كذّب بآيات اللّه البينة ، فكفر بها ، ثم علل تعالى ذلك بقوله : إِنَّهُ لا يُفْلِحُ ... أي إنه لا يفوز المجرمون ، أي الكافرون في الآخرة ، فالمقصود من قوله : فَمَنْ أَظْلَمُ ... نفي الكذب عن نفسه. والمقصود بقوله : أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إلحاق الوعيد الشديد بهم حيث كذبوا بآيات اللّه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- التسجيل الواضح الفاضح لكلام المشركين المطالبين إما الإتيان بغير القرآن وإما تبديله ، والفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه غيره ، وأما التبديل فلا يجوز أن يكون معه غيره. وسبب هذا الطلب إما السخرية والاستهزاء ، وإما التجربة والامتحان.

ج ١١ ، ص : ١٣١

و مضمون الأمرين : إما إسقاط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، وإما تحويل الوعد وعيدا ، والوعيد وعدا ، والحلال حراما والحرام حلالا ، وإما إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. ويصح إرادة كل هذه الأشياء.

٢- رفض مطالب المشركين ، وإعلان كون القرآن كلام اللّه ، وأن مهمة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم مقصورة على تبليغ ما يوحى إليه ، واتباع ما يتلوه عليهم من وعد ووعيد ، وتحريم وتحليل ، وأمر ونهي.

٣- الموقف الثابت من عدم التبديل والتغيير لشريعة القرآن ، والإصرار على العمل بالقرآن إنما هو بسبب التعرض لعذاب عظيم يوم القيامة.

٤- المقصود من إنزال القرآن تبليغه إلى جميع الناس ، ولا سيما المشركون ، ولولا أن تكون مشيئة اللّه ذلك لما أنزله ، ولما أمر بتلاوته عليهم ، ولما أخبرهم بمضمونه.

٥- القرآن كلام اللّه بدليل إعجازه من حيث النظم والأسلوب والمبنى ، ومن حيث المعاني التي اشتمل عليها ، وبدليل كون المبلّغ له أمّيا لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم من أحد ، وبدليل التحدي لمعارضته والإتيان بمثله أو بأقصر سورة من مثله.

٦- لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما ممن افترى على اللّه الكذب ، وبدّل كلامه وأضاف شيئا إليه مما لم ينزله ، وكذلك لا أحد أظلم منكم أيها المشركون والكفار إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على اللّه الكذب ، وقلتم : ليس هذا كلامه.

٧- لا فوز ولا فلاح للمجرمين الكافرين ، والاجرام مصيره الخيبة حتما.

ج ١١ ، ص : ١٣٢

عبادة الأصنام وادعاء شفاعتها [سورة يونس (١٠) : آية ١٨]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)

الإعراب :

(١٢٨/١١)

هؤُلاءِ إشارة إلى ما في قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ حملا على معنى ما لأنها هاهنا في معنى الجمع ، وإن كان لفظها مفردا ، كما أن مِنْ تقع على الجمع ، وإن كان لفظها مفردا.

فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ حال من العائد المحذوف في يَعْلَمُ مؤكدة للنفي ، منبهة على أن ما تعبدون من دون اللّه إما سماوي وإما أرضي. عَمَّا يُشْرِكُونَ ما : موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء أو عن إشراكهم.

البلاغة :

أَتُنَبِّئُونَ استفهام تقريع وتهكم بهم.

المفردات اللغوية :

مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره ما لا يَضُرُّهُمْ إن لم يعبدوه وَلا يَنْفَعُهُمْ إن عبدوه وهو الأصنام لأنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضر ، والمعبود ينبغي أن يكون مثيبا ومعاقبا حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر.

وَيَقُولُونَ عنها هؤُلاءِ الأوثان شُفَعاؤُنا تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا وفي الآخرة إن يكن بعث ، وكأنهم شاكين فيه. أَتُنَبِّئُونَ أتخبرون بِما لا يَعْلَمُ وهو أن له شريكا ، إذ لو كان له شريك لعلمه ، إذ لا يخفى عليه شيء سُبْحانَهُ تنزيها له عَمَّا يُشْرِكُونَ عن إشراكهم.

ج ١١ ، ص : ١٣٣

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى أن المشركين طلبوا من الرسول صلى اللّه عليه وسلّم قرآنا غير هذا القرآن أو تبديله لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي اتخذوها آلهة لأنفسهم ، ندد بعبادتهم تلك

الأصنام وجعلها شفعاء ، مع أنها جماد لا تضر ولا تنفع ، ولا برهان لهم على ما يدّعون ، فكيف يليق بالعقلاء عبادتها من دون اللّه ؟ !

التفسير والبيان :

ينكر اللّه تعالى على المشركين أمرين : عبادة الأصنام وجعلها شفعاء لهم عند اللّه ، ظانين أنها تنفعهم شفاعتها عند اللّه ، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئا.

(١٢٩/١١)

إن أكثر العرب كانوا يعترفون بالخالق : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، لَيَقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ [الزخرف ٤٣/ ٩] وينكرون البعث ، ويعبدون الأصنام ، وهي لا تنفع ولا تضر لأنها حجارة أو أجسام مصنوعة ، فهم يعبدون اللّه ويعبدون معه غيره ، كما قال تعالى : وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ ، إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [يوسف ١٢/ ١٠٦].

فهم يزعمون وجود قدرة للأصنام على النفع والضرر ، وأنها وسطاء تملك الشفاعة لهم عند اللّه : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى [الزمر ٣٩/ ٣] فهذان هما السببان في عبادتهم الأصنام. روي أن النضر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللّات والعزى.

فرد اللّه عليهم بقوله : قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ .. أي قل أيها الرسول لهم :

لا دليل لكم على ما تدعون ، أتخبرون اللّه بما لا وجود له في السموات ولا في الأرض ، وما لا يعلمه من هؤلاء الشفعاء ؟ نظيره قوله : أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ

ج ١١ ، ص : ١٣٤

فِي الْأَرْضِ

[الرعد ١٣/ ٣٣] ونفي العلم دليل على عدم وجود تلك الشفعاء والشركاء للّه ، فلا شيء من الموجودات السماوية والأرضية إلا وهو حادث مقهور مثلهم ، لا يليق أن يشرك به.

ثم نزّه اللّه تعالى نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال : سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أي تنزه اللّه وتعاظم وتعالى علوا كبيرا عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء ، فهو منزه عن إشراكهم وعن الشركاء الذين يشركونهم به.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

(١٣٠/١١)

١- عبد المشركون الأصنام مع اعترافهم بأن الرب الخالق هو اللّه تعالى لأمرين : اعتقادهم فيها القدرة على الضرر والنفع ، وأنها تملك الشفاعة لهم عند اللّه في أمور الدنيا والآخرة. وهذا غاية الجهالة منهم ، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال ، وتركوا عبادة الموجد الضار النافع.

٢- عبادة المشركين الأوثان واتخاذها شركاء للّه افتراء على اللّه بوجودها ، فلا وجود أصلا لتلك الشركاء في السموات والأرض لأن اللّه لا يعلم لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض لأنه لا شريك له ، فلذلك لا يعلمه ، فلو كان موجودا لكان معلوما للّه تعالى ، وحيث لم يكن معلوما للّه تعالى وجب ألا يكون موجودا.

٣- دل قوله : سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ على أنه أعظم من أن يكون له شريك.

قال الزمخشري عن عَمَّا ما : موصولة أو مصدرية. أي عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم.

٤- أثبتت الآية بطلان الشرك في الألوهية : وهو عبادة غير اللّه مطلقا ،

ج ١١ ، ص : ١٣٥

و بطلان الشرك في الربوبية ، بادعاء وساطة المعبود في الخلق والتدبير ، أو الشفاعة عند اللّه.

الأصل في الناس جميعا كونهم على الدين الحق [سورة يونس (١٠) : آية ١٩]

وَما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

المفردات اللغوية :

أُمَّةً واحِدَةً أي على دين واحد وهو دين الإسلام من لدن آدم إلى نوح ، أو من عهد إبراهيم إلى عمرو بن لحيّ الذي سنّ للعرب عبادة الأصنام فَاخْتَلَفُوا بأن ثبت بعض وكفر بعض وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ بتأخير الحكم بينهم أو تأخير الجزاء والعذاب الفاصل إلى يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أي بين الناس عاجلا في الدنيا فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من الدين بإهلاك المبطلين وهم الكافرون ، وإبقاء المحقين وهم المؤمنون.

المناسبة :

بعد أن أقام اللّه تعالى الأدلة على بطلان عبادة الأصنام ، بيّن سبب حدوث هذا المذهب الفاسد ، وأن هذا الشرك حادث في الناس بسبب الاختلاف أي اتباع الهوى والباطل ، بعد أن لم يكن ، وأن الناس

كلهم كانوا على دين واحد هو الدين الحق وهو دين الإسلام.
قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس ، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان ، فبعث اللّه الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ [الأنفال ٨/ ٤٢].
ج ١١ ، ص : ١٣٦
التفسير والبيان :
ما كان الناس في كل زمن إلا أمة واحدة على الفطرة النقية المؤمنة باللّه تعالى وحده لا شريك له ، أي فطرة الإسلام والتوحيد. ثم اختلفوا بعدئذ في الأديان باتباع الأهواء والأباطيل ، أو عند بعثة الرسل فتبعتهم طائفة وأصرّت أخرى على الضلال. ونظير هذه الآية قوله تعالى : كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ [البقرة ٢/ ٢١٣] ويؤيده
قوله صلى اللّه عليه وسلّم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه » « ١ » .

(١٣٢/١١)

فكل الناس كانوا جميعا على الدين الحق وهو دين الإسلام ، ثم اختلفوا فبعث اللّه الأنبياء والمرسلين لهدايتهم وإزالة الاختلاف بكتاب اللّه ، فمنهم من آمن واهتدى ، ومنهم من ضل واعتدى ، ثم اختلفوا في كتاب اللّه اتباعا لأهوائهم.
وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ، أي ولو لا ما تقدم من اللّه تعالى من كلمة حق في جعل الجزاء الفاصل بين الناس يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء ، لعجّل لهم العذاب في الدنيا بإهلاك المبطلين ، وتعذيب العصاة بسبب اختلافهم ، ولقضي بينهم فيما اختلفوا فيه : إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [يونس ١٠/ ٩٣].
وفي هذا وعيد على الاختلاف في أصول الاعتقاد وفي الكتاب الذي أنزل لإعادة الناس إلى الوحدة الأولى وإزالة الشقاق بينهم. كما أن فيه تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلّم في تأخير العذاب عمن كفر به ، وبيانا لطبع الإنسان.

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع ، وهو حديث صحيح. [.....]
ج ١١ ، ص : ١٣٧
فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآية أحكاما ثلاثة :

١- الأصل في الإنسان كونه على دين الفطرة والتوحيد ، وهذا دليل على عدل الخالق ورحمته ، فإنه تعالى خلق كل إنسان موحدا ، وحكم ببقائه على التوحيد إلى البلوغ ، ثم تركه للعقل والتفكر في الوحي الإلهي.

٢- الاختلاف على الأنبياء والكتب الإلهية بسبب اتباع الهوى والباطل هو سبب تفرق الناس وانقسامهم إلى مؤمنين وكفار.

(١١/١٣٣)

٣- سبق القضاء والقدر وتم حكم اللّه بأنه لا يقضي بين العباد فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب قبل يوم القيامة ، ولو لا ذلك الحكم السابق والتأجيل المتقدم ، لقضى اللّه بين الناس في الدنيا ، فأدخل المؤمنين الجنة ، والكافرين النار بكفرهم ، وهو موعدهم يوم القيامة الذي جعله اللّه لحكمة بالغة هي إعطاء الفرصة الكافية للإنسان في تصحيح عقيدته ، وتعديل وضعه ، والتوبة من عصيانه وكفره وضلاله ، حتى لا يؤخذ على حين غرّة.

طلب المشركين إنزال آية كونية [سورة يونس (١٠) : آية ٢٠]

وَيَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)

المفردات اللغوية :

وَيَقُولُونَ أي أهل مكة لَوْ لا هلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ على محمد صلى اللّه عليه وسلّم آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أي آية حسية كونية مادية من الآيات التي اقترحوها ، كما كان للأنبياء من ناقة صالح ، والعصا واليد لموسى ، والمائدة لعيسى عليهم السلام فَقُلْ : إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فقل لهم : إنما الغيب (و هو ما غاب

ج ١١ ، ص : ١٣٨

عن العباد) لأمر اللّه ، فهو المختص بعلمه ، ولا يأتي بها إلا هو ، وإنما على التبليغ ، ولعله لا ينزلها ، لعدم الفائدة في إنزالها ، فقد نزلت آيات كثيرة ولم يؤمن بها المعاندون الجاحدون ، والمانع من إنزالها أمر مغيب لا يعلمه إلا هو فَانْتَظِرُوا نزول ما اقترحتموه ، أو العذاب إن لم تؤمنوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لما يفعل اللّه بكم بجحودكم ما نزل عليه من الآيات العظام واقتراحكم غيره.

المناسبة :

(١١/١٣٤)

بعد أن ذكر اللّه تعالى ثلاث شبهات للمشركين للطعن في نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلّم (و هي عجبهم من نزول الوحي على محمد ، وتعجلهم العذاب إن كان صادقا ، وتشككهم في القرآن) ذكر هنا شبهة رابعة لإنكار نبوته ، وهي أن الكتاب لا يكون معجزا ، بدليل أن كتاب موسى وعيسى ما كان معجزة لهما ، بل كان لهما معجزات أخرى دلت على نبوتهما ، وكان في مشركي العرب من يدعي إمكان معارضة القرآن ، لقوله تعالى : لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا [الأنفال ٨/ ٣١] وإنما لا بد لإثبات نبوته من نزول آية كونية حسية مادية غير هذا القرآن ، ليكون معجزة له.

هذا مع العلم بأن القرآن الكريم اشتمل على آيات علمية وعقلية دالة على النبوة والرسالة.

التفسير والبيان :

ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون قولا متكررا : هلا أنزل على محمد صلى اللّه عليه وسلّم آية كونية حسية مشاهدة كالتي نزلت على نوح وشعيب وهود وصالح وموسى وعيسى ، أو أن يحول الصفا لهم ذهبا ، أو يزيح ، عنهم جبال مكة ، ويجعل مكانها بساتين وأنهارا ، أو نحو ذلك مما اللّه عليه قادر.

وقد حكى القرآن عنهم في مواضع كثيرة هذا الطلب بإنزال معجزات مادية ، وأجاب عنه إما مجملا كما هنا ، وإما مفصلا ، كما في سورة الفرقان : وَقالُوا

ج ١١ ، ص : ١٣٩

ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ، لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ، أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها

[٧- ٨] ثم في آيات بعدها : تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً [١٠].

(١٣٥/١١)

و في سورة الإسراء طالبوا بواحدة من بضع آيات : وَقالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ ، فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ : سُبْحانَ رَبِّي ، هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا [٩٠- ٩٣].

وكان الرد الحاسم على مثل هذه الاقتراحات قوله تعالى : وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ [الإسراء ١٧/ ٥٩] أي كذب بها قوم عاد وثمود وغيرهم. وقضينا ألا نعاملهم بمثل معاملة

الأقوام الغابرة ، فنستأصلهم لأن محمدا خاتم النبيين ، ورحمة عامة شاملة للعالمين ، وقد يلد منهم من يؤمن ويوحد اللّه تعالى.

ومع كل هذا آتى اللّه نبيه آيات علمية وكونية ، ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ، ولا طالبهم بالإيمان بموجبها ، بل كانت لضرورة كاستجابة بعض أدعيته صلى اللّه عليه وسلّم ، كشفاء المرضى ، وإشباع العدد الكثير في غزوتي بدر وتبوك من الطعام القليل ، وانشقاق القمر نصفين ، وحنين الجذع ، وتكليم الضب ، ونحو ذلك مما هو معروف مستقصى في كتب السنة والسيرة مثل أعلام النبوة للماوردي.

وبالرغم من تلك الآيات ، ظل القرآن الكريم هو معجزة النبي صلى اللّه عليه وسلّم الخالدة ، ولعل عصرنا بما اكتشف فيه من اختراعات عجيبة ، وظهرت فيه

ج ١١ ، ص : ١٤٠

نظريات كونية وعلمية تتفق مع الأخبار الواردة في القرآن ، يؤيد الاكتفاء بهذه المعجزة.

(١٣٦/١١)

روى الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعا : « ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه اللّه إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

وكان الجواب الإجمالي في هذه الآية : فَقُلْ : إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ أي إن تلبية مقترحاتكم ونزول الآية من الأمور الغيبية ، واللّه وحده هو المختص بعلم الغيب ، فلا يعلم به إلا هو ، والأمر كله للّه ، وهو يعلم عواقب الأمور ، وليس لي ولا لأحد علم بالغيب المستأثر به سبحانه وتعالى ، فإن قدّر إنزال آية علي ، فهو يعلم وقتها.

فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ أي إن كنتم لا تؤمنون بي حتى تشاهدوا ما سألتم من نزول الآيات المقترحة ، فانتظروا حكم اللّه فيّ وفيكم ، وهو ما سيحلّ بكم من العذاب لعنادكم وجحودكم بالآيات.

وقد فسّر اللّه تعالى ما ينتظر في القسم الأخير من هذه السورة : فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ : فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [١٠٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآية أمرين :

١- علم الغيب ومنه الوحي وإنزال المعجزات والآيات الكونية مختص باللّه تعالى ، وما النبي إلا رسول موحى إليه ، يبلّغ ما أنزل إليه من ربه.

٢- تهديد كفار مكة وأمثالهم بحلول العذاب إن لم يؤمنوا برسالة النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وإنذارهم بفصل القضاء بينه وبينهم بنصره عليهم ، وإظهار المحق على المبطل.

ج ١١ ، ص : ١٤١

عادة الكفار المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف [سورة يونس (١٠) : الآيات ٢١ الى ٢٣]

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

الإعراب :

إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ بَغْيُكُمْ : مبتدأ ، وعَلى أَنْفُسِكُمْ : خبره.

مَتاعَ الْحَياةِ منصوب إما بفعل مقدر ، تقديره : تبتغون متاع الحياة الدنيا ، أو على المصدر المؤكد بفعل مقدر تقديره : تمتعوا متاع الحياة الدنيا. ويقرأ بالرفع خبرا بعد خبر لبغيكم ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو متاع الحياة الدنيا. ويقرأ بالجر على غير المشهور على البدل من الكاف والميم في أَنْفُسِكُمْ وتقديره : إنما بغيكم على متاع الحياة الدنيا.

جاءَتْها جواب إِذا.

دَعَوُا اللَّهَ ... بدل من : ظَنُّوا بدل اشتمال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم.

لَئِنْ أَنْجَيْتَنا .. على إرادة القول ، أو مفعول : دعوا لأنه من جملة القول. ولام لَئِنْ : لام القسم.

البلاغة :

أَسْرَعُ مَكْراً المكر : إخفاء الكيد ، وهو من اللّه تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر ، وتسمية عقوبة اللّه مكرا من باب « المشاكلة » .

ج ١١ ، ص : ١٤٢

وَ جَرَيْنَ بِهِمْ فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة ، لزيادة التقبيح والتشنيع على الكفار ، لعدم شكرهم النعمة ، وللتعجب من حالهم والإنكار عليهم.

المفردات اللغوية :

أَذَقْنَا أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ، ويستعمل مجازا في إدراك غيره من الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة ، والعذاب والنقمة. النَّاسَ أي كفار مكة رَحْمَةً مطرا وخصبا وصحة وسعة مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ بؤس ، وجدب أو قحط ، ومرض مَكْرٌ فِي آياتِنا بالطعن فيها والاحتيال في دفعها بالاستهزاء والتكذيب قُلِ لهم اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً المكر : التدبير الخفي الذي يفضي بالغير إلى مالا يتوقعه ، والمراد هنا : مجازاة أو جزاء على المكر ، أو المراد الاستدراج إِنَّ رُسُلَنا الحفظة الكرام الكاتبين من الملائكة.

يُسَيِّرُكُمْ يسخّر لكم ، أو يعطيكم أداة السير من سفينة أو دابة أو سيارة أو طائرة ونحوها ، أو يحملكم على السير ويمكنكم منه ، والتسيير بإيجاز : التمكين من الانتقال بالنفس أو بالواسطة الْفُلْكِ السفن أو السفينة ، جمعا أو واحدا بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ لينة ، والطيب من كل شي ء : ما يوافق الغرض والمنفعة ، يقال : رزق طيب ، ونفس طيبة ، وشجرة طيبة جاءَتْها الضمير للفلك أو الريح الطيبة أي تلقتها رِيحٌ عاصِفٌ شديدة الهبوب ، تكسر كل شيء ، وذات عصف أُحِيطَ بِهِمْ أي أهلكوا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الدعاء مِنْ هذِهِ الأهوال الشَّاكِرِينَ الموحدين.

(١٣٩/١١)

فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إجابة لدعائهم إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أي فاجؤوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه ، والبغي : الزيادة على القصد والاعتدال حتى الوقوع في الفساد والظلم ، كالشرك ، وبغير الحق أي مبطلين فيه. وأما الفساد بحق كتخريب الديار وإحراق الزروع وقطع الأشجار في حالة الحرب فهو إفساد بحق إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أي ظلمكم أي وباله وإثمه عليكم مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا تمتعون فيها قليلا مَرْجِعُكُمْ أي بعد الموت فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فنجازيكم

المناسبة :

بعد أن ردّ اللّه تعالى على المشركين الطالبين إنزال آية كونية غير القرآن ، بأن هذا من الغيب المستأثر به اللّه تعالى ، ذكر جوابا آخر ، وهو أن أولئك المشركين لا يقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم لأن عادتهم المكر والجحود والعناد

ج ١١ ، ص : ١٤٣

و عدم الإنصاف ، فكثيرا ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية اللّه ثم يمكرون فيها ، فهم إن أصابتهم الشدة تضرعوا ، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا.

التفسير والبيان :

موضوع هذه الآيات الرد على الكفار الذين يطلبون الآيات الكونية ، فإذا تحققت لم يعتبروا ولم يتعظوا ، مما يدل على سوء طبع الإنسان وتأصل خلق السوء فيه ، وتنكره للأدلة العقلية والحسية ، والقواعد الخلقية أيضا التي تقتضي الوفاء بالمعروف وشكر النعمة الإلهية. وهذا المذكور في الآيات مثال لسوء الطبع والانقلاب على الفطرة.

إذا أذاق اللّه الناس رحمة ، ورزقهم فضلا ، من بعد ضرّاء مستهم « ١ » ، كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ، إذا هم يسرعون بالمفاجأة الغريبة وهي المكر في مقام الحمد والشكر ، والمراد بالمكر :

الاستهزاء والتكذيب لها ، أو الطعن فيها والاحتيال في دفعها ، والتنكر لها.

و هكذا إذا رزق اللّه المطر ، قال الإنسان : مطرنا لأنا في فصل الأمطار ، أو لأن الكوكب الفلاني طلع ، وإذا نجا من مكروه أو شدة ، قال : نجوت صدفة ، وإذا نجح في مشروع ما ، نسب النجاح إلى تفوقه ومهارته وذكائه ، ولم يذكر توفيق اللّه له ، كما قال قارون : إنما أوتيته أي المال على علم عندي ، وإذا رفع الكرب بدعاء نبي ، لم يقروا له بالفضل ، كما حدث لمشركي مكة ، روي أن اللّه تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم ، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم ، ثم نسبوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء « ٢ » ، وكل ذلك لمقابلة النعمة بالكفران.

---

(١) ذكر هذا القيد لأن الشعور بالنعمة بعد زوال البؤس والشدة أكمل وأتم وأفرح.

(٢) النوء : سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوما ، ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوما. وكانت العرب-

و القصة هي كما روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه :

« أن قريشا لما استعصوا على رسول اللّه صل اللّه عليه وسلّم ، دعا عليهم بسنين كسنيّ سيدنا يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل اللّه تعالى :

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ ، هذا عَذابٌ أَلِيمٌ [الدخان ٤٤/ ١٠- ١١] فجاء أبو سفيان إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن

قوما ربما هلكوا ، فادع اللّه لهم ، فدعا لهم ، فكشف اللّه عنهم العذاب ، ومطروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون في آيات اللّه ، ويعادون رسوله صلى اللّه عليه وسلّم ، ويكذّبونه » .

(١٤١/١١)

فرد اللّه عليهم بقوله : قُلِ : اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً أي قل لهم يا محمد : إن اللّه أسرع جزاء لكم على أفعالكم قبل أن تدبروا مكائدهم لإطفاء نور الإسلام ، أو أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب ، وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه.

إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ أي إن الحفظة أو الكتبة من الملائكة الكرام يكتبون جميع ما تفعلونه وتدبرونه أو تخططون له ، ويحصونه عليكم ، ثم يعرضونه على اللّه عالم الغيب والشهادة ، فيجازي كلا منكم على الجليل والحقير.

وفي هذا دلالة على تمام الحفظ والعناية وعدم خفاء تدبيرهم على اللّه تعالى ، وعلى أن عقابه واقع بهم لا محالة.

ثم ضرب اللّه مثلا للمشركين المعاندين على مقابلتهم النعمة بالجحود ، فقال :

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ .. أي إن اللّه تعالى هو الذي يمكنكم من السير والانتقال

– تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل : إلى الطالع منها لأنه في سلطانه ، والجمع أنواء.

ج ١١ ، ص : ١٤٥

بالنفس أو بالوسائط المعروفة في البر بالدواب والسيارات والقطارات وفي البحر بالسفن والمراكب ، وفي الجو فوق البر والبحر بالطائرات فوق الهواء.

(١٤٢/١١)

حتى إذا كنتم راكبين في الفلك (السفينة أو السفن) وجرت بكم في البحر بسبب ريح طيبة مواتية للاتجاه في جهة السير ، وفرحتم بما تحقق لكم من راحة وقطع مسافة ، ثم جاءت تلك السفن ريح عاصفة شديدة قوية ، فاضطرب البحر ، وتلاطمت بالأمواج العالية من مختلف الجهات ، وظننتم أي اعتقدتم أنكم هالكون لا محالة بسبب إحاطة الموج ، فلم تجدوا ملجأ إلا اللّه ، فدعوتموه مخلصين له الدعاء والعبادة والتضرع ، ولم تتجهوا إلى آلهتكم من الأوثان ، وقلتم : لئن أنجانا اللّه من هذه

المخاطر الجسيمة ، لنكونن من جماعة الشاكرين النعمة ، الموحدين اللّه ، ثم بعد النجاة عدتم إلى الكفر ، كما قال تعالى في الآية السابقة : وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ ، دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ ، مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ [يونس ١٠/ ١٢].

وقال هنا : فَلَمَّا أَنْجاهُمْ ... أي فلما نجاهم من تلك الورطة ، عادوا فجأة إلى سيرتهم الأولى من البغي وإلحاق الظلم بالنفس وبالآخرين ، وكأن شيئا لم يكن ، كقوله تعالى : وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً [الإسراء ١٧/ ٦٧].

ثم خاطب اللّه الناس البغاة الذين لم يعتبروا ونكثوا العهد مع اللّه :

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أي إنما وبال هذا البغي وجزاؤه وإثمه على أنفسكم في الدنيا والآخرة ولا تضرون به أحدا غيركم ، أما في الدنيا فأنتم تتمتعون به متاعا زائلا لا قرار له ، وأقله توبيخ الضمير والوجدان ، أو المعاملة بالمثل ، كما

جاء في الحديث الذي رواه أحمد والبخاري : « ما من ذنب أجدر أن يعجل اللّه لصاحبه العقوبة في الدنيا ، مع ما يدّخر له في الآخرة ، من البغي وقطيعة

ج ١١ ، ص : ١٤٦

الرحم »

و

في حديث آخر رواه الترمذي عن عائشة : « أسرع الخير ثوابا البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقابا البغي وقطيعة الرحم » « ثنتان يعجلهما اللّه في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين » .

وأما في الآخرة فالجزاء المحقق على البغي في النار ، وهذا ما أفاده قوله تعالى : ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ ... أي إن مصيركم ومآلكم إلينا يوم القيامة ، يوم الفصل والجزاء ، فنخبركم بجميع أعمالكم ، ونوفيكم إياها ، ونجازيكم عليها الجزاء الأوفى المناسب ، بسبب ما كنتم تعملون ، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. وفي هذا تهديد كاف ووعيد شاف.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١- إن مقابلة النعمة الإلهية بالجحود والإنكار ، والتكذيب بآيات اللّه ، مرصود رصدا تاما عند اللّه ، والملائكة الحفظة تدون كل شيء ، ثم يحاسب اللّه تعالى كل إنسان على ما قدم وأخر.

٢- إن الفضل في إنقاذ الإنسان ونجاته من ألوان المخاطر والشدائد والأهوال هو للّه تعالى وحده.

٣- دلت هذه الآية على ركوب البحر مطلقا ، وأكدت السنة ذلك ، مثل حديث أنس في قصة أم حرام ، الذي يدل على جواز ركوبه في الجهاد. ودلت هذه الآية أيضا على أن سير العباد في البحر من اللّه تعالى وتوفيقه.

٤- الكفار شأنهم نكث العهد وعدم الوفاء بالوعد ، فبالرغم مما قد يتعرضون له من مخاطر الغرق ، تراهم ينسون ذلك ، ويعودون إلى الفساد في الأرض بالمعاصي ، والبغي : الفساد والشرك ، وهو أشنع أنواع الظلم.

ج ١١ ، ص : ١٤٧

(١١/١٤٤)

٥- البغي من منكرات المعاصي ، قال ابن عباس : لو بغى جبل على جبل ، لاندك الباغي. والبغي يغلب استعماله في غير الحق ، ولا يكون بحق غالبا ، ولكن قد يكون بحق كحال تنفيذ القصاص ، وحالة الضرورات الحربية وما يتطلبه الجهاد لتحقيق الغلبة والنصر.

٦- عاقبة البغي يتحمل وزرها الباغي نفسه ، سواء في الدنيا بالعقاب العاجل أو الآجل ، أو في الآخرة.

مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها [سورة يونس (١٠) : آية ٢٤]

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)

الإعراب :

وَازَّيَّنَتْ فعل ماض ، أصله : تزينت ، فأدغمت التاء في الزاي بعد قلبها زايا ، وقلبت التاء زايا ولم تقلب الزاي تاء لأن فيها زيادة صوت وهي من حروف الصفير. فَجَعَلْناها حَصِيداً مفعول به أول وثان.

كَأَنْ مخففة من الثقيلة ، أي كأنها.

البلاغة :

أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها استعارة ، شبه الأرض حينما تتزين بالنبات والأعشاب والأزهار ، بالعروس المزينة بالحلي والثياب ، ثم حذف المشبه به وأشير إلى شيء من لوازمه وهو الزخرف على سبيل الاستعارة المكنية.

أَتاها أَمْرُنا كناية عن العذاب والدمار.

ج ١١ ، ص : ١٤٨

المفردات اللغوية :

(١٤٥/١١)

مَثَلُ صفة عجيبة تشبه المثل في الغرابة ، ومَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا : أي حالها العجيبة في سرعة انقضائها وذهاب نعيمها ، بعد إقبالها واغترار الناس بها كَماءٍ مطر فَاخْتَلَطَ بِهِ أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ من الزروع والقبول وغيرها وَالْأَنْعامُ من الحشيش زُخْرُفَها بهجتها من النبات ، والزخرف : كمال حسن الشيء وَازَّيَّنَتْ بالزهر وغيره من النباتات ، أي صارت ذات زينة أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها متمكنون من حصدها وتحصيل ثمارها وجني غلتها أَتاها أَمْرُنا قضاؤنا أو عذابنا ، فاجتاح زرعها فَجَعَلْناها جعلنا زرعها حَصِيداً كالمحصود أو المقطوع بالمناجل لا شيء فيها كَأَنْ لَمْ تَغْنَ أي كأن لم يغن زرعها ، أي لم يلبث فلم تكن عامرة ، يقال : غني بالمكان : أقام به وعمره.

بِالْأَمْسِ فيما قبله ، وهو مثل في الوقت القريب ، والمراد هنا زوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاما بعد ما كان غضا لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فإنهم المنتفعون به.

المناسبة :

ذكر اللّه تعالى في الآية السابقة : إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ ولما كان سبب بغي الناس هو حرصهم على الدنيا وإفراطهم في التمتع بنعيمها ، أتبعه بهذا المثل العجيب لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ، ويعرض عن الآخرة ، فكأن الدنيا أرض سقيت ماء ، فأنبتت وأزهرت وأثمرت ، وحان وقت الحصاد ، ثم لم تلبث أن أصابتها فجأة جائحة ، فاستأصلتها.

(١٤٦/١١)

و قد تكرر هذا التشبيه والمثل في القرآن كثيرا ، كقوله تعالى : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ ، وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ [الحديد ٥٧/ ٢٠].

ج ١١ ، ص : ١٤٩

التفسير والبيان :

هذا مثل ضربه اللّه تعالى للحياة الدنيا في سرعة انقضائها وزوال بهجتها ونعيمها ، وهو أن صفة الحياة الدنيا العجيبة كالنبات الذي أخرجه اللّه من الأرض بماء المطر المنزل من السماء ، فإذا هطل على الأرض أنبت نباتات شتى تشابكت واختلط بعضها ببعض ، منها ما يأكله الناس من زروع وحبوب وثمار ، على اختلاف أنواعها وأصنافها ، ومنها ما تأكله الأنعام من أقوات ومراع وغير ذلك.

وقوله : فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ أي اختلط بالماء نبات الأرض.
حتى إذا اكتمل نمو النبات وازدهر ، وأَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها أي حسنها وزينتها الفانية ، وَازَّيَّنَتْ بأبهى أنواع الزينة ، أي تزينت وحسنت بما خرج في رباها ووهادها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان وحبوب وثمار ، وَظَنَّ أي أيقن أهلها الذين زرعوها وغرسوها ، أنهم متمكنون قادرون من جذاذها وحصادها والانتفاع بها ، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة ، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها. ويلاحظ أنه أخبر عن الأرض وأراد النبات إذ كان مفهوما ، وهو منها.

(١٤٧/١١)

و هو معنى قوله : أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً .. أي نزل بها قضاؤنا المقدر لهلاكها ليلا أو نهارا ، فجعلناها كالأرض المحصودة ، يابسة بعد الخضرة والنضارة ، كأن لم تنبت ، وكأنها ما كانت حينا قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ، كما قال تعالى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ. أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ [الأعراف ٧/ ٩٧- ٩٨] وقال تعالى إخبارا عن المهلكين : فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها [هود ١١/ ٦٧- ٦٨]
و
جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أنس : « يؤتي بأنعم أهل الدنيا ، فيغمس في النار غمسة ، فيقال له : هل رأيت خيرا
ج ١١ ، ص : ١٥٠
قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس عذابا في الدنيا ، فيغمس في النعيم غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا » .
ثم قال تعالى : كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أي كهذا المثل المبين الذي يوضح حال الدنيا وسرعة زوالها ، نبين الحجج والأدلة الدالة على إثبات التوحيد والجزاء وكل ما فيه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم ، لقوم يتفكرون في آيات اللّه أي يستعملون تفكيرهم وعقولهم في الاتعاظ والاعتبار بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها زوالا سريعا ، مع اغترارهم بها ، وتمكنهم من خيراتها ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها.

(١٤٨/١١)

و تشبيه الدنيا بنبات الأرض كثير في كتاب اللّه ، مثل الآية السابقة في سورة الحديد ، ومثل آية الكهف : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً [٤٥] وآية الزمر : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ [٢١].

فقه الحياة أو الأحكام :

أفادت الآية أن الحياة الدنيا سريعة الزوال والانقضاء ، وأن معيشة الناس والأنعام تعتمد على خيرات الأرض ، وأن الإنسان عاجز ضعيف أمام قدرة اللّه وسلطانه ، وأن مراد اللّه وأمره بشيء كالعذاب والهلاك هو النافذ ، وأنه تعالى يبين الآيات والأمثال لمن يستخدم تفكيره وعقله فيها ، فإن عاقبة هذه الحياة الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي تعلقت الآمال بالانتفاع به ، فحين عظم الرجاء بالمنفعة وقع اليأس منها.

والمقصود من الآية ألا يعتمد المرء على نعيم الدنيا بنحو دائم ، وألا يغتر

ج ١١ ، ص : ١٥١

بزخارفها ، وينسى ما يجب عليه نحو الآخرة ، فيكون هو الخاسر خسارة كبري لا تعوض ، إذ إنه يكون من الذين خسروا الدنيا والآخرة ، وهو معنى قوله تعالى : فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ [الأنعام ٦/ ٤٤].

الترغيب في الجنة ووصف حال المحسنين والمسيئين في الآخرة [سورة يونس (١٠) : الآيات ٢٥ الى ٢٧]

(١٤٩/١١)

وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧)

الإعراب :

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ مبتدأ ، وخبره : جَزاءُ سَيِّئَةٍ ، على تقدير : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة.

وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ معطوف على كَسَبُوا وجاز الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه لأنها جملة مبينة للأول ، وليست أجنبية عنه.

بِمِثْلِها الباء زائدة ، وتقديره : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، كما في آية أخرى : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها

[الشورى ٤٢/ ٤٠].

قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً جمع قطعة ، ومظلما حال من الليل ، وليس وصفا لقطع لأنه كان يقال : مظلمة. ومن قرأ بإسكان الطاء ، جاز أن يكون مُظْلِماً وصفا لقوله : قطعا ، وجاز أن يكون حالا من اللَّيْلِ.

البلاغة :

أَحْسَنُوا الْحُسْنى بينهما جناس اشتقاق.

ج ١١ ، ص : ١٥٢

كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية :

وَاللَّهُ يَدْعُوا إلى الإيمان الموصّل إلى الجنة دارِ السَّلامِ أي السلامة وهي الجنة ، وتخصيص الجنة بهذا الاسم للتنبيه على ذلك وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ هدايته بالتوفيق إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دين الإسلام. وفي تعميم الدعوة بقوله : يَدْعُوا وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة ، وأن المصر على الضلالة لم يرد اللّه رشده.

(١١/١٥٠)

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا بالإيمان الْحُسْنى المثوبة الحسنى وهي الجنة وَزِيادَةٌ ما يزيد على المثوبة تفضلا ، وهي النظر إلى اللّه تعالى ، كما في حديث مسلم وقيل : الزيادة : الفضل أو تضعيف الحسنات إلى عشر أمثالها. ودليل التفضل قوله تعالى : وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [النساء ٤/ ١٧٣ وغيرها]. وَلا يَرْهَقُ يغشى قَتَرٌ غبرة فيها سواد وَلا ذِلَّةٌ كآبة وهوان ، والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار ، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال خالِدُونَ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها ، بخلاف الدنيا وزخارفها.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا عطف على الذين أحسنوا ، أي وللذين كسبوا السيئات أي عملوا الشرك بِمِثْلِها أي أن يجازى سيئة بسيئة مثلها لا يزاد عليها مِنْ عاصِمٍ مِنَ زائدة ، وعاصِمٍ : مانع يعصمهم من سخط اللّه ومن جهة اللّه ومن عنده ، بخلاف المؤمنين الذين لهم مانع يعصمهم أُغْشِيَتْ ألبست قِطَعاً جزءا مُظْلِماً لفرط سوادها وظلمتها. أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ أي أولئك الكفار ، فالآية في الكفار ، لاشتمال السيئات على الكفر أو الشرك ، ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة ، فلا يتناولهم قسيمه.

المناسبة :

بعد أن نفّر اللّه تعالى الغافلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق ، رغبهم في الآخرة ، ووصف حال

المحسنين والمسيئين فيها. ووجه الترغيب في الآخرة :

ما روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « مثلي ومثلكم شبه سيد ، بنى دارا ، ووضع مائدة ، وأرسل داعيا ، فمن أجاب الداعي ، دخل الدار ، وأكل من المائدة ، ورضي عنه السيد. ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض عنه السيد ، فاللّه

ج ١١ ، ص : ١٥٣

السيد ، والدار : دار الإسلام ، والمائدة : الجنة ، والداعي محمد صلى اللّه عليه وسلّم » « ١ » .

و

(١٥١/١١)

عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق ، إلا الثقلين ، أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، واللّه يدعو إلى دار السلام » « ٢ » .

التفسير والبيان :

بعد أن ذكر اللّه تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغب في الجنة ودعا إليها ، فقال : وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ أي واللّه يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح المؤديين إلى الجنة ، وسماها دار السلام لسلامتها عن الآفات والشوائب والنقائص والأكدار ودعاؤه إلى دار السلام وأمره بالإيمان عام لكل الناس.

ويهدي من يشاء أي يوفقهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى الجنة ، وهو دين الإسلام : عقائده وأخلاقه وأحكامه لأنه الطريق الذي لا عوج فيه ولا التواء. والهداية خاصة بالمشيئة ، على عكس الأمر بالإيمان.

ومن المعلوم أن الهداية نوعان : هداية دلالة وإرشاد ، وهي عامة لجميع الناس ، وهي الدعوة إلى الإيمان والإسلام ، وهداية توفيق وهي خاصة بمن يشاء اللّه من عباده إلى طريق الاستقامة ، ومعناها التوفيق والعون.

والسبب في تلك الدعوة إلى الإسلام مصلحة المدعوين لأن للذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح المثوبة الحسنى في الدار الآخرة ، كقوله تعالى : هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ [الرحمن ٥٥/ ٦٠] ولهم أيضا زيادة :

---

(١) حديث مرسل عن أبي قلابة عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وجاء متصلا رواه ابن جرير عن جابر بن عبد اللّه.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ج ١١ ، ص : ١٥٤

و هي تضعيف ثواب الأعمال الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا ، والزيادة التي هي أعظم من جميع ما أعطوه هي النظر إلى وجه اللّه الكريم ، بدليل

ما روى أحمد ومسلم وجماعة من الأئمة عن صهيب رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم تلا هذه الآية : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد ، يا أهل الجنة ، إن لكم عند اللّه موعدا ، يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فواللّه ما أعطاهم اللّه شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم » .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري يحدث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه يبعث يوم القيامة مناديا ينادي ، يا أهل الجنة- بصوت يسمع أولهم وآخرهم- إن اللّه وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى : الجنة ، والزيادة :

النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » .

ونظير الآية قوله تعالى : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [النجم ٥٣/ ٣١].

وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أي ولا يغشى وجوههم شيء مما يغشى وجوه الكفرة من الغبرة التي فيها سواد ، والهوان والصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في حقهم : فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً [الدهر ٧٦/ ١١] أي نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم. والصفة الأولى (القتر) هي المذكورة في قوله تعالى : وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ [عبس ٨٠/ ٤٠- ٤١] والصفة الثانية (الذلة) هي قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ ، عامِلَةٌ ناصِبَةٌ [الغاشية ٨٨/ ٢- ٣].

ج ١١ ، ص : ١٥٥

أولئك المتصفون بهذه الصفات هم أهل الجنة لا غيرهم ، وهم المقيمون الماكثون فيها أبدا ، لا زوال فيها ، ولا انقراض لنعيمها.

ولما أخبر تعالى عن حال السعداء ، عطف بذكر حال الأشقياء ، كما هو الشأن الغالب في الموازنة والمقارنة في الأسلوب القرآني ، وشأنه تعالى مع الفريق الأول الفضل والإحسان ، ومع الفريق الثاني المعاملة بالعدل.

فللذين اقترفوا السيئات والمعاصي في الدنيا ومنها الكفر والشرك والظلم الجزاء العادل وهو المجازاة على السيئة بمثلها ، لا زيادة عليها كقوله تعالى : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها [الأنعام ٦/ ١٦٠] ، وتغشاهم أي تعتريهم وتعلوهم ذلّة من فضيحة معاصيهم وخوفهم منها ، كما قال تعالى : وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ [الشورى ٤٢/ ٤٥] وقال : وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ [إبراهيم ١٤/ ٤٢- ٤٣].

ثم قال : ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ أي ليس لهم مانع ولا واق يقيهم العذاب ، أي لا يعصمهم أحد من سخط اللّه وعذابه ، كما قال تعالى : يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ [الانفطار ٨٢/ ١٩] وقال تعالى :

يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ : أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟ كَلَّا لا وَزَرَ ، إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ [القيامة ٧٥/ ١٠- ١٢].

(١١/١٥٤)

كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ .. أي ألبست وجوههم أجزاء أو أغشية من سواد الليل المظلم لفرط سوادها وظلمتها ، كقوله تعالى : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ ؟ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ، فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ [آل عمران ٣/ ١٠٦- ١٠٧] وقوله سبحانه : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضاحِكَةٌ

ج ١١ ، ص : ١٥٦

مُسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ ، أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ [عبس ٨٠/ ٣٨- ٤٢].

أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ .. أي أولئك المتصفون بتلك الصفات هم لا غيرهم أصحاب النار ، هم فيها خالدون ، دائمون فيها ، لا يزحزحون عنها.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات صريحة في الدعوة إلى السعادة الأبدية ، والخلود في الجنان ، من طريق الإيمان والعمل

الصالح.

وهي موضحة معالم الطريق ، معلنة أن اللّه لا يدعوكم إلى جمع الدنيا ، بل يدعوكم إلى الطاعة : طاعة أحكامه ، لتصيروا إلى دار السلام ، أي إلى الجنة. قال قتادة والحسن : السلام : هو اللّه ، وداره الجنة. وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات.

وقد عمّ بقوله يَدْعُوا جميع الناس بالدعوة إلى دائرة الإيمان ، إظهارا لحجّته ، وخص بالهداية من شاء من عباده استغناء عن خلقه ، وتمييزا بين الأمر والإرادة ، فهناك دعوة عامة دعا فيها جميع الخلق إلى دار السلام ، وهداية خاصة مغايرة لتلك الدعوة العامة ، مشتملة على التوفيق الإلهي.

والصراط المستقيم واحد سواء قلنا : إنه كتاب اللّه ، أو الإسلام.

(١٥٥/١١)

و للذين أحسنوا العمل في الدنيا المثوبة الحسنى وهي الجنة ، والزيادة فضلا من اللّه وهي تضعيف الحسنات ، والنظر إلى وجه اللّه الكريم ، والشعور بالسعادة الظاهرية والباطنية ، فلا غشاوة لغبار مع سواد في محشرهم إلى اللّه ، ولا مذلة ولا إهانة.

وللمسيئين الذين أشركوا باللّه شريكا آخر ، وكفروا بنعمته ، فلم يقابلوها

ج ١١ ، ص : ١٥٧

بالإيمان والإحسان عقاب مماثل لسيئاتهم دون زيادة ، أخذا بالعدل ، ويغشاهم الهوان والخزي والذل والعار ، ولا عاصم لهم ، ولا مانع يمنعهم من عذاب اللّه ، وجوههم مسودّة كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ في حال ظلمته.

جعلنا اللّه من أهل جنته بفضله ورحمته ، وحمانا من عذاب أهل النار ، تكرما وإحسانا وإنعاما ، وهدانا إلى سواء السبيل.

وقد أثبت أهل السنة بهذه الآية وما وضحها من السنة جواز رؤية اللّه تعالى في الآخرة ، وأكد ذلك قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ [القيامة ٧٥/ ٢٢- ٢٣] فأثبت لأهل الجنة أمرين : أحدهما- نضرة الوجوه ، والثاني- النظر إلى اللّه تعالى.

حشر الخلائق وتبرؤ الشركاء من المشركين ومن عبادتهم [سورة يونس (١٠) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (٢٩) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

الإعراب :

جَمِيعاً نصب على الحال ، أي نحشر الكل حال اجتماعهم.

(١٥٦/١١)

مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ مَكانَكُمْ : اسم فعل لا لزموا ، كما أن « مه » اسم لا كفف ، و « صه » اسم لا سكت. وفتحة النون فتحة بناء لقيامه مقام فعل الأمر. وقال الرازي والسيوطي :

منصوب بإضمار : الزموا.

ج ١١ ، ص : ١٥٨

و أَنْتُمْ : توكيد لضمير مَكانَكُمْ المستتر ، وشُرَكاؤُكُمْ : معطوف عليه لوجود التوكيد ، كقوله تعالى : اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ [البقرة ٢/ ٣٥ والأعراف ٧/ ١٩].

فَزَيَّلْنا من زيّلت الشيء من الشي ء : إذا نحيته. ولا يجوز أن يكون من زال يزول لأنه يلزم فيه الواو ، فيقال : زوّلنا.

ما كُنْتُمْ إِيَّانا ما : نافية ، وإِيَّانا مفعول به مقدم لتعبدون ، وقدم مراعاة لفواصل الآيات.

إِنْ مخففة من الثقيلة ، أي إنا كنا ، واللام في لَغافِلِينَ هي الفارقة بينها وبين النافية.

المفردات اللغوية :

نَحْشُرُهُمْ أي الخلق وهم فريقا المحسنين والمسيئين المذكورين في الآية السابقة ، والحشر : الجمع من كل جانب إلى موقف واحد مَكانَكُمْ أي الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم ، وقد سد مسد قوله : « الزموا » ويراد بذلك التهديد والوعيد. وَشُرَكاؤُكُمْ أي الأصنام فَزَيَّلْنا فرقنا وميزنا وقطعنا ما بينهم من صلات وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ مجاز عن براءة ما عبدوه من عبادتهم ، فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم الآمرة بالإشراك إِنْ كُنَّا أي تقول الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دونه من أولي العقل ، وقيل : الأصنام ينطقها اللّه عز وجل ، فتشافههم بذلك ، مكان الشفاعة التي زعموها لهم ، وعلقوا بها أطماعهم بقولهم : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى [الزمر ٣٩/ ٣] وَيَقُولُونَ : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ [يونس ١٠/ ١٨].

(١٥٧/١١)

هُنالِكَ في ذلك اليوم أو في ذلك المقام تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ تختبر ما قدمت من عمل ، فتعاين نفعه وضرره ، وأَسْلَفَتْ : قدمت ورُدُّوا إِلَى اللَّهِ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ربهم ومتولي

أمرهم على الحقيقة ، لا ما اتخذوه مولى : والحق : الثابت الدائم وَضَلَّ غاب أو ذهب وضاع عنهم ما كانُوا يَفْتَرُونَ عليه من الشركاء.

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى مصير المحسنين والمسيئين يوم القيامة ، أعقبه بذكر يوم الجزاء الذي يتم فيه حشرهم ، فيحشر العابد والمعبود ، ثم يتبرأ المعبود من العابد ، ويتبين له أنه ما فعل ذلك بعلمه وإرادته. والمقصود نفي الشفاعة ، فإن

ج ١١ ، ص : ١٥٩

القوم كانوا يقولون : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ [يونس ١٠/ ١٨] فبين اللّه تعالى أنهم لا يشفعون لهؤلاء الكفار ، بل يتبرءون منهم ، وهو يدل على نهاية الخزي والنكال في حق الكفار.

التفسير والبيان :

هذا مشهد فاصل من مشاهد يوم القيامة ، تصفّى فيه علاقة الشرك بين المشركين وآلهتهم المزعومة ، فيقول اللّه لنبيه : واذكر أيها الرسول يوم نحشرهم أي نجمع أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبرّ وفاجر ، وفيهم الفريقان المذكوران سابقا وهم المحسنون والمسيئون كما قال تعالى : وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً [الكهف ١٨/ ٤٧].

ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أي الذين اتخذوا مع اللّه شريكا : الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم ، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم ، كقوله تعالى : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ [الصافات ٣٧/ ٢٤] وفي هذا وعيد وتوبيخ أمام الخلائق.

فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ أي فرقنا بين الشركاء والمشركين ، وقطعنا ما كان بينهم في الدنيا من صلات وروابط.

و تبرأ الشركاء من عابديهم : وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ : ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ أي وقال الشركاء لعابديهم : ما كنتم تخصوننا بالعبادة ، إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا للّه أندادا ، فأطعتموهم. وفي هذا أيضا تهديد ووعيد ، وأنه تتبدد حينئذ آمال المشركين في شفاعة الشركاء.

والشركاء : إما الملائكة وعيسى المسيح ونحوهم ممن عبدوا من دون اللّه ، أو الأصنام التي ينطقها اللّه عز وجل ، فتكلمهم بذلك ، والأولى أن المراد بالشركاء :

كل من عبد من دون اللّه تعالى ، من صنم وشمس وقمر وملك وإنسي وجني.

ج ١١ ، ص : ١٦٠

فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أي كفى باللّه شاهدا وحكما بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ،

ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك. وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين ، وتهديد في حق العابدين.
إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ أي إننا كنا في غفلة تامة عن عبادتكم ، لا نعلم بها ، ولا ننظر إليها ، ولا نرضى عنها ، وقال القرطبي. ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل لأنا كنا جمادا لا روح فينا أي أنه جعل إِنْ هنا نافية ، والحق أنها مخففة من الثقلية بدليل دخول اللام على : غافلين.
هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ أي هنالك في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتذوق وتعلم ما قدمت من العمل من خير وشر ، فتعرف كيف هو ، أقبيح أم حسن ؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ، ليتبين حاله ؟ كما في قوله تعالى : يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ [الطارق ٨٦/ ٩].
وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أي وأرجعوا إلى اللّه ، ورجعت الأمور كلها إلى اللّه الحكم العدل ، الحق الثابت الدائم ، ففصلها ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، دون تلك الشركاء والأنداد.

(١١/١٥٩)

وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أي وذهب عن المشركين افتراؤهم وما كانوا يعبدون من دون اللّه افتراء عليه ، ويتخذون تلك الأنداد آلهة مزعومة ، ولم يبق لهم نصير ولا شفيع ، والأمر كله يومئذ للّه تعالى.
فهذا تنبيه على زوال ما يدعون أن أولئك الشركاء شفعاء ، وأن عبادتهم تقرّب إلى اللّه تعالى.
ج ١١ ، ص : ١٦١
فقه الحياة أو الأحكام :
دلت الآيات على ما يأتي :
١- الحشر (أي جمع الخلائق من كل جانب في موقف واحد) أمر ثابت يوم القيامة.
٢- انقطاع الصلة تماما بين الشركاء والمشركين يوم القيامة.
٣- وعيد الكفار المشركين المتكرر في قوله تعالى : مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ وقوله : وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ : ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ وقوله :
فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ...
٤- إظهار الخيبة والخزي والإفلاس من عبادة الشرك والمشركين للآية هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ....
٥- وصف اللّه تعالى نفسه بالحق لأن الحق منه ، كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه أي كل عدل وحق فمن قبله.
٦- خيبة الآمال التي تعلق بها المشركون في شفاعة الشركاء وتقريبهم إياهم إلى اللّه تعالى.
والسبب في قوله تعالى : وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ مع أنه تعالى أخبر بأن الكافرين لا مولى لهم : هو

أن المولى هنا يراد به أنه مولاهم في الرزق وإدرار النعم ، وليس بمولاهم في النصرة والمعونة.

ج ١١ ، ص : ١٦٢

إثبات التوحيد بثبوت الربوبية لدى المشركين [سورة يونس (١٠) : الآيات ٣١ الى ٣٣]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

الإعراب :

أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أن وصلتها : يجوز كونها في موضع نصب وجر ورفع ، فالنصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : بأنهم أو لأنهم ، فلما حذف حرف الجر اتصل الفعل به فنصبه ، والجر : بأن يجعل حرف الجر في نية الإثبات ، وإنما حذف للتخفيف ، والرفع على أن يكون بدلا من كَلِمَةُ.

البلاغة :

فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ ؟ استفهام إنكاري ، أي ليس بعد الحق إلا الضلال ، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة اللّه تعالى ، وقع في الضلال.

المفردات اللغوية :

وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ومن يلي تدبير أمر العالم ، وهو تعميم بعد تخصيص.

فَذلِكُمُ الفعال لهذه الأشياء الْحَقُّ الثابت ربوبيته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ أي ليس بعد عبادة اللّه التي هي الحق إلا الضلال والانحراف فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كيف تصرفون عن الحق أي الإيمان إلى غيره مع قيام البرهان ؟

ج ١١ ، ص : ١٦٣

كَذلِكَ حَقَّتْ أي كما صرف هؤلاء عن الإيمان ثبتت كلمة ربك أي حكمه عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا كفروا ، وهي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ أو هي أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى جناية المشركين على أنفسهم باتخاذهم الأنداد والشركاء ، ذكر أدلة فساد مذهبهم وهو عبادة الأوثان ، وإذا فسد مذهبهم ثبت التوحيد ، بدليل إقرارهم بأن الرازق ومالك الحواس ، والمحيي والمميت هو اللّه تعالى ، فهو سبحانه يحتج على المشركين باعترافهم بوحدانية اللّه وربوبيته على وحدانية الألوهية.

التفسير والبيان :

قل أيها النبي لمشركي مكة وأمثالهم : من ذا الذي ينزل من السماء المطر ، فيكون سببا في إثبات الأرض بالزرع والزهر والشجر ، فيخرج منها حبا وعنبا وقضبا (البرسيم) وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا متشابكة وفاكهة كثيرة ونحو ذلك ؟ كقوله تعالى : أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ؟ [الملك ٦٧/ ٢١] فهي مصدر رزقكم ، بسبب بركات السماء والأرض ، فيرزقكم منهما جميعا ، دون اقتصار على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته.

ومن الذي أوجد لكم السمع والأبصار ، وغيرهما من الحواس ، فيملك خلقها وتسويتها على نحو بديع وتحصينها من الآفات ، ومن الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها ؟ كقوله تعالى :

قُلْ : هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ [الملك ٦٧/ ٢٣] فهي وسائل العلم والمعرفة وإدراك ما في هذا العالم.

وخص السمع والبصر لأنهما أهم الحواس ، وأداة تحصيل العلوم.

ج ١١ ، ص : ١٦٤

(١٦٢/١١)

و من الذي بقدرته العظيمة أمر الحياة والموت ؟ فيحيي ويميت ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، مثل إخراج النخلة من النواة والطائر أو الحيوان من البيضة أو النطفة ، وعكس ذلك كإخراج الحب والنوى وبيض الحيوان ومنيّه من الشجر والحيوان ، وفي هذا دلالة عامة على إيجاد أمارات الحياة والموت ، وعلامة الحياة في النبات : النمو ، وفي الحيوان : النمو والحركة الإرادية.

وفسر بعضهم الحياة والموت بالشيء المعنوي وهو إخراج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والأكثرون من المفسرين يفسرون الآية بالمعنى الأول ، وهو إلى الحقيقة أقرب ، كما قال الرازي.

وإذا كان المفسرون قد مثلوا للحي بالنطفة وللميت بالبيضة ، فهم يلاحظون الوضع الظاهر المشاهد للناس عادة وهي حياة الحركة والنمو ، وهذا لا ينفي ما يقوله الآن علماء الأحياء بأن في البذور والبيض والمني والنطفة حياة أي حياة الخلية ، لكن هذه حياة خاصة لا حركة فيها ولا نمو.

ويمكن التمثيل في العلم الحديث لإخراج الميت من الحي بما يطرحه البدن من الخلايا الميتة في الدم والجلد فيخرج مع البخار والعرق ، ومثال إخراج الحي من الميت الغذاء الذي يحرق بالنار ، ثم يتناوله الإنسان فيتولد منه الدم.

وإذا قال هؤلاء العلماء الجدد : الحي لا يخرج إلا من حي ، فإنهم يقررون أن الحياة الأولى هي من خلق اللّه بدون أي شك.

وعلى أي حال فإن المقصود من الآية إثبات القدرة الكاملة للّه تعالى وأنه خالق الموت والحياة ، أيا كان المثال لأن إطلاق النص القرآني وعمومه يمكن تطبيقه على ما يقره العلم.

ومن الذي يدبر أمور العالم وبيده ملكوت كل شيء ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقّب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ؟ .

ج ١١ ، ص : ١٦٥

(١٦٣/١١)

هذه الأسئلة الخمسة لا يملك المشركون إلا أن يقولوا : إن الفاعل هو اللّه ، وأن يجيبوا بأن الموجد والمعدم هو اللّه تعالى ، بلا تردد ولا شك ، ومن غير مكابرة وعناد في ذلك ، لفرط وضوح الأمر ، ولأنه لا جواب في الواقع غيره.

وإذا اعترفوا بالحقيقة ، فقل لهم أيها الرسول عندئذ : أفلا تتقون أنفسكم عقاب اللّه بإشراككم إياه وعبادتكم غيره ، مما لا يشاركه في شيء من ذلك ، ولا يملك ضرا ولا نفعا.

فذلكم الذي يتصف بما ذكر من القدرة الخلاقة والإرادة المبدعة هو اللّه خالقكم ومربّيكم على فضله ومدبر أموركم ، وهو المستحق للعبادة ، وهو ربكم الثابت ربوبيته بذاته ، لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم ، فلا إله غيره ، ولا معبود سواه.

وإذا كان اللّه هو ربكم الحق الثابت بذاته ، فليس بعد القول الحق والفعل الحق إلا الضلال والباطل ، ولا واسطة بين الحق والباطل ، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة اللّه تعالى وقع في الضلال.

فأنى تصرفون عن الحق إلى الضلال ، وكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل ، وعن الهدى إلى الضلال ؟ ذلك ما لا يقبله عقل ولا منطق.

كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي كما حقت الربوبية للّه والألوهية للّه ، حقت أي ثبتت كلمة اللّه وحكمه أو وعيده على الذين فسقوا أي تمردوا في كفرهم وأصروا على ضلالهم ، وخرجوا عن دائرة الحق والصلاح وتوحيد الربوبية والألوهية ، أنهم لا يؤمنون ، أي حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم اللّه منهم ذلك ، أو حق عليهم كلمة اللّه أنهم من أهل الخذلان وأن إيمانهم غير

كائن. ويجوز أن يراد بالكلمة الوعيد بالعذاب ، ويكون قوله أَنَّهُمْ

ج ١١ ، ص : ١٦٦

لا يُؤْمِنُونَ

(١٦٤/١١)

تعليلا للحقية ، بمعنى : لأنهم لا يؤمنون « ١ » . ويلاحظ أن الآية صرحت باليأس من إيمان الذين فسقوا وأصروا على كفرهم ، ولم تذكر غيرهم لأن من لم يصرّ يرجى إيمانه وتخلصه من العذاب إذا آمن وأطاع ، فلا مانع أمامه ، كما أنه ليس هناك أي مانع قهري يمنع من إيمان أي كافر ، وإنما هو الذي يمتنع باختياره من الإيمان ، ويصرّ على الكفر ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ [يونس ١٠/ ٩٦- ٩٧].

وجعل ابن كثير الآية الأخيرة كَذلِكَ حَقَّتْ في المشركين أنفسهم ، فقال : أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع اللّه غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فلهذا حقت عليهم أنهم أشقياء من ساكني النار ، كقوله : قالُوا : بَلى ، وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ [الزمر ٣٩/ ٧١] « ٢ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا نقاش منطقي هادئ مع المشركين ، فإنهم إن سئلوا عن الرازق والخالق والمحيي والميت والمدبر ، فلا يسعهم إلا الاعتراف بأنه هو اللّه رب الخلائق قاطبة ، وهذا اعتراف صريح منهم بوحدة الربوبية ، فلم لا يعترفون بوحدة الألوهية ، وإنما يشركون مع اللّه إلها آخر ؟ ! والمنطق يقضي بالتسوية بين الأمرين والإقرار بوحدة الربوبية والألوهية ، فتكون الآية دالة على إثبات التوحيد.

---

(١) الكشاف : ٢/ ٧٤

(٢) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤١٦

ج ١١ ، ص : ١٦٧

و دلت الآية على ما يأتي :

١- اللّه تعالى هو الرزاق ، المتصرف في الملك والخلق والإيجاد وحده ، المحيي ، المميت ، المدبر أمر الكون والعالم.

(١٦٥/١١)

٢- من كانت هذه قدرته ورحمته ويفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه ، لا ما أشركتم معه : فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ. وبما أن اللّه تعالى هو الحق المبين ، وجب أن يكون ما سواه ضلالا لأن النقيضين لا يجتمعان ، فإذا كان أحدهما حقا ، وجب أن يكون ما سواه باطلا : فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ ؟ أي ما بعد عبادة الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال ؟

وبناء عليه ، قال العلماء : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد اللّه تعالى. ويقاس عليها مسائل الأصول ، الحق فيها واحد لا يتعدد ، بخلاف مسائل الفروع التي قال اللّه تعالى فيها : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً [المائدة ٥/ ٤٨] و

قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات » .

وثبت عن عائشة رضي اللّه عنها أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم كان إذا قام إلى صلاة التهجد قال : « اللهم لك الحمد »

و

في الحديث : « أنت الحق ووعدك الحق .. »

فقوله : « أنت الحق »

أي الواجب الوجود ، وهذا وصف للّه تعالى بالذات والحقيقة إذ وجوده لنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، بخلاف غيره ، كقوله تعالى :

كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص ٢٨/ ٨٨].

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعا ، كما في هذه الآية ، وكذلك أيضا مقابلة الحق بالباطل عرف لغة وشرعا ، كما في قوله تعالى : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

الْحَقُّ ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ

[الحج ٢٢/ ٦٢]. وحقيقة الضلال :

الذهاب عن الحق.

٣- احتج الإمام مالك على تحريم اللعب بالشّطرنج والنّرد بقوله تعالى :

فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فقال : اللعب بالشطرنج والنّرد من الضلال.

و قد اختلف العلماء في حكم اللعب بالشطرنج وغيره إذا لم يكن على وجه القمار ، فقال جمهور الفقهاء : إن من لم يقامر بها ولعب مع أهله في بيته مستترا به ، مرة في الشهر أو العام ، لا يطّلع عليه ولا يعلم به : أنه معفوّ عنه ، غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن اشتهر به سقطت مروءته وعدالته ، وردّت شهادته.

وذهب الشافعي إلى أنه لا تسقط شهادة اللاعب بالنرد والشطرنج إذا كان عدلا في غير ذلك ، ولم يظهر منه سفه ولا ريبة ولا كبيرة إلا أن يلعب به قمارا ، فإن لعب بها قمارا ، سقطت عدالته ، وسفّه نفسه لأكله المال بالباطل.

وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والنرد وكل اللّهو ، فإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة ، وكانت محاسنه أكثر من مساويه ، قبلت شهادته.

٤- العاقل يلتزم المعقول ، لذا استنكر اللّه تعالى على المشركين الخروج عن دائرة المعقول بقوله : فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ أي كيف تستجيزون العدول عن هذا الحق الظاهر ، وكيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يحيي ولا يميت ؟ ! ٥- علم اللّه قديم واسع الإحاطة ، والعذاب حق وعدل ومعلوم سابقا في علم اللّه تعالى على الذين أصروا على الكفر وماتوا وهم كفار لقوله تعالى : كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي ثبت حكمه وقضاؤه وعلمه السابق على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا أنهم لا يصدقون ، أو ثبت عليهم استحقاق العذاب والوعيد به لأنهم لا يؤمنون.

ج ١١ ، ص : ١٦٩

إثبات البعث [سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٤ الى ٣٦]

(١٦٧/١١)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣(٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (٣٦)

الإعراب :

أَفَمَنْ يَهْدِي .. مِنْ : مبتدأ مرفوع ، وأَحَقُّ : خبره ، وفي الكلام محذوف تقديره : أحق ممن لا يهدي.

وأَنْ يُتَّبَعَ : إما موضعه النصب على تقدير حذف حرف الجر ، وإما الرفع على البدل من مِنْ بدل اشتمال. وأَحَقُّ : الخبر. ويحتمل أن يجعل أَنْ مبتدأ ثانيا ، وأَحَقُّ خبره مقدم عليه ، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول وهو مِنْ.

ويَهْدِي أصله يهتدي ، فأبدل من التاء دالا ، وأدغم الدال في الدال ، وكسرت الهاء لاتباع ما بعدها ولالتقاء الساكنين لأنه الأصل في التقاء الساكنين. وقرئ بفتح الهاء (يهدّى) لأنه نقلت فتحة التاء إلى الهاء.

فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ما : مبتدأ مرفوع ، ولَكُمْ : خبره ، وكَيْفَ في موضع نصب بتحكمون.

شَيْئاً منصوب لأنه في موضع المصدر ، أي غناء ، مثل : وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً أي إشراكا ويجوز أن يكون مفعولا به ، ومِنَ الْحَقِّ : حالا منه.

البلاغة :

يَبْدَؤُا ... ثُمَّ يُعِيدُهُ بينهما طباق. أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ استفهام توبيخ وتقرير أي الأول أحق.

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ وفَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ الاستفهام للتوبيخ.

ج ١١ ، ص : ١٧٠

المفردات اللغوية :

(١٦٨/١١)

مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ جعل الإعادة كالابتداء في الإلزام بها ، لظهور برهانها.

تُؤْفَكُونَ تصرفون عن الحق إلى الباطل وعن عبادته مع قيام الدليل.

مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ بإقامة الحجج ، وإرسال الرسل ، وخلق الاهتداء أو التوفيق للنظر والتدبر. أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وهو اللّه أَمَّنْ لا يَهِدِّي أم الذي لا يهتدي ، والاستفهام للتقرير والتوبيخ ، أي الأول أحق. كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا الحكم الفاسد من اتباع ما لا يحق اتباعه ، وما يقتضي صريح العقل بطلانه.

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ في عبادة الأصنام ، والمراد بالأكثر الجميع ، أو الذي عنده تمييز ونظر ولا يرضى بالتقليد. إِلَّا ظَنًّا وهو تقليد الآباء بالاعتماد على خيالات فارغة وقياسات فاسدة ، كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة. إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً أي لا يفيد الظن فيما يطلب فيه العلم والاعتقاد الحق. شَيْئاً من الإغناء. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ فيجازيهم عليه.

المناسبة :

انتقل اللّه تعالى فورا في بيانه من إثبات التوحيد إلى إثبات البعث ، من طريق معرفة القادر ابتداء على خلق الإنسان وخلق السموات والأرض ، وأن الإعادة كالابتداء ، ثم عرض الأمر على العقلاء في بيان الأحق بالاتباع أهو اللّه الذي يخلق الاهتداء والتوفيق إليه ، أم المحتاج إلى هداية غيره ؟

وصيغ البيان أو الحجة بطريق السؤال والاستفهام لأنه أوقع في النفس ، وأبلغ تأثيرا على القلب.

التفسير والبيان :

قل للمشركين أيها الرسول : من الذي بدأ خلق السموات والأرض ، ثم أنشأ ما فيهما من الخلائق ؟ هل يستطيع أحد غير اللّه ذلك ؟ سواء كان صنما أو وثنا أو كوكبا أو ملكا أو جنّا أو رسولا أو غيرهم ؟ ومن يقدر أن يعيد الخلق خلقا جديدا ؟

ج ١١ ، ص : ١٧١

(١٦٩/١١)

و بما أنهم بسبب اللجاج والمكابرة لا يؤمنون بالبعث والمعاد ، فلم يجيبوا كما أجابوا عن الأسئلة الخمسة المتقدمة ، فأجابهم اللّه تعالى بقوله : قُلِ : اللَّهُ ...

أي قل أيها الرسول : اللّه هو القادر على بدء الخلق وإعادته لأن القادر على البدء قادر على الإعادة ، فهو سبحانه وتعالى الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له. علما بأنهم يعترفون بأن المبدئ والمعيد في النباتات هو اللّه ، لما يشاهدونه من تكرار بدء ظهور النبات بالمطر في فصل الشتاء ، ثم موته في الصيف ، ثم عودته إلى الظهور في الشتاء القادم مرة أخرى. ولكنهم ينكرون إعادة الحياة في الأحياء الحيوانية من إنسان وغيره.

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل وعن الحق وهو التوحيد إلى الضلال وهو الإشراك وعبادة الأصنام ؟

أي إذا كانت فطرتكم وعقولكم أو أنظاركم وملاحظاتكم تؤدي إلى أن اللّه تعالى هو الذي يعيد الحياة إلى النبات ، فلم لا تعترفون بقدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان ؟ وذلك يؤدي بكم إلى الإيمان بالبعث والجزاء يوم القيامة ؟ ! ثم سألهم اللّه تعالى عن شأن من شؤون الربوبية ، بقوله : قُلْ : هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ ؟ ... أي قل لهم أيها الرسول : هل يستطيع أحد من شركائكم هداية الضال والحيران : إما بالفطرة والغريزة ، وإما بالحواس من سمع وبصر ونحوهما ، وإما بالعقل والتفكير ، وإما بهداية الكتب السماوية والرسل ، أو هم عاجزون عن ذلك كله ؟ ! وهذه الهداية هي تماما كالقدرة على الخلق والتكوين ، كقوله تعالى :

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدى [طه ٢٠/ ٥٠].

وبما أنهم يدركون تماما أن شركاءهم لا يستطيعون شيئا من الخلق والهداية التشريعية ، فلم يجدوا جوابا ، فأجابهم اللّه تعالى : قُلِ : اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ

ج ١١ ، ص : ١٧٢

(١٧٠/١١)

أي قل أيها الرسول : هو اللّه الذي يهدي إلى الحق بما أوجد من الأدلة والحجج ، وأرسل من الرسل ، وأنزل من الكتب ، ومنح الإنسان مفاتيح العلم والمعرفة والإيمان بالعقل والحواس.

ومن هو أحق باتباع قوله وطاعة أمره ؟ أهو الذي يقدر على الهداية إلى الحق والرشد والإيمان ، أم الذي لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره ، وهو اللّه تعالى ؟

وهذا يشمل جميع الشركاء من ملائكة وغيرهم كالمسيح وعزير فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أي فما بالكم وأي شيء دهاكم ، كيف سوّيتم بين اللّه وبين خلقه ، وحكمتم بجواز عبادة غير اللّه وشفاعتهم ؟ وهذا تعجب شديد من حكمهم الجائر بالمساواة بين عبادة اللّه تعالى وعبادة شركائهم العاجزة عن كل شي ء.

ثم بين اللّه تعالى أنهم لا يتبعون في اعتقادهم هذا وشركهم وعبادتهم غير اللّه دليلا ولا برهانا ، وإنما يتبع جميعهم نوعا من الظن الضعيف وهو التوهم والتخيل ، وذلك لا يغني عنهم شيئا ، لأن الظن الخائب لا يغني شيئا من الإغناء فيما يطلب فيه الحق الثابت ، أي العلم والاعتقاد الصواب.

إن اللّه عليم بأفعالهم ، فيجازيهم على كل فعل منها ، كتكذيب الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، مع قيام الأدلة القطعية على صدقه ، وتقليد الآباء والأجداد بدون حجة أو دليل. وهذا تهديد لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

والخلاصة : أن مجموعات ، الآيات السابقة اشتملت على حجج ثلاث للاستدلال على وجود اللّه تعالى : الأولى- أنه الرازق الموجد السمع والبصر خالق الموت والحياة ، والثانية- أنه خالق الإنسان والسموات والأرض وما بينهما ، والثالثة-

أنه القادر على الهداية. والاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا ثم بالهداية ثانيا : عادة مطردة في القرآن.

فقه الحياة أو الأحكام :

اشتملت هذه الآيات من أجل إثبات البعث على توبيخين للمشركين وتهديد.

أما التوبيخ الأول : فهو على عبادتهم شركاء عاجزين عن الخلق بدءا وإعادة ، فكيف تصح تلك العبادة ؟ وكيف تنقلبون أيها المشركون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل ؟

وبما أن الحق تعالى هو القادر على الخلق ، فخلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة دم ، وهو قدير على إعادته ، فيجب الإيمان بالبعث إيمانا لا يخالجه أي شك أو ريبة.

وأما التوبيخ الثاني : فهو أيضا على اتخاذ الشركاء آلهة معبودة مع أنهم لا يستطيعون هداية أنفسهم ولا غيرهم ، فيكون الأحق بالعبادة والتوحيد هو اللّه تعالى القادر على الإرشاد إلى الطريق المستقيم الذي هو القرآن ودين الإسلام ..

فما لكم كيف تحكمون ، أي فأي شيء لكم في عبادة الأوثان ، وكيف ترضون لأنفسكم وعقولكم وتقضون بهذا الباطل الصراح ، تعبدون آلهة لا تغني عن أنفسها شيئا إلا أن يفعل بها ، واللّه يفعل ما يشاء فتتركون عبادته ؟

وأما التهديد : فهو على الكفر والتكذيب : إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ وسيجازيكم عليه.

ودلت آية إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً على أنه لا يكتفى بالظن في

ج ١١ ، ص : ١٧٤

العقائد ، وعلى أن تحصيل العلم واليقين في الأصول واجب ، وأما الاكتفاء بالتقليد والظن فيها فهو غير جائز لأن أصول الإيمان أساسية ، فتبني على اليقين ، ولا يجدي فيها الظن ، وإنما يكفي هذا في فروع الأعمال.

القرآن كلام اللّه وتحدي العرب به [سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)

الإعراب :

وَلكِنْ تَصْدِيقَ تَصْدِيقَ : خبر كان مقدرة ، تقديره : ولكن كان هو تصديق ، أي القرآن. وأجاز الكسائي الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : ولكن هو.

وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ خبر ثان.

لا رَيْبَ فِيهِ خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك.

مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ خبر آخر تقديره : كائنا من رب العالمين ، أو متعلق بتصديق أو بتفصيل ، ولا رَيْبَ فِيهِ : اعتراض ، ويجوز أن يكون حالا من الكتاب أو الضمير في فِيهِ.

البلاغة :

بَيْنَ يَدَيْهِ استعارة لما سبقه من التوراة والإنجيل اللذين بشرا به.

أَمْ يَقُولُونَ الهمزة فيه للإنكار ، والمعنى : بل أيقولون افتراه محمد ؟

ج ١١ ، ص : ١٧٥

المفردات اللغوية :

أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ أي أن يفتري افتراء من غير اللّه تعالى. وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أي كان أو أنزل مطابقا لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها وليس كذبا.

وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ تبيين ما كتبه اللّه من الأحكام وغيره ، وتوضيح ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. لا رَيْبَ فِيهِ لا شك.

(١٧٣/١١)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ أي بل أيقولون : اختلقه محمد ، والهمزة للإنكار. فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وقوة المعنى ، على وجه الافتراء فإنكم عرب فصحاء ، مثلي في العربية والفصاحة ، وأشدّ تمرنا في النظم والعبارة. وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به. مِنْ دُونِ اللَّهِ سوى اللّه أو غيره ، فإنه وحده قادر على ذلك. إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في أنه افتراء وأنه اختلقه ، فلم يقدروا على ذلك.

بَلْ كَذَّبُوا بل سارعوا إلى التكذيب. بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ أي القرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه. وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ لم يطلعوا على تأويله ، ولم تبلغ أذهانهم معانيه ، ولم تتحقق عاقبة ما فيه من الوعيد ، أو تقع أخباره عن المغيبات ، حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب. والمعنى : أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ، ثم إنهم فاجؤوا بتكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ، ويتفحصوا معناه.

كَذلِكَ التكذيب. كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ رسلهم. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ بتكذيب الرسل ، أي آخر أمرهم من الهلاك ، فكذلك نهلك هؤلاء.

المناسبة :

ذكر اللّه تعالى مطلب المشركين من النبي صلى اللّه عليه وسلّم بإنزال آية من ربه (الآية ٢٠) لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز ، وأن محمدا إنما يأتي به من عند نفسه اختلاقا ، وأجابهم بأن محمدا عاجز كغيره عن إنزال آية والإتيان بمثله ، ثم أبطل شركهم بأدلة كثيرة ، ثم عاد هنا إلى ترسيخ حقيقة أصيلة وهي أن القرآن وحي من عند اللّه تعالى ، وليس إتيان محمد عليه الصلاة والسلام به على سبيل الافتراء على اللّه تعالى ، مما يدل على أنه معجز نازل من عند اللّه ، وأنه مبرأ من الافتراء.

ج ١١ ، ص : ١٧٦
التفسير والبيان :

هذه الآيات في بيان إعجاز القرآن ، وكونه كلام اللّه ، وهذا من أصول الدين ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن لإثبات أنه من عند اللّه تعالى ، وليس من عند النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وإنما هو معجزة خالدة تشهد بصدق النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وهو معنى قول اللّه
في الحديث القدسي : « صدق عبدي في كل ما يبلغه عني » .
ومعنى الآية : ما شأن القرآن وما ينبغي أن يختلق من غير اللّه لأنه بفصاحته وبلاغته ، ووجازته وحلاوته ، وإخباره عن المغيبات ، وأصالة تشريعه ، واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند اللّه تعالى ، فهو كلامه الذي لا يشبه كلام المخلوقين ، ولا يقدر أحد إلا اللّه أن يجاريه أو يعارضه.
وقد ثبت أن أبا جهل قال : إن محمد لم يكذب على بشرط ، أفيكذب على اللّه ؟
وإنه مطابق ومصدّق لما تقدمه من الكتب الإلهية المنزلة على الرسل ، كإبراهيم وموسى وعيسى ، وموافق لها في الدعوة إلى أصول الدين من التوحيد والإيمان باللّه واليوم الآخر ، وصالح الأعمال ، وفضائل الأخلاق ، وهو أيضا مهيمن عليها ، ومبيّن كاشف لما وقع فيها من تحريف وتبديل ، كما قال تعالى :
وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ، مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ ، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ [المائدة ٥/ ٤٨].
وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ أي وبيان الأحكام والشرائع ، والحلال والحرام ، والعبر والمواعظ ، والآداب والأخلاق الشخصية والاجتماعية ، بيانا شافيا كافيا.
لا رَيْبَ فِيهِ أي لا شك فيه أبدا ، ولا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه ، لوضوحه ، وبيانه الحق والهدى والصواب.
ج ١١ ، ص : ١٧٧

مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أي منزل وموحى به من اللّه لا من غيره ، بدليل سلامته عن الاضطراب والاختلاف ، كما قال تعالى : وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً [النساء ٤/ ٨٢].

وبه يتبين أن اللّه سبحانه وصف القرآن بصفات خمس هي :

١- لا يصح أن يفتري من دون اللّه لأن القرآن معجز لا يقدر عليه البشر.

٢- وهو مصدّق مؤيد لما قبله في أصول الدين والفضائل ، ومهيمن عليه ، فهو معجز لاشتماله على الإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة ، وهو المراد بقوله : تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

ومن إخباره عن مغيبات المستقبل التي وقعت مطابقة للخبر : قوله تعالى :

الم. غُلِبَتِ الرُّومُ .. وقوله تعالى في فتح مكة : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ [الفتح ٤٨/ ٢٧] وقوله في ظهور الدولة الإسلامية : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ [النور ٢٤/ ٥٥] مما يدل على أن الإخبار إنما حصل بالوحي من اللّه تعالى.

٣- وهو مفصّل ما يحتاج إليه الإنسان من الأحكام الشرعية والعلوم الكثيرة الدينية والدنيوية ، ففيه علم العقائد والأديان : وهو معرفة اللّه تعالى (ذاتا وصفات) وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفيه علم الأعمال وهو علم الفقه ، وعلم الأخلاق مثل قوله : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ [الأعراف ٧/ ١٩٩] وقوله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ [النحل ١٦/ ٩٠] وهو المراد بقوله : وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ [يوسف ١٢/ ١١١].

ج ١١ ، ص : ١٧٨

٤- لا ريب ولا شك فيه ، لبيانه العلوم الكثيرة ، وعدم وجود التناقض فيه.

٥- كونه من عند اللّه تعالى ، نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى اللّه عليه وسلّم ليكون من المنذرين.

ثم أنكر اللّه تعالى على المشركين الجاهلين القائلين بأن محمدا صلى اللّه عليه وسلّم قد افتراه ، وتحداهم أن يأتوا بمثله ، فقال : أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ .. أي بل أيقولون :

اختلقه محمد ؟ ! فمحمد بشر مثلكم ، وقد زعمتم أنه جاء بهذا القرآن ، فأتوا بسورة مثله ، أي من جنس هذا القرآن ، ولو بما يشابه أقصر سورة فيه في النظم والأسلوب ، والقوة والإحكام ، والبلاغة والدقة ، واستعينوا على ذلك بمن قدرتم عليه من إنس وجان ، ولن تستطيعوا فعل شيء فإن جميع الخلق عاجزون عن معارضته أو الإتيان بمثله : قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ ، لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً [الإسراء ١٧/ ٨٨].

فإن كنتم صادقين في ادعائكم أن القرآن من عند محمد ، فلتأتوا بنظير ما جاء به وحده ، ولتستعينوا

بمن شئتم.

ولقد كان التحدي للإتيان بمثل القرآن على مراحل : أولها- ما ذكر في هذه الآية : قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ وهي أعلى المراتب. وثانيها- التنازل معهم إلى عشر سور منه ، فقال في أول سورة هود : أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ ، قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [١٣]. وثالثها- التنازل إلى سورة ، فقال هنا في هذه السورة المكية : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وكذا في سورة البقرة المدنية : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا ، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ [٢٣].

(١٧٧/١١)

ثم أثبت القرآن موقف هؤلاء المشركين منه فقال : بَلْ كَذَّبُوا .. أي بل

ج ١١ ، ص : ١٧٩

سارع هؤلاء إلى تكذيب القرآن من قبل أن يتدبروا ما فيه ، أو يفهموه ، وهذا.

شأن المعاند الجاهل.

وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ أي وكما أنهم كذبوا به بداهة قبل التدبر والمعرفة تقليدا للآباء ، كذلك كذبوه بعد التدبر ومعرفة علو شأنه وإعجازه وضعف قواهم في المعارضة ، تمردا وعنادا ، وبغيا وحسدا. ويجوز أن يكون معنى وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ : لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالمغيبات ، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق ؟

كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي مثل ذلك التكذيب كذبت الأمم السابقة بمعجزات الأنبياء قبل النظر فيها وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن تقليدا للآباء وعنادا.

فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ أي فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة أولئك الظالمين لأنفسهم بتكذيبهم رسلهم وطلبهم الدنيا وترك الآخرة ، وهي أننا أهلكناهم بسبب تكذيبهم رسلنا ، ظلما وعلوا ، وكفرا وعنادا وجهلا ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم : فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ، وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت ٢٩/ ٤٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

الآيات إثبات قاطع لكون القرآن كلام اللّه تعالى ووحيه إلى محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، وليس افتراء من محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، وذلك بدليل وصفه بالأوصاف الخمس التي ذكرت في الآية ، وأوضحتها في التفسير السابق.

ج ١١ ، ص : ١٨٠

و بدليل التحدي للعرب بأن يأتوا بمثل سورة من هذا القرآن ، إذا كان في زعمهم من كلام محمد صلى اللّه عليه وسلّم وهو بشر مثلهم ، وهم عرب فصحاء بلغاء مثله.

فالآية الأولى دلت على كون القرآن من عند اللّه تعالى لأنه مصدّق الذي بين يديه من الكتب ، وموافق لها ، من غير أن يتعلم محمد عليه الصلاة والسلام عن أحد.

والآية الثانية إلزام بسورة مثله إن كان مفترى. وهذا مناسب لما اشتهر به العرب من فصاحة وبلاغة وبيان ، فالقرآن معجزة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم الخالدة في بيانه ونظمه وتشريعه وعلومه. كما أن كل معجزة لنبي تناسب العصر الذي عاش فيه ، مثل معجزة العصا واليد لموسى عليه السّلام في زمن برع فيه السحرة بفنون السحر ، ومعجزة عيسى عليه السلام الذي بعث في زمان اشتهار علم الطب ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن اللّه ، وهذا من غير علاج ولا دواء.

لهذا جاء

في الحديث الصحيح المتقدم عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « ما من نبي من الأنبياء ، إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما الذي أوتيته وحيا أوحاه اللّه إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » .

ودلت الآية الثالثة : بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ على انهيار موقف العرب من القرآن ، فهم قبل أن يتأملوا بما فيه كذبوا به تقليدا للآباء وإبقاء على عبادة الأوثان ، وبعد أن تأملوا وتدبروا فيه كذبوا به أيضا تمردا وعنادا ، وبغيا وحسدا ، وعجزا وضعفا من معارضته والإتيان بمثل أقصر سورة فيه في سلامة النظم والأسلوب والمعنى والحكم. لذا أنذرهم القرآن بالدمار والهلاك على ظلمهم كما أهلك الأمم الخالية بسبب تكذيب الرسل.

ج ١١ ، ص : ١٨١

انقسام المشركين إلى فريقين حول الإيمان بالقرآن والنبي [سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٠ الى ٤٤]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

الإعراب :

مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ حملا على معنى مَنْ لأن معناها الجمع.

مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ينظر حملا على لفظ مَنْ لأن لفظها مفرد.

وَلكِنَّ النَّاسَ ذهب جماعة من النحويين إلى أن الاختيار في لكِنَّ إذا جاءت معها الواو أن تكون مشدّدة ، وإذا جاءت بغير واو أن تكون مخففة ، قال الفراء : لأنها إذا كانت بغير واو أشبهت « بل » فخففت لتكون مثلها في الاستدراك ، وإذا جاءت بالواو خالفت فشدّدت ، فمن شددها ، كان ما بعدها منصوبا لأنه اسمها ، ومن خففها رفع ما بعدها على الابتداء ، وما بعده الخبر أَنْفُسَهُمْ مفعول به مقدم.

البلاغة :

مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ... ومَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ بينهما طباق السلب.

الصُّمَّ .. الْعُمْيَ مجاز عن الكافرين ، شبههم بالصم والعمي لإعراضهم عن الحق والهدى.

المفردات اللغوية :

وَمِنْهُمْ ومن المكذبين أهل مكة مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق

ج ١١ ، ص : ١٨٢

و لكن يعاند ، أو من سيؤمن به ويتوب عن كفره. وضمير بِهِ يعود إلى القرآن مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره ، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر بِالْمُفْسِدِينَ بالمعاندين أو المصرين على الكفر ، وهو تهديد لهم.

(١٨٠/١١)

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ أصروا على تكذيبك لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أي لكل جزاء عمله ، وأنا بريء من عملكم ، وبما أني تبرأت منه فقد أعذرت أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ لا تؤاخذوني بعملي ولا أؤاخذ بعملكم.

مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع ، ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلا أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ شبههم بهم في عدم الانتفاع بالقرآن وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم وتدبرهم. وهذا يدل على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه.

مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ شبههم بهم في عدم الاهتداء وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة ، فإن المقصود من الإبصار : هو الاعتبار والاستبصار. والآية كالتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم.

لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً بسلب حواسهم وعقولهم وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بإفسادها وتفويت منافعها

عليها. وفيه دليل على أن للعبد كسبا وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية ، كما زعمت المجبرة.

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى طعن الكافرين في النبوة والوحي ، وبعد أن أنذرهم بالدمار والعذاب في الدنيا بقوله : فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ذكر أنهم في الواقع فريقان : فريق يصدق بأن القرآن كلام اللّه ، ولكنه يكابر ويعاند ، وفريق لا يصدق به أصلا لفرط غباوته وجهله ، فيصر على تكذيب النبي لفقده الاستعداد للإيمان به ، فلا أمل في إصلاحه وهدايته ، فتكون المصلحة في إعطاء الفرصة للفريق الأول للإيمان دون الاستئصال.

التفسير والبيان :

المشركون في الحال والاستقبال فريقان : فريق يصدق بالقرآن في نفسه

ج ١١ ، ص : ١٨٣

و يعلم أنه حق ، ولكنه يعاند بالتكذيب ، وفريق يشك فيه لا يصدق به. هذا في الحال. ويجوز أن يراد بفعل يُؤْمِنُ الاستقبال ، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من سيؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك ، وينتفع بما أرسلت به ومنهم من سيصرّ على كفره ، ويموت على ذلك ويبعث عليه.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله ، وهؤلاء هم المعاندون أو المصرّون ، واللّه العادل الذي لا يجوز ، بل يعطي كلا ما يستحقه ، فمعنى الآية : وربك أعلم بمن يفسد في الأرض بالشرك والظلم والطغيان ، فلا أمل في صلاحهم ، لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وسيعذبهم في الدنيا والآخرة.

وإن كذّبك هؤلاء المشركون وأصروا على ذلك ، فتبرأ منهم ومن عملهم ، وقل لهم : لِي عَمَلِي : وهو تبليغ الرسالة والإنذار والتبشير والطاعة والإيمان ، وسيجازيني اللّه عليه ، وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ : وهو الظلم والشرك والفساد ، وسيجازيكم اللّه عليه ، كما قال تعالى : هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ [يونس ١٠/ ٥٢].

أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ يراد بذلك الزجر والردع ، وإعلان مبدأ المسؤولية الفردية : وهي انحصار مسئولية كل إنسان بنفسه ، وعدم سؤاله عن ذنب غيره. والمعنى : فلا تؤاخذوني بعملي ،

ولا أؤاخذ بعملكم فقد أعذرت وأنا بريء من عملكم ، كقوله تعالى : قُلْ : إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ [هود ١١/ ٣٥] وقوله : قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا ، وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ [سبأ ٣٤/ ٢٥] وقوله : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى [الأنعام ٦/ ١٦٤] وقوله : فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [الشعراء ٢٦/ ٢١٦].

ج ١١ ، ص : ١٨٤

و أما موقف المشركين المكذبين منك يا محمد ، فلا تعجب منه ، فمنهم من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع ، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون ، وإنما يسمعون دون تدبر ولا فهم ، ويهتمون بسماع نظم القرآن وجرس صوته ، فهم لاهون لاعبون غير جادّين : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ. لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [الأنبياء ٢١/ ٢- ٣] أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ أي لا تستطيع الإسماع النافع لقوم صموا آذانهم عن سماعك ، وضموا إلى ذلك أنهم لا يعقلون ما يسمعون ولا يفهمون معناه ، فينتفعوا به ، فإن السماع النافع للمستمع : هو ما عقل به ما يسمعه ، وعمل بمقتضاه وإلا كان في الواقع كالأصم حقيقة. وهذا حال بعض المسلمين مع الأسف اليوم. وفيه دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم بالقسر والإلجاء إلا اللّه عز وجل.

(١٨٣/١١)

و منهم من ينظر إليك عند قراءتك القرآن نظرة إعجاب ، ولكنه لا يبصر نور الإيمان والقرآن وهداية الدين والخلق القويم. أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ أي لا تقدر على هداية هؤلاء ، لأنهم وإن كانوا مبصرين بأعينهم في الظاهر ، فهم غير مبصرين بقلوبهم في الحقيقة ، فلا تستطيع هدايتهم لفقدهم نعمة البصيرة المدركة والعقل المدرك : فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج ٢٢/ ٤٦].

والخلاصة : إنك يا محمد لا تستطيع هداية هؤلاء ، لفقدهم الاستعداد للفهم والهداية ، وكأنهم مثل من فقد حاسة السمع في الحقيقة ، وفقد حاسة البصر أيضا لأن فائدة السمع والبصر هي الانتفاع ، فإذا لم ينتفعوا فكأنهم عطلوا حواسهم :

إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [ق ٥٠/ ٣٧] والمراد بذلك تسلية النبي صلى اللّه عليه وسلّم.

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً .. أي إن اللّه تعالى لا يجور أبدا ، بسلب

ج ١١ ، ص : ١٨٥

حواسهم وعقولهم التي بها يدركون الأشياء ويهتدون إلى الحق والصواب ، ولكن الناس هم الظالمون

أنفسهم وحدها دون غيرها لأنهم يعرّضونها لعقاب الكفر والتكذيب والمعاصي ، بتعطيلهم نعمة العقل ، وتنكرهم لهداية الدين. وهذا وعيد للمكذبين ، فإن عذابهم يوم القيامة عدل وحق لا ظلم فيه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- جميع الكفار ومنهم أهل مكة في الماضي : منهم من يؤمن بالقرآن باطنا ، لكنه يتعمد إظهار التكذيب ، ومنهم من لا يؤمن به أصلا. ومنهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويؤمن ، ومنهم من يصر على الجحود ويستمر على الكفر ، واللّه تعالى عليم بالجميع.

(١١/١٨٤)

٢- كل إنسان مسئول عن نفسه وسيلقى جزاءه إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فلا يؤاخذ أحد بذنب الآخر.

٣- إن الحواس من سمع وبصر لها هدفان : هدف ظاهري وهو سماع المسموعات ورؤية المبصرات ، لتكون الحياة بوجه سليم وهدف حقيقي : وهو استخدامها في تدبر المسموع وفهمه وتعقله ، وإنعام النظر وإدراك البصيرة في أمور الدين والأخلاق ، للتوصل إلى نعمة الإيمان والهداية والحق ، والتخلص من ظلمة الكفر والضلال والباطل.

٤- الرسول صلى اللّه عليه وسلّم مجرد مبلّغ ومنذر ومبشر ، فلا يقدر على غرس الإيمان في القلوب ، وزرع الهداية في النفوس ، وما على العقلاء إلا الاستجابة لبلاغاته ، والاستماع لمواعظه ولأنه كما لا يقدر على إسماع من سلب السمع ، وإبصار من حرم البصر ، فلا يقدر أن يوفق هؤلاء للإيمان إذا أصروا على الكفر.

ج ١١ ، ص : ١٨٦

٥- إن السمع أفضل من البصر ، بدليل أنه كلما ذكر اللّه السمع والبصر ، فإنه في الأغلب وكما في هذه الآية يقدم السمع على البصر.

٦- احتج أهل السنة بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى لأن قلوب أولئك الكفار بالنسبة إلى الإيمان كالأصم بالنسبة إلى استماع الكلام ، وكالأعمى بالنسبة إلى إبصار الأشياء ، واللّه هو الذي يخلق القدرة على الهداية فيها.

٧- إن اللّه لم يظلم أهل الشقاء ، فهو في جميع أفعاله عادل ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم.

زوال الدنيا سريع [سورة يونس (١٠) : آية ٤٥]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)

الإعراب :

وَيَوْمَ منصوب بتقدير : اذكر ، أو على الظرف ، وعامله : يَتَعارَفُونَ.

(١٨٥/١١)

كَأَنْ الكاف في موضع نصب على الحال من الضمير يَحْشُرُهُمْ أي يحشرهم متشابهين أو صفة مصدر محذوف ، تقديره : يحشرهم حشرا مشابها لحشر يوم لم يلبثوا قبله ، أو صفة (ليوم) على تقدير محذوف أيضا ، أي كأن لم يلبثوا قبله ، فحذف المضاف فاتصلت الهاء يلبثوا ، فحذفت للطول. وكَأَنْ : مخففة من الثقيلة ، تقديره : كأنهم لم يلبثوا ، وواو يَلْبَثُوا عائدة إلى ضمير يَحْشُرُهُمْ.

يَتَعارَفُونَ جملة فعلية حال من ضمير لَمْ يَلْبَثُوا ويجوز جعلها خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هم يتعارفون.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ .. إما استئناف فيه معنى التعجب أي ما أخسرهم ، وإما حال من ضمير يتعارفون.

ج ١١ ، ص : ١٨٧

المفردات اللغوية :

يَحْشُرُهُمْ الحشر : الجمع من كل جانب إلى موقف واحد. كَأَنْ أي كأنهم ، فخففت.

لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا ، أو في القبور ، لهول ما يرون.

يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ يعرف بعضهم بعضا إذا بعثوا ، ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ بالبعث. وَما كانُوا مُهْتَدِينَ طريق الرشاد ، وقوله : قَدْ خَسِرَ ... هو استئناف ، فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أخسرهم ، وهي شهادة من اللّه تعالى على خسرانهم ، أو حال من ضمير : يَتَعارَفُونَ ، على إرادة القول ، أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك.

المناسبة :

لما وصف اللّه تعالى هؤلاء الكفار بقلة الإصغاء وترك التدبر ، وتكذيبهم القرآن الكريم والنبي صلى اللّه عليه وسلّم ، أتبعه بالوعيد بالجزاء في الآخرة على ما كان منهم في الدنيا.

التفسير والبيان :

(١٨٦/١١)

يذكّر اللّه تعالى الناس بقيام الساعة والحشر من قبورهم إلى أرض المحشر يوم القيامة ، فيقول : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ أي اذكر لهم أيها الرسول وأنذرهم يوم يجمعهم اللّه بالبعث بعد الموت في موقف الحساب والجزاء ، فيلاحظون كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة يسيرة ، والساعة مثل في القلة ، ثم انقضت ، حالة كونهم يتعارفون أي يعرف بعضهم بعضا إذا بعثوا ، ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال ، أو فهم يتعارفون.

وتقديرهم قصر الدنيا في ذلك الموقف الرهيب معنى متكرر في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ [الأحقاف ٤٦/ ٣٥] وقوله : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها [النازعات ٧٩/ ٤٦] وقوله : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ [الروم ٣٠/ ٥٥] وقوله : قالَ : كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟

ج ١١ ، ص : ١٨٨

قالُوا : لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، فَسْئَلِ الْعادِّينَ ، قالَ : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [المؤمنون ٢٣/ ١١٢- ١١٤].

ثم أعلن اللّه تعالى خسارتهم فقال : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا .. أي إن هؤلاء الكفار المكذّبين بالبعث قد خسروا ثواب الجنة خسارة كبري ، إذ بدلوا الإيمان بالكفر ، وما كانوا مهتدين لأوجه الربح والنفع بعمل الصالحات ، فما أخسرهم! وهذا تعجب شديد من اللّه تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على أن عمر الدنيا قصير ، إذا قوبل بحياة الآخرة الطويلة الأمد بل الخالدة ، وعلى أن الكافرين المكذبين بالبعث خسروا ثواب الجنة خسارة كبري لا تعوض لأن الخسران إنما هو في يوم لا يرجى فيه القيام بالبديل ، ولا تنفع فيه التوبة ، وذلك بعد قيام الأدلة الكثيرة في القرآن المجيد على البعث والنشور. ويفهم من الآية أيضا أن لذات الدنيا بالنسبة إلى جميع العالم لا تعادل شيئا أمام العذاب الشديد والآفات الحاصلة للكافر يوم القيامة ، فمن باع آخرته بالدنيا فقد خسر لأنه أعطى الكثير وأخذ القليل ، وأن الكافر اهتدى إلى رعاية مصالح تجارته هذه.

كذلك أشارت الآية إلى أن الناس في الآخرة يعرف بعضهم بعضا ، ولكن التعارف يمكث وقتا يسيرا ، ويقولون : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ أي بالبعث والنشور.

ومع أنني اتجهت في تفسير الآية إلى مقابلة الدنيا بالآخرة فإن ما ذكر في الآية من لبث قدر ساعة من النهار يحتمل أن يكون ذلك هو عمرهم في الدنيا ، أو مدة بقائهم في قبورهم ، لهول ما يرون من

البعث.

ج ١١ ، ص : ١٨٩

تعذيب المشركين في الدنيا والآخرة [سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٦ الى ٥٦]

وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠)

أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥(١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥(٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥(٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥(٤) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥)

هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

ج ١١ ، ص : ١٩٠

الإعراب :

بَياتاً منصوب على الظرف بمعنى وقت بيات.

ما ذا يَسْتَعْجِلُ يجوز جعله جوابا للشرط ، كقولك : إن أتيتك ماذا تطعمني ؟ ويجوز جعل جواب الشرط محذوفا وهو : تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه.

وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ إما بمعنى : يستخبرونك ، فيتعدى إلى مفعولين ، الأول هو الكاف والثاني جملة أَحَقٌّ هُوَ جملة اسمية في موضع المفعول الثاني. وإما بمعنى يستعملونك فيتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، فتكون الجملة الاسمية قد سدت مسدّ المفعولين.

إِي وَرَبِّي أي : حرف يكون مع القسم بمعنى نعم ، وجواب القسم : إِنَّهُ لَحَقٌّ.

أَ رَأَيْتُمْ تستعمل « أ رأيت » بمعنى أخبرني ، والرؤية إما بصرية أو علمية ، ولا تستعمل في غير الأمر العجيب مثل : أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى.

البلاغة :

ضَرًّا وَلا نَفْعاً بينهما طباق ، ومثله بين بَياتاً أَوْ نَهاراً وبين يُحيِي وَيُمِيتُ وبين يَسْتَأْخِرُونَ .. ويَسْتَقْدِمُونَ. يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للتهويل والتشنيع على الجرم ، كما أن هذا الاستفهام للتهويل والتعظيم.

أَ ثُمَّ دخول حرف الاستفهام على ثم لإنكار التأخير لإيمانهم ، فلا يقبل منهم.

المفردات اللغوية :

وَإِمَّا أدغمت فيه نون إن الشرطية في ما المزيدة. نُرِيَنَّكَ نبصرنك. بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ به من العذاب في حياتك ، كما أراه يوم بدر ، وجواب الشرط محذوف أي فذاك.

أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل تعذيبهم. فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فنريكه في الآخرة ، وهو جواب : نتوفينك.

ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ مطلع أو مجاز عليه ، فإنه ذكر الشهادة وأراد نتيجتها. عَلى ما يَفْعَلُونَ من تكذيبهم وكفرهم ، فيعذبهم أشد العذاب.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم الماضية. فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ إليهم بالبينات فكذبوه. قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ بالعدل ، أي بين الرسول ومكذبيه ، فيعذبون وينجّى الرسول ومن آمن به. وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بتعذيبهم بغير جرم ، فكذلك نفعل بهؤلاء.

ج ١١ ، ص : ١٩١

(١٩٠/١١)

وَ يَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ ؟ بالعذاب ، يراد استبعاد له واستهزاء به ، وقولهم خطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين. إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ أن أملكه أو يقدرني عليه ، فكيف أملك لكم حلول العذاب.

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ مدة معلومة لهلاكهم. فَلا يَسْتَأْخِرُونَ يتأخرون عنه. وَلا يَسْتَقْدِمُونَ يتقدمون عليه.

قُلْ : أَرَأَيْتُمْ أخبروني. إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ عذاب اللّه الذي تستعجلون به. بَياتاً ليلا. ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ : أي شيء من العذاب يستعجلونه ، وكله شديد مؤلم لا يلائم الاستعجال. الْمُجْرِمُونَ المشركون. وجواب الشرط : هي جملة الاستفهام ، كقولك : إذا أتيتك ماذا تعطيني ؟ والمراد به التهويل ، أي ما أعظم ما استعجلوه. آلْآنَ تؤمنون ؟ على إرادة القول ، أي يقال لهم إن آمنوا بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم به ؟ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ استهزاء وتكذيبا.

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عطف على (قيل أو : يقال) المقدر قبل : آلْآنَ ...

عَذابَ الْخُلْدِ أي الذي تخلدون فيه ، أي المؤلم على الدوام. هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ أي ما تجزون إلا جزاء على ما كسبتموه من الكفر والمعاصي.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ يستخبرونك. أَحَقٌّ هُوَ ؟ أي أحق ما تقول من الوعد الذي وعدتنا به من العذاب والبعث. قُلْ : إِي نعم. بِمُعْجِزِينَ بفائتين العذاب.

(١٩١/١١)

ظَلَمَتْ بالشرك أو الكفر أو التعدي على الغير. ما فِي الْأَرْضِ ما فيها جميعا من خزائن وأموال. لَافْتَدَتْ بِهِ لجعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة. النَّدامَةَ على ترك الإيمان. لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ لأنهم بهتوا بما عاينوا من الهول فلم يقدروا على النطق. وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بين الخلائق. بِالْقِسْطِ بالعدل. وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ شيئا. وليس هذا تكرارا مع ما سبق من القضاء بالقسط لأن اللّه يقضي بين الأنبياء ومكذبيهم ، والثاني فيه مجازاة المشركين على الشرك ، أو الحكم بين الظالمين والمظلومين.

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب. أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي إن وعده بالبعث والجزاء من ثواب وعقاب كائن ثابت لا خلف فيه. وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لقصور عقولهم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا.

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى خسارة المشركين المكذبين بالبعث الذين لم يهتدوا إلى وجوه الخير والصلاح ، وأنهم سيعذبون ، أوضح أن بعض هذا العذاب سيكون في

الدنيا ، وبعضه في الآخرة ، وهو تنبيه على أن عاقبة المذنبين مذمومة قبيحة جدا.

وليس هذا حال محمّد صلى اللّه عليه وسلّم مع قومه ، بل هو حال كل الأنبياء مع أقوامهم.

ثم بيّن اللّه تعالى الشبهة الخامسة « ١ » من شبهات منكري النبوة ، فإنه صلى اللّه عليه وسلّم كلما هددهم بنزول العذاب ، ومرّ زمان ولم يظهر ذلك العذاب ، قالوا : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ واحتجوا بعدم وجوده على القدح في نبوته صلى اللّه عليه وسلّم. ثم أجابهم تعالى بأنه لو نزل هذا العذاب ، ما الفائدة لكم فيه ؟ فإن قلتم : نؤمن عنده ، فالإيمان وقت الإلجاء والعسر باطل ، فيكون هذا العذاب في الدنيا ، ثم يعقبه عذاب آخر أشد منه يوم القيامة ؟

(١٩٢/١١)

و بالرغم من سؤالهم : مَتى هذَا الْوَعْدُ وإجابتهم ، عادوا مرة أخرى إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلّم يسألونه : أَحَقٌّ هُوَ أي المعاد والقيامة من القبور ثم العذاب ؟

هو حق وأنه ليس للظالم شيء يفتدي به ، فإن كل الأشياء ملك اللّه تعالى ، وأن ثبوت النبوة وصحة المعاد متفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم ، وكل ما سواه ملكه.

التفسير والبيان :

كان المشركون يكذبون النبي صلى اللّه عليه وسلّم في توعده لهم بالعذاب ، وكانوا يستعجلون نزوله تكذيبا له واستهزاء به ، ويتمنون موته لتموت دعوته ، فرد اللّه تعالى عليهم مخاطبا رسوله صلى اللّه عليه وسلّم : إن ننتقم منهم في حياتك لتقرّ عينك كما حدث يوم بدر وحنين وغيرهما ، فذاك وإن توفيناك قبل ذلك فمصيرهم ومنقلبهم إلينا بكل حال ، فنريك عذابهم في الآخرة ، واللّه مطلع على أفعالهم بعدك ، فيجازيهم به ، على علم وشهادة حق. وذلك كقوله تعالى : وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ،

---

(١) قد مضى بيان الشبهات الأربعة في هذه السورة.

أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ، فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ ، وَعَلَيْنَا الْحِسابُ [الرعد ١٣/ ٤٠].

وهذا يدل على أنه تعالى يري رسوله أنواعا من ذل الكافرين وخزيهم في الدنيا ، وسيزيد عليه بعد وفاته.

وهذا ليس حال النبي صلى اللّه عليه وسلّم مع قومه ، بل هو حال الأنبياء كلهم مع أقوامهم ، فإنه تعالى أرسل لكل أمة من الأمم الخالية رسولا ، يدعوهم إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر ، وإلى العمل الصالح مناط النجاة في الآخرة. وهذا يدل على أن كل جماعة ممن تقدم قد بعث اللّه إليهم رسولا : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ [فاطر ٣٥/ ٢٤].

فإذا جاء رسولهم إليهم بالبينات فكذبوه ، قضى اللّه بينه وبينهم بالعدل ، فيعذبون ، وينجي اللّه رسوله ومن صدقه ، وهم لا يظلمون في قضائه شيئا ، مما ينزل بهم من عذاب ، فلن يكون عذاب بغير ذنب ارتكبوه.

ويقول كفار قريش للرسول صلى اللّه عليه وسلّم وللمؤمنين تكذيبا واستهزاء ، كلما هددهم بنزول العذاب على شركهم ولم ينزل : متى يقع هذا الوعيد ، إن كنتم صادقين في تهديدكم وقولكم ؟

فأجابهم اللّه تعالى بجواب يحسم هذه الشبهة : قل أيها الرسول لمن يستعجل العذاب : إني بشر لا

أملك لنفسي ضرا أمنعه ، ولا نفعا أجلبه ، إلا ما شاء اللّه أن يقدرني. والمراد أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار نصر المؤمنين لا يقدر عليه أحد إلا اللّه سبحانه ، وأنه تعالى ما عيّن لذلك الوعيد وقتا معينا ، فهذا من شأن الإله ، وأما الرسول فمهمته مقصورة على التبليغ لما جاء من عند اللّه.

والاستثناء هنا في رأي أهل السنة منقطع ، أي ولكن ما شاء اللّه من ذلك كائن.

ج ١١ ، ص : ١٩٤

و لكل أمة من الأمم مدة من الزمن أو العمر مقدرة ، فإذا جاء أجلهم ، لا يملك رسولهم ولا غيره أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة من الزمان المقدر له.

وهذا يدل على أن الجزاء يحصل مع حصول الشرط ، لا متأخرا عنه ، وأن حرف الفاء لا يدل على التراخي ، وإنما يدل على كونه جزاء.

ثم أجابهم اللّه تعالى بجواب آخر : قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ .. أي قل لهم أيها الرسول : أخبروني عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه ، إن أتاكم عذابه ليلا وقت مبيتكم ، أو نهارا وقت شغلكم.

وأي نوع من العذاب تستعجلون ، أعذاب الدنيا أم عذاب الآخرة ؟ وكل من العذابين واقع شديد ، وأي عذاب تطلبون تعجيله فهو جهل وحماقة ؟ فأي فائدة لكم فيه ؟ إن قلتم : نؤمن عنده ، فالإيمان وقت الشدة واليأس باطل ، فالعذاب القريب هو عذاب الدنيا ، ويعقبه يوم القيامة عذاب آخر أشد منه.

(١٩٤/١١)

و هذا معنى قوله : أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؟ أي أتنتظرون مجيء هذا العذاب للإيمان ؟ فإذا وقع بالفعل آمنتم به ، في وقت لا ينفع الإيمان ، ويقال لكم توبيخا : آلآن آمنتم باللّه والرسول اضطرارا وقسرا ، مع أنكم كنتم قبل ذلك تستعجلون العذاب على سبيل السخرية والاستهزاء والتكذيب والاستكبار ؟ ! ودخلت ألف الاستفهام على ثُمَّ للتقرير والتوبيخ ، وليدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى.

ثم يقال للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان ، وتكذيب الرسول ووعيده : تجرعوا عذاب اللّه الدائم لكم أبدا ، هل تجزون أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبون وتعملون باختياركم من الكفر والمعاصي.

وذكر هذه العلة : بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ كلما ذكر العقاب والعذاب دليل على أن جانب الرحمة راجح غالبا ، وجانب العذاب مرجوح مغلوب.

ج ١١ ، ص : ١٩٥

و ظاهر الآية يدل على أن الجزاء من جنس العمل ، ويوجب العمل لأن ذلك الجزاء عند أهل السنة واجب بحكم الوعد المحض ، وعند المعتزلة فلأن العمل الصالح يوجب استحقاق الثواب على اللّه

تعالى.
والآية تدل أيضا على كون العبد مكتسبا للخير والشر ، خلافا للجبرية.
وبالرغم من جواب اللّه تعالى بما ذكر عن سؤال الكفار : مَتى هذَا الْوَعْدُ ؟ فإنه أخبر سبحانه أنهم رجعوا إلى الرسول مرة أخرى ، وسألوه مرة أخرى ، عن ذلك السؤال ، فقال : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ.
أي ويستخبرونك أيها الرسول أن تخبرهم عن عذاب الدنيا والآخرة أحق أنه سيقع على ما نكسبه من المعاصي في الدنيا ، أم هو مجرد إرهاب وتخويف ؟ .
وتكرار السؤال دليل على أن القوم تملّكهم إحساس شديد بالقلق والخوف من العذاب ، كأنهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم.

(١٩٥/١١)

فقل لهم أيها الرسول : نعم وربي ، إنه لحق ثابت واقع ماله من دافع ، وما أنتم بمعجزين أي بفائتين العذاب ، وليس صيرورتكم ترابا بمعجز اللّه عن إعادتكم كما بدأكم من العدم : إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [يس ٣٦/ ٨٢].
وليس لهذه الآية نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر اللّه تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد ، وهما في سورة سبأ : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ [٣] وفي التغابن : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ، ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ ، وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [٧].
ثم أخبر اللّه تعالى عن بعض مضايقات وأهوال القيامة فقال : وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ

نَفْسٍ ..
أي أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب اللّه بملء الأرض ذهبا.
وأسروا الندم : وهو ما يجد الإنسان في نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل ضارّ ، لما رأوا العذاب الشديد ، فصاروا مبهوتين متحيرين. وقد يجهرون بالندم كما قال : يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ [الزمر ٣٩/ ٥٦] ثم بين تعالى أنه لا ظلم حينئذ فقال : وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ .. أي وحكم اللّه بين الظالمين والمظلومين بالعدل. لأن الكفار وإن اشتركوا في العذاب ، فإنه لا بد وأن يقضي اللّه تعالى بينهم بالحق ، رفعا لما ظلم به بعضهم بعضا في الدنيا ، فيكون في القضاء تخفيف عذاب بعضهم ، وتثقيل عذاب الباقين.

(١٩٦/١١)

ثم أتبع ذلك الاعلام وأنه ليس للظالم شيء يفتدي به ، بأن الملك كله للّه وأنه المعاقب فإن اللّه مالك السموات والأرض ، وكل الأشياء ملكه وفي سلطانه ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، ولكن أكثر الكفار منكري البعث والجزاء لا يعلمون أمر الآخرة والمعاد ، لغفلتهم عنها ، وعدم إيمانهم بالإله القادر الحكيم ، فأبان تعالى لهم الحقيقة ، وأن كل ما سواه مملوك له.

والدليل على قدرته تعالى على البعث والجزاء والثواب والعقاب أنه تعالى هو المحيي والمميت ، وإليه مرجع الخلائق حين يحييهم بعد موتهم ، فيحشرهم للحساب والجزاء على أعمالهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- عذاب الكفار شديد مضاعف في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يعذبون بالهزيمة والذل والخزي ونحوها من القلق والخوف ، وفي الآخرة بعذاب النار.

ج ١١ ، ص : ١٩٧

و اللّه تعالى يري رسوله في الدنيا نماذج من عذابهم ، وسيريه يوم القيامة ما هو أشد وأكثر ، مما يدل على أن عاقبة المؤمنين محمودة ، وعاقبة المذنبين مذمومة.

٢- لكل أمة رسول شاهد عليهم ، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم ، وكذلك لا يعذب الناس في الدنيا حتى يرسل اللّه إليهم رسولا ، فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعذّب لقوله تعالى : وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء ١٧/ ١٥].

٣- القضاء بين العباد حق قائم على العدل المطلق ، وهم لا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة.

٤- النقاش حول نزول العقاب الإلهي ومجيء القيامة قديم بين الأمم مع الرسل عليهم السلام ، وبين الأمة العربية مع النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وهو مستمر دائم بين الكفار ودعاة الإسلام المصلحين.

٥- إنزال العذاب مقدر بأجل معين في علم اللّه تعالى ، ولا يملك إنزاله إلا اللّه تعالى ، ومتى حان وقت هلاك أمة من الأمم ، فلا يتأخر ولا يتقدم لحظة.

و ليس لرسول أو نبي أو غير هما الحيلولة دون وقوع العذاب المقرر.

٦- استعجال العذاب لا نفع فيه ، وإنما النافع هو الإيمان قبل نزول العذاب ، فإذا نزل فلا فائدة ولا نفع فيه لأن إيمان اليأس غير مفيد ولا صحيح.

والقائل في قوله : آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ إما الملائكة استهزاء بهم ، وإما من قول اللّه تعالى.

٧- تبكيت الظالمين بما يقال لهم : ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ أي الذي لا ينقطع ، والجزاء لا يكون إلا جزاء الكفر والعصيان.

ج ١١ ، ص : ١٩٨

٨- قيام الساعة والبعث والمعاد حق ثابت أقسم اللّه ورسوله على أنه حق كائن لا شك في وقوعه ، وجميع الناس غير فائتين عن عذابه ومجازاته.

٩- لا يقبل من أحد الفداء عن ذنبه لأن اللّه هو مالك السموات والأرض وكل شيء في ملكه وسلطانه ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا ، وَهُمْ كُفَّارٌ ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً ، وَلَوِ افْتَدى بِهِ [آل عمران ٣/ ٩١].

١٠- يندم الكفار والظلمة والعصاة على أعمالهم في الدنيا ، وهم إما أن يخفوا الندامة أحيانا ، وإما أن يظهروها أحيانا أخرى. ورؤساء الضلالة يخفون ندامتهم عن أتباعهم قبل الإحراق بالنار ، فإذا وقعوا في النار ألهتهم النار عن التصنع ، بدليل قولهم : رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا ، وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ [المؤمنون ٢٣/ ١٠٦] فبيّن أنهم لا يكتمون ما بهم.

١١- القضاء بالعدل بين الكفار أنفسهم لدفع الظلم الذي كان بينهم واقع أيضا في الآخرة ، فيخفف العذاب حينئذ عن المظلوم ، ويزاد على الظالم.

١٢- تنبيه الناس قاطبة على أمور هي : أن اللّه مالك السموات والأرض ، وأن وعد اللّه حق كائن لا محالة فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده ، وأنه يحيي ويميت ، وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ما يريد ، العليم بأماكن وجودهم قبل البعث والحشر في البر والبحر ، وأن أكثر الكفار منكري البعث غافلون عن أمر الآخرة ، مقصّرون في الاستعداد لها.

واللّه تعالى في الآخرة كما في الدنيا قادر لذاته على الإحياء والإماتة ، لا تزول قدرته ، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبدا.

ج ١١ ، ص : ١٩٩

مقاصد القرآن الكريم [سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

الإعراب :

مَوْعِظَةٌ .. وَشِفاءٌ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ التنكير للتعظيم.

بِفَضْلِ اللَّهِ .. الباء متعلقة بفعل يفسره قوله : فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، أي فليعتنوا أو فليفرحوا ثم قال : فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا وفائدة هذا التكرار : التأكيد والبيان بعد الإجمال. والفاء بمعنى الشرط ، كأنه قيل : إن فرحوا بشيء ، فبهما فليفرحوا ، وإعادة الباء بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ دليل على أن كلا منهما سبب في الفرح. وقوله فَبِذلِكَ للواحد والاثنين والجمع.

البلاغة :

شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ مجاز مرسل من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحالّ ، أي شفاء للقلوب التي في الصدور.

المفردات اللغوية :

يا أَيُّهَا النَّاسُ أي أهل مكة وغيرهم. مَوْعِظَةٌ أو عظة : هي الوصية بالحق والخير واجتناب الشر والباطل ، بأسلوب جمع بين الترغيب والترهيب. وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ

(١٩٩/١١)

و دواء من العقائد الفاسدة والشكوك. وَهُدىً بيان الحق من الضلال ، والبيان في العقيدة بالبرهان ، وفي التشريع العملي ببيان المصالح. وَرَحْمَةٌ رقة تقتضي الإحسان والعطف.

بِفَضْلِ اللَّهِ التوفيق لتزكية النفوس ، أو هو الإسلام. وَبِرَحْمَتِهِ أي ثمرة الفضل أو هي إنزال القرآن.

فَبِذلِكَ الفضل والرحمة. فَلْيَفْرَحُوا الفرح والسرور : انفعال في النفس بنعمة حسية أو معنوية ترتاح له وتستمتع به.

ج ١١ ، ص : ٢٠٠

المناسبة :

بعد أن أقام اللّه تعالى الأدلة على أسس الدين الثلاثة : وهي التوحيد ، والنبوة ، والبعث ، ذكر التشريع العملي وهو القرآن ، وأبان صفاته ومقاصده الأربعة.

التفسير والبيان :

يا أيها الناس ، قد جاءكم كتاب جامع لكل المواعظ أو الوصايا الحسنة التي تصلح الأخلاق والأعمال وتزجر عن الفواحش ، وتشفي الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد ، وتهدي إلى الحق واليقين والصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وترحم المؤمنين رحمة خاصة.

وهذه هي صفات القرآن المجيد أو خصائصه.

١- كونه موعظة حسنة من عند اللّه ، يجمع بين الترغيب والترهيب ، فيبعث على فعل الحسن وترك

القبيح ، مثل قوله تعالى : هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران ٣/ ١٣٨].
٢- شفاء لما في القلوب من الشبهات والشكوك والنفاق والكفر وسوء الاعتقاد والخلق ، كقوله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً [الإسراء ١٧/ ٨٢].
٣- هاد إلى الحق واليقين والصراط المستقيم المحقق لسعادتي الدنيا والآخرة كقوله تعالى : قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ [فصلت ٤١/ ٤٤].

(٢٠٠/١١)

٤- رحمة للمؤمنين خاصة ، ينجيهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان ، ويحجبهم من النيران ، ويرفعهم إلى درجات الجنان. وخص المؤمنين لأنهم المنتفعون بالإيمان.
ج ١١ ، ص : ٢٠١
قل أيها الرسول للمؤمنين : ليفرحوا بفضل اللّه وبرحمته بهذا الذي جاءهم من اللّه من الهدى ودين الحق ، فإنه أولى ما يفرحون به. وقوله : فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا يفيد الحصر ، يعني يجب ألا يفرح الإنسان إلا بذلك.
روى ابن مردويه وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن أنس مرفوعا : « فضل اللّه :
القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله »
وقال الحسن البصري والضحاك وقتادة ومجاهد : « فضل اللّه : الإيمان ، ورحمته : القرآن » .
إن الفرح بما تفضل به اللّه وبما رحم به المؤمنين هو أجدى وأنفع من كل ما يجمعونه من الأموال وسائر خيرات الدنيا ، لا محالة لأنه يؤدي إلى سعادة الدارين ، وتلك الأموال سبب السعادة في الدنيا فقط.
فقه الحياة أو الأحكام :
هذه الصفات الأربع هي صفات القرآن ، ففي القرآن المواعظ والحكم ، وهو الشفاء النافع من الشك والنفاق والخلاف والشقاق ، وهو الهدى أي الرشد لمن اتبعه ، عصمة لمن تبعه ، ونجاة لمن تمسك به. ورحمة أي نعمة كبري خاصة بالمؤمنين.
وإن فضل اللّه ورحمته من أعظم دواعي الفرح والسرور ، بل لا فرح ولا سرور بغير فضل اللّه ورحمته ، وفضل اللّه : الإيمان ، ورحمته : القرآن. وهذا قول الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة. وعن أبي سعيد الخدري وابن عباس رضي اللّه عنهما العكس تماما ، فقالوا : فضل اللّه القرآن ، ورحمته الإسلام.
وعلى كل فإن مصدر الفرح الصحيح للمسلمين شيئان : الإيمان أو الإسلام ، والقرآن. وإن فضل اللّه ورحمته خير للمؤمنين مما يجمعون من حطام الدنيا لأن الآخرة خير وأبقى ، وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل.

روى أبان عن أنس أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال : « من هداه اللّه للإسلام ، وعلمه القرآن ، ثم شكا

ج ١١ ، ص : ٢٠٢

الفاقة ، كتب اللّه الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ، ثم تلا : قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ، فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ.

الإنكار على المشركين بالتحليل والتحريم للأنعام [سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠)

الإعراب :

ما أَنْزَلَ ما : منصوب ب أَنْزَلَ أو ب أَرَأَيْتُمْ ، فإنه بمعنى أخبروني.

يَوْمَ الْقِيامَةِ : منصوب بالظن ، وهو ظن واقع فيه أو منصوب على الظرف.

البلاغة :

حَراماً وَحَلالًا بينهما طباق.

قُلْ : آللَّهُ كرر الفعل للتأكيد.

آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ الاستفهام للإنكار.

وأَمْ منقطعة بمعنى بل ، ومعنى الهمزة فيها تقرير لافترائهم على اللّه ، بمعنى : بل أتفترون على اللّه ، تقريرا للافتراء. ويجوز أن تكون متصلة ب أَرَأَيْتُمْ.

المفردات اللغوية :

أَرَأَيْتُمْ أخبروني. ما أَنْزَلَ اللَّهُ ما خلق. لَكُمْ أي ما حل لكم ، ولذلك وبخ على التبعيض فقال : فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا كالبحيرة والسائبة والوصيلة. قُلْ : آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ في ذلك بالتحليل والتحريم ؟ لا. أَمْ بمعنى بل. تَفْتَرُونَ تكذبون بنسبة ذلك إليه.

ج ١١ ، ص : ٢٠٣

وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ .. أي ، أيّ شيء ظنهم به. يَوْمَ الْقِيامَةِ أيحسبون أنه لا يعاقبهم عليه ؟ وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث أنعم عليهم بالعقل ، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وأنعم عليهم بنعم كثيرة ، وأمهلهم في العقاب. وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ هذه النعمة.

المناسبة :

بعد أن أثبت اللّه تعالى في أوائل السورة الوحي والنبوة ، ذكر طريقا آخر في إثبات النبوة : وهو أن التشريع بالتحليل والتحريم هو حق اللّه تعالى ، وأن الأصل في الأرزاق والأشياء الإباحة ، فتحريم بعض الأشياء وتحليل بعض ، مع تساويها في الصفات والمنافع ، دليل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة لأنه لم يقم لكم دليل عقلي ولا نقلي على هذا التمييز ، فهو منهج فاسد باطل ، وأن ما عليه الأنبياء هو الحق والصواب.

التفسير والبيان :

ينكر اللّه تعالى على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايا ، كقوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً ، فَقالُوا : هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ، وَهذا لِشُرَكائِنا [الأنعام ٦/ ١٣٦] وقوله :

وَقالُوا : هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ ، بِزَعْمِهِمْ [الأنعام ٦/ ١٣٨] وقوله : وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا ، وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا [الأنعام ٦/ ١٣٩] وقوله : ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ : آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ، أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ [الأنعام ٦/ ١٤٤].

و رد اللّه تعالى عليهم كل ما شرعوه من تحليل وتحريم بقوله : ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ [المائدة ٥/ ١٠٣].

و معنى الآية : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين كفار مكة : أخبروني عما أنزل اللّه من رزق حلال لكم للانتفاع به ، فجز أتموه أو بعضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام بزعمكم ، أخبروني : آللّه أذن لكم في التحليل والتحريم ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على اللّه ، في نسبة ذلك إليه.

والآية توبيخ على التبعيض ، وزجر بليغ على التهاون في الفتوى ، وباعثة على وجوب الاحتياط فيما يسأل عنه العالم من الأحكام ، وألا يقول أحد في شي ء :

جائز أو غير جائز ، إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليتق اللّه وليصمت.

وإلا فهو مفتر على اللّه « ١ » ، كما قال تعالى : وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ [النحل ١٦/ ١١٦].

وَما ظَنُّ الَّذِينَ ... المعنى : أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه ؟ وهو يوم الجزاء ، والإحسان والإساءة ، أيظنون أنهم يتركون بغير عقاب على جريمة افتراء الكذب على اللّه أو أيحسبون أن اللّه لا يؤاخذهم به ؟

وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ، أم أن لهم شفعاء يشفعون لهم ؟ كما قال تعالى :

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ [الشورى ٤٢/ ٢١].

(٢٠٤/١١)

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث أنعم عليهم بالعقل ، ورحمهم بالوحي ، وتعليم الحلال والحرام ، وتشريع الدين ، وفضّل عليهم بالرزق وجعل الأصل فيما رزقهم من المنافع الإباحة ، ولكنه جعل حق التحليل والتحريم إليه وحده ، كيلا يعبث به ، كما عبث به الأخبار والرهبان ، ولم يحرّم عليهم إلا ما فيه ضرر بهم في دنياهم أو دينهم.

وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ هذه النعمة وذلك الفضل كما قال تعالى :

وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ [سبأ ٣٤/ ١٣] ولا يتبعون ما هدوا إليه ، بل

---

(١) الكشاف : ٢/ ٧٨

ج ١١ ، ص : ٢٠٥

يحرمون ما أنعم اللّه به عليهم ، ويضيّقون على أنفسهم ، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما ، وقد وقع في هذا المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم. وربما وقع فيه بعض المسلمين ، فتغالوا في الزهد وتركوا طيبات الرزق ، أو أسرفوا في الأكل والشرب والزينة ، مخالفين نهج الإسلام في التوسط والاعتدال في الإنفاق ، كما قال تعالى : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً [الإسراء ١٧/ ٢٩] وقال سبحانه : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ ، لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها [الطلاق ٦٥/ ٧].

وأيدت السنة ذلك الاتجاه ،

روى البخاري والطبراني عن زهير بن أبي علقمة مرفوعا : « إذا آتاك اللّه مالا فلير عليك ، فإن اللّه يحب أن يرى أثره على عبده حسنا ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس » .

(٢٠٥/١١)

و أخرج أحمد عن أبي الأحوص عن أبيه قال : « أتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، وأنا رثّ الهيئة فقال : هل لك مال ؟ قلت : نعم ، قال : من أيّ المال ؟ قلت : من كل المال ، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال : إذا آتاك اللّه مالا فلير أثر نعمته عليك وكرامته » .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات ما يأتي :

١- الشيء الذي جعله أهل الجاهلية المشركون حراما : هو ما حكموا به من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، كما ذكر في سورة المائدة ، وهو أيضا المذكور في سورة الأنعام من جعل نصيب من الزروع والثمار والمواشي للّه تعالى يصرفونه إلى الضيفان والمساكين ، ولشركائهم نصيبا يصرفونه إلى سدنتها ، كما قال تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً [الأنعام ٦/ ١٣٦].

ج ١١ ، ص : ٢٠٦

٢- مصدر التشريع هو اللّه عز وجل ، وحق التحليل والتحريم للّه ، لا لأحد سواه من الخلق ولو كان نبيا أو رسولا ، فإن كانت الأحكام من اللّه تعالى فهو المراد بقوله : آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ وإن كانت ليست من اللّه ، فهي افتراء ، وهو المراد بقوله تعالى : أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ.

٣- توبيخ من تجرأ على تبعيض الأحكام الشرعية ، فجعل بعضها حلالا ، وبعضها حراما. وهذا أيضا تنديد بمن يتهاون في الفتوى ، ولا يحتاط في وصف الأحكام ، فيحلل أو يحرم برأيه دون تثبت ولا تيقن.

٤- وعيد من يفتري على اللّه الكذب ، فينسب الحكم إليه ، وهو منه براء.

٥- معاقبة المفترين يوم القيامة على جريمة افتراء الكذب على اللّه.

٦- اللّه تعالى صاحب الفضل العظيم على الناس بإعطاء العقل ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وجعل التحليل والتحريم إليه دون سواه ، وجعل الأصل في المنافع والأرزاق والأشياء والأعيان الإباحة.

٧- أكثر الكفار لا يشكرون اللّه على نعمه ، ولا على تأخير العذاب عنهم.

(٢٠٦/١١)

إحاطة علم اللّه تعالى بجميع شؤون العباد وأعمالهم وبكل الكائنات [سورة يونس (١٠) : آية ٦١]

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٦١)

ج ١١ ، ص : ٢٠٧

الإعراب :

وَما تَتْلُوا مِنْهُ الهاء تعود على « الشأن » على تقدير حذف المضاف ، وتقديره : وما تتلو من أجل الشأن من قرآن ، أي : يحدث لك شأن فتتلو القرآن من أجله. ومن : تبعيضية ، أو مزيدة لتأكيد النفي. وإضمار القرآن قبل التصريح به تفخيم له أو للّه عز وجل.

وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ النصب فيهما على أن لا نافية ، وأَصْغَرَ اسمها ، وفِي كِتابٍ : خبرها وهذا كلام مستقل بنفسه ، مقرر لما قبله. ويجوز الرفع على الابتداء ليكون كلاما برأسه ، أو على العطف على محل : مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ وتقديره : وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر. ويجوز الجر ، مراعاة للفظ مِثْقالِ لأن مِثْقالِ ذَرَّةٍ في اللفظ مجرور. وفِي كِتابٍ مُبِينٍ موضع الرفع لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو في كتاب مبين.

المفردات اللغوية :

(٢٠٧/١١)

وَ ما تَكُونُ يا محمد ، وما : نافية ، أي لست في شأن من عبادة أو غيرها إلا والربّ مطلع عليك. شَأْنٍ أمر مهم عظيم وَما تَتْلُوا مِنْهُ من الشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، بل هو معظم شأنه ، أو ما تتلو من التنزيل من قرآن لأن كل جزء منه قرآن ، والإضمار قبل الذكر تفخيم له. أو من اللّه عز وجل وَلا تَعْمَلُونَ أنتم جميعا أيها المؤمنون (الأمة والنبي) وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم شُهُوداً شاهدين رقباء نحصي عليكم إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ أي تندفعون فيه وتخوضون أو تأخذون في العمل وَما يَعْزُبُ وما يبعد عنه وما يغيب عن علمه مِثْقالِ وزن ذَرَّةٍ أصغر نملة أو هباء فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ أي في الوجود والإمكان إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ بيّن وهو اللوح المحفوظ.

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى أن القليل من الناس شاكرون نعم اللّه بدوام طاعته وترك معصيته ، ذكّرهم بأن علمه محيط بجميع شؤونهم وأعمالهم صغيرها وكبيرها ، وبكل الموجودات والكائنات كلها في السموات والأرض ، حتى يحملهم ذلك على الطاعة والشكر والعبادة وتجنب المعصية لأنه إذا كان الحق تعالى عالما بكل شيء ، سرّ الطائعون ، وهدّد المذنبون.

ج ١١ ، ص : ٢٠٨

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى نبيه صلى اللّه عليه وسلّم أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل

لحظة.

وما تكون أيها الرسول في أي أمر من أمورك الخاصة أو العامة ، وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن ينزل عليك ، لنشر الدعوة بين الناس إلا ونحن شهود عليكم.

(٢٠٨/١١)

و في التعبير بالشأن دليل على أن جميع أموره صلى اللّه عليه وسلّم كانت عظيمة ، حتى العادات لأنه قدوة حسنة للمؤمنين. وبعد أن خصه اللّه بأمرين وهما وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ ووَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ خاطب جميع الأمة التي هو رأسها.

وضمير مِنْهُ إما عائد إلى الشأن ، وإما إلى القرآن أي وما تتلو من القرآن من قرآن لأن القرآن اسم للمجموع واسم لكل جزء من أجزاء القرآن ، والإضمار قبل الذكر يدل على التعظيم ، وإما إلى اللّه أي وما تتلو من قرآن نازل من عند اللّه.

وَلا تَعْمَلُونَ .. أي ولا تعملون أيتها الأمة أي عمل صغير أو كبير ، خير أو شر ، وأي عمل كان ، إلا كنا عليكم شاهدين رقباء مطلعين ، نحصي عليكم ، وسنجازيكم عليه.

إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ أي تندفعون وتأخذون فيه ، أي في ذلك الشي ء.

وما يبعد عن اللّه ولا يغيب عن علمه أي شيء ، ولو كان مثقال ذرة أي وزن أصغر نملة أو هباء ، وبه يضرب المثل في الصغر والخفة ، ولا أصغر من الذرة أي أجزاء الذرة ، وهذا يشير إلى نظرية أو مبدأ تحطيم الذرة واكتشاف جزيئاتها ،

ج ١١ ، ص : ٢٠٩

و لا شيء أكبر من ذلك ، كالعرش الذي هو أعظم المخلوقات ، إلا وهو معلوم له ، ومحصى معروف في كتاب عظيم الشأن وهو اللوح المحفوظ الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها.

وفي هذا دلالة إلى سبق القرآن إلى الإشارة إلى أصغر الموجودات في الكون مما لا يدرك بالعين المجردة ، وإنما بالمكبّرات ، كأجزاء الذرة والجراثيم ، ويحتاج تكبيره إلى مئات أو آلاف المرات. كما أن هناك أشياء كبيرة جدا ، أكبر من السموات والأرض ، وما فيهما ، فإن بعض النجوم أكبر من الشمس والأرض والقمر بملايين المرات ، والعرش أعظم المخلوقات.

(٢٠٩/١١)

و نظير الآية قوله تعالى : وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ ، وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ [الأنعام ٦/ ٥٩] أي أنه تعالى يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات ، وكذلك الدواب السارحة ، وكل ما هو موجود في طبقات الأرض ، وأجواء السماء.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن كل من يتأمل في مدلول هذه الآية- ولا يتأمل فيها بحق إلا عالم مؤمن ، واسع العلم والأفق والنظر- فيجد سعة علم اللّه الشامل ، ورصده لكل شيء في الوجود ، وأعمال جميع الكائنات الحية ، والناس قاطبة في البر والبحر والجو ، يسيطر عليه الخوف والرهبة ، ويمتلئ قلبه اليقين بعظمة اللّه تعالى ، ويدرك أن جميع أعماله محصية عليه ، سواء أكانت صغيرة حقيرة أم كبيرة جليلة.

ولو قيل : إن شاشة كبيرة من التلفاز (الرائي) تصوّر جميع حركات الإنسان على أشرطة مسجلة في منزله وغيره ، وفي تنقلاته كلها ، وإن ما يرتسم على هذه الشاشة وما يسجل فيها من أصوات ، سيعرض على حاكم الدولة ،

ج ١١ ، ص : ٢١٠

و سيحاسبه على أموره كلها ، هل أدى واجبه أو قصر ، وهل أدى الأمانة والمسؤولية الملقاة على عاتقه أو خانها ، وهل أحسن أو أساء إلى نفسه أو غيرها من الأهل والجيران والمجتمع ، لو قيل ذلك ، وقدّر كل إنسان ما يرصد عليه في هذه الشاشة في يوم أو شهر أو سنة أو في العمر كله ، لفكّر تفكيرا دقيقا جدا ، والتزم درب الاستقامة ، حتى لا يعرّض نفسه إلى الإهانة.

(٢١٠/١١)

و هكذا- وللّه المثل الأعلى- رصد اللّه لحركاتنا ، وعلمه بجميع أعمالنا ، بل اطلاعه على ما تكنه نفوسنا ، يملأ النفس رهبة وخوفا ، فسبحانك يا رب لا يسعنا إلا سترك وعفوك ورحمتك ، وكفى بهذه الآية باعثا على الطاعة والإيمان ، ورادعا عن المعصية والكفر ، وكفى باللّه حسيبا ، وهو أسرع الحاسبين.

أولياء اللّه- أوصافهم وجزاؤهم [سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٢ الى ٦٤]

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)

الإعراب :

الَّذِينَ آمَنُوا فيه ثلاثة أوجه : النصب على أنه صفة للأولياء أو بدل منهم ، أو النصب على المدح أي

أخص أو أعني ، أو الرفع على الابتداء ، وخبره : هُمُ الْبُشْرى

.

ويجوز أن تكونْ بُشْرى

مبتدأ ، وهُمُ

خبره ، والجملة في موضع رفع : خبر الَّذِينَ.

ج ١١ ، ص : ٢١١

المفردات اللغوية :

أَوْلِياءَ اللَّهِ أي أحبابه وأصفياؤه والمقرّبون إليه ، الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ، هم المؤمنون المتقون كما فسرتهم الآية ، فكل من كان تقيا كان للّه وليا. وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ بفوات مأمول.

وَكانُوا يَتَّقُونَ اللّه بامتثال أمره ونهيهْ بُشْرى

الخبر السارّ ، وهي ما بشّر اللّه به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه صلى اللّه عليه وسلّم ، وما يريهم في الرؤيا الصالحة ، كما في حديث صححه الحاكم :

يراها الرجل أو ترى له ، وما يسنح لهم من المكاشفات ، وبشرى الملائكة عند النزع فِي الْآخِرَةِ الجنة والثواب وتلقي الملائكة إياهم مسلّمين مبشرين بالفوز والكرامة. تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

لا خلف لمواعيده لِكَ

المذكور.

المناسبة :

(٢١١/١١)

بعد أن أبان اللّه تعالى إحاطة علمه بأعمال العباد وبجميع الكائنات ليكون ذلك باعثا لهم على الشكر والعبادة ، ذكر حال الشاكرين المتقين الذين حسن جزاؤهم في الآخرة.

التفسير والبيان :

إن أولياء اللّه الذين يتولونه بالطاعة والعبادة ، ويتولاهم بالكرامة هم الذين آمنوا باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكانوا يتقون اللّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فكل من كان تقيا كان للّه وليا. وأولياء اللّه هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والتقوى. فلا خوف عليهم في الدنيا من مكروه يتوقع ، كما قال تعالى : فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران ٣/ ١٧٥] أي لا تخافوا أولياء الشيطان وأنصاره.

ولا خوف عليهم في الآخرة مما يخاف منه الكفار والعصاة من أهوال الموقف وعذاب القيامة ، كما

قال تعالى : لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ [الأنبياء ٢١/ ١٠٣].

ج ١١ ، ص : ٢١٢

و لا هم يحزنون في الدنيا من فوات مأمول ، ولحوق مكروه ، وذهاب محبوب لأنهم يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويبتغون رضوان اللّه ، كما لا يحزنون في الآخرة من مخاوف القيامة.

روى البزار عن ابن عباس قال : قال رجل : يا رسول اللّه ، من أولياء اللّه ؟

قال : « الذين إذا رؤوا ذكر اللّه » .

(٢١٢/١١)

و لهم البشرى في الحياة الدنيا بالنصر والاستخلاف في الأرض ما داموا على شرع اللّه ودينه ، يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كما قال تعالى : وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ ، وَآتَوُا الزَّكاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج ٢٢/ ٤١] وقال سبحانه : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ [النور ٢٤/ ٥٥].

ومن بشائر الدنيا لهم الرؤيا الصالحة ، روى أحمد والحاكم عن أبي الدرداء عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم في قوله : هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ

قال : « هي الرؤيا الصالحة ، يراها المسلم أو ترى له » .

ومن البشائر بشرى الملائكة لهم بحسن الحال وبالدرجة الرفيعة عند النزع :

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ : سَلامٌ عَلَيْكُمْ [النحل ١٦/ ٣٢].

ولهم البشرى في الحياة الآخرة بحسن الثواب والنعيم المقيم في الجنة ، كما قال تعالى :

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ [التوبة ٩/ ٢١].

وتلقي الملائكة لهم يبشرونهم بالجنة ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيها

ج ١١ ، ص : ٢١٣

(٢١٣/١١)

ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ. نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ
[فصلت ٤١/ ٣٠- ٣٢].

تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

أي لا تغيير لأقواله ، ولا إخلاف لمواعيده ، كقوله تعالى : ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ [ق ٥٠/ ٢٩] ومنها تبشير المؤمنين بالجنة.

كَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

أي ذلك المذكور وهو البشارة لهم في الدارين بالسعادة هو الفوز العظيم الساحق الذي لا فوز غيره لأنه ثمرة الإيمان والعمل الصالح.

فقه الحياة أو الأحكام :

وضعت هذه الآية الحد الفاصل أمام الأدعياء ، فأبانت أن أولياء اللّه هم المؤمنون الأتقياء ،

روى سعيد بن جبير أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم سئل : من أولياء اللّه ؟ فقال : « الذين يذكر اللّه برؤيتهم » .

و

قال عمر بن الخطاب- فيما رواه أبو داود- سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقول : « إن من عباد اللّه عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة ، لمكانهم من اللّه تعالى. قيل :

يا رسول اللّه ، خبّرنا من هم وما أعمالهم ، فلعلنا نحبّهم ؟ قال : هم قوم تحابّوا في اللّه على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها ، فو اللّه ، إن وجوههم لنور ، وإنهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ : أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ « ١ » .

وما أعظم وأجدى هذه الحوافر للعمل الصالح والاتصاف بصفة أولياء اللّه ، التي ذكرتها هذه الآية ، وهي المجموعة في قوله تعالى : هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ

و في تلك البشرى إيماء إلى الوعد بنصرهم على الأعداء.

---

(١) قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، لكن رواه أحمد عن أبي مالك الأشعري ، ورواه ابن جرير عن أبي هريرة.

و البشرى : هي الخبر السارّ أو البشارة السارّة بالخير والفضل والمكافأة ، وقد جمعت هذه البشرى بين سعادتي الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا : النصر والعز والثناء الحسن ، وفي الآخرة : الفوز والنجاة والظفر بالجنة ونعيمها الأبدي الخالد.

ولا خلف لوعد اللّه ، ولا تبديل لأخباره ، فلا ينسخها شيء ، ولا تكون إلا كما قال ، فما أجلّ ذلك ، وما أكرم اللّه المبشّر وأحبّه إلى عباده ، وما أسعد المبشّرين! جعلنا اللّه منهم.

العزة والملك للّه تعالى وفائدة جعله الليل والنهار [سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٥ الى ٦٧]

وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)

الإعراب :

وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ .. ما : إما بمعنى الذي ، وإما بمعنى النفي ، وإما بمعنى الاستفهام. فإن كانت بمعنى الذي فهي معطوفة بالنصب على مَنْ أي ، ألا إن للّه تعالى الأصنام الذين تدعونهم من دون اللّه شركاء ، فحذف العائد من الصلة. وشُرَكاءَ : حال من ذلك المحذوف.

و إن كانت نفيا وهو الظاهر كانت حرفا ، والتقدير : وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء إلا الظن. وانتصب شركاء ب يَدْعُونَ ، والعائد إلى الَّذِينَ الواو في يَدْعُونَ

و مفعول يَتَّبِعُ قام مقامه : إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، ولا ينتصب الشركاء ب يَتَّبِعُ لأنك تنفي عنهم ذلك ، واللّه تعالى قد أخبر به عنهم.

وإن كانت ما بمعنى الاستفهام ، والمراد به الإنكار والتوبيخ ، كانت اسما في موضع نصب ب يَتَّبِعُ ، وتقديره : وأي شيء يتبع الذين يدعون.

البلاغة :

وَالنَّهارَ مُبْصِراً استعارة ، شبه النهار بالإنسان لأن الناس يبصرون فيه ، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له أي للإبصار على طريق المبالغة ، كما قالوا : ليل أعمى وليلة عمياء ، إذا لم يبصر الناس فيها شيئا لشدة إظلامها.

المفردات اللغوية :

وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إشراكهم وتهديدهم وتكذيبهم وقولهم لك : لست مرسلا إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ استئناف بمعنى التعليل ، والْعِزَّةَ : الغلبة والقوة والمنعة هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم الْعَلِيمُ بعزماتهم وأفعالهم ، فيجازيهم عليها وينصرك عليهم.

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ من الملائكة والثقلين : الإنس والجن ، ملكا وخلقا وعبيدا. قال البيضاوي : وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيدا ، لا يصلح أحد منهم للربوبية ، فما لا يعقل منها- وهي الأصنام- أحق ألا يكون له ندا وشريكا ، فهو كالدليل على قوله. وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ يعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره أصناما شُرَكاءَ له على الحقيقة ، تعالى اللّه عن ذلك إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ أي ما يتبعون في ذلك يقينا ، وإنما يتبعون ظنهم أنها شركاء ، أو أنها آلهة تشفع لهم وَإِنْ هُمْ ما هم إِلَّا يَخْرُصُونَ أي يكذبون فيما ينسبون إلى اللّه ، فيستعمل الخرص بمعنى الكذب لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين ، والأصل في الخرص :

الحزر والتقدير ، ويجوز أن يراد : يحزرون ويقدرون أنها شركاء تقديرا باطلا.

(٢١٦/١١)

وَ النَّهارَ مُبْصِراً أي ذا إبصار ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز لأنه يبصر الناس فيه ، وإنما قال مبصرا ، ولم يقل : لتبصروا فيه ، تفرقة بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب لَآياتٍ دلالات على وحدانيته تعالى لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع تدبر واعتبار أو اتعاظ.

المناسبة :

بعد أن أورد اللّه تعالى أنواع شبهات المشركين في هذه السورة ، وأجاب

ج ١١ ، ص : ٢١٦

عنها ، ذكر أنهم عدلوا إلى طريق آخر ، وهو التهديد والتخويف بأنهم أصحاب السلطة والمال ، فأجابهم اللّه عن ذلك بقوله : وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ تبشيرا له بالنصر عليهم ، كما أنه تعالى مهد لذلك في بيان صفة الأولياء وبشارتهم في الآيات المتقدمة ، إيماء إلى الوعد بالنصر على الأعداء في مكة المغترين بقوتهم ، المكذبين بوعد اللّه.

التفسير والبيان :

ولا يحزنك أيها الرسول قول هؤلاء المشركين : لست مرسلا ، وغيره من إشراك وتكذيب وتهديد بأنهم أصحاب القوة والمال ، واستعن باللّه عليهم ، وتوكل عليه ، فإن العزة أي الغلبة والقوة والقهر للّه تعالى جميعا ، أي جميعها له ، وأما إثبات العزة لرسوله وللمؤمنين ففي آية أخرى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ [المنافقون ٦٣/ ٨] فالعزة كلها باللّه ، وإلى اللّه.
هو السميع لأقوال عباده ، ومنها أقوالهم المتضمنة تكذيب الحق وادعاء الشرك ، العليم بأحوالهم وبما يفعلون من إيذاء وكيد ، وسيجازيهم عليه ، فلا تأبه لقولهم ومكيدتهم ، وفي هذا تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلّم على ما يلقاه من أذى قومه ، وتبشير له بالنصر عليهم.

(٢١٧/١١)

ثم أقام الدليل على انفراده بالعزة كلها بقوله : أَلا إِنَّ لِلَّهِ ... أي انتبهوا أيها الناس ، إن للّه ملك السموات والأرض وما بينهما ، لا ملك لأحد فيهما سواه ، فكيف تصلح الأصنام آلهة ؟ وهي مملوكة ، والعبادة لا تكون إلا للمالك ، بل إنها لا تعقل ولا تملك شيئا ، لا ضرا ولا نفعا ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وأوهامهم.
وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ أي لا يتبع هؤلاء المشركون شركاء للّه في الحقيقة ، فليس للّه شريك أبدا ، وليس للشركاء المزعومين
ج ١١ ، ص : ٢١٧
قدرة على شيء من تدبير أمور العباد ودفع الضر عنهم ، بل إنهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، ولا يملكون جلب أي نفع لهم.
إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ .. أي ما يتبع المشركون في الحقيقة فيما يزعمون إلا الظن الفاسد والخطأ الفادح ، وما هم في هذا الظن إلا متخرصون كاذبون فيما ينسبون إلى اللّه ، أو حازرون مقدّرون أن تكون شركاء تقديرا باطلا.
فهذه الجمل الثلاث بعد بيان استقلال اللّه بملكية ما في السموات وما في الأرض مؤكدات متوالية ، تؤكد سلب صلاحية الملائكة والأصنام والمسيح وغيرهم عن اتخاذها آلهة ، ولا اتخاذها وسطاء أو شفعاء أو وسائل للّه ، كما هو شأن حكام الدنيا والملوك الظالمين الذين لا يصل إليهم إلا الوسطاء ، فجميع من في السموات والأرض مملوك للّه تعالى : إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً [مريم ١٩/ ٩٣] والمملوك لا شأن له أمام المالك.

(٢١٨/١١)

ثم استدل تعالى على كون العزة للّه جميعا وانعدام أي دور للشركاء مع اللّه في الخلق والتقدير والتصرف والتدبير بقوله : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ .. أي إنه تعالى قسم الزمان قسمين وهما الليل

والنهار ، وجعل الليل للاستراحة والسكن والاطمئنان فيه بعد عناء النهار والاشتغال فيه ، وجعل النهار مضيئا للمعاش والسعي والأسفار وقضاء المصالح ، كقوله تعالى : وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً ، وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً [النبأ ٧٨/ ٩- ١١] وقوله سبحانه :

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ [الإسراء ١٧/ ١٢].

ففي هذا تنبيه على كمال قدرته تعالى ، وعظيم نعمته المتوحد هو بهما ، ليدلّهم على تفرده باستحقاق العبادة ، وأن يوحدوه بها ، بأنه أظلم الليل للسكن فيه من متاعب المعاش في النهار ، وأضاء النهار لإبصار مطالب الأرزاق

ج ١١ ، ص : ٢١٨

و المكاسب. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ .. أي إن في تخليق الليل والنهار وتعاقبهما واختلافهما لدلائل واضحة دالة على أن الإله المعبود بحق هو خالق الليل والنهار ، لقوم يسمعون هذه الحجج والأدلة ، فيعتبرون بها ويتدبرون ما يسمعون ، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدّرها ومسيّرها.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- إن العزة للّه جميعا ، أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة للّه وحده ، فهو ناصر رسوله ومعينه ومانعة من أذى الأعداء.

و لا يعارض هذا قوله : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ فإن كل عزة باللّه ، فهي كلها للّه ، قال تعالى : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ [الصافات ٣٧/ ١٨٠].

٢- إن اللّه هو السميع لأقوال العباد وأصواتهم ، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

٣- إن اللّه مالك من في السموات ومن في الأرض ، أي يحكم فيهم بما يريد ويفعل فيهم ما يشاء ، فليس للمحكوم والمملوك نفاذ أو تدخل في أي حكم ، أو قدرة على التصرف في الأملاك ، وهذا دليل سلب الألوهية عما سوى اللّه.

٤- إن المشركين لا يتبعون في عبادتهم شركاء على الحقيقة ، بل يظنون ظنا باطلا أنها تشفع أو تنفع ، وما هم في ظنهم إلا يحدسون يخمنون ويكذبون فيما ينسبونه إلى اللّه.

٥- إن الواجب عبادة من يقدر على خلق الليل والنهار ، وإحكام تعاقبهما بنظام دقيق ، لا عبادة من لا يقدر على شي ء.

ج ١١ ، ص : ٢١٩

٦- إن للّه الحكمة البالغة في إيجاد الليل والنهار ، فاللّه جعل الليل لمنافع عديدة منها السكون (أي الهدوء عن الاضطراب) مع الأزواج والأولاد ، وزوال التعب والكلال الناجم عن الانهماك في الأعمال. وجعل النهار لفوائد جليلة منها إبصار موارد العيش ، والاهتداء به إلى الحوائج ، والأنس مع الناس.

٧- إن في خلق السموات والأرض وفي خلق الليل والنهار لعلامات ودلالات قاطعات واضحات على استحقاق الخالق للعبادة والتفرد بها وحده ، ولكن لا يتعظ بهذا إلا القوم الذين يسمعون سماع تدبر واعتبار واتعاظ ، وذلك هو جوهر فائدة خلق السمع والبصر.

الإشراك بنسبة الولد للّه تعالى [سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

الإعراب :

بِهذا متعلق ب سُلْطانٍ أو نعت له ، أو ب عِنْدَكُمْ ، كأنه قيل : إن عندكم في هذا سلطان.

مَتاعٌ فِي الدُّنْيا خبر مبتدأ محذوف ، أي افتراؤهم أو تقلبهم متاع في الدنيا ، أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم متاع أو تمتع في الدنيا.

ج ١١ ، ص : ٢٢٠

البلاغة :

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ استفهام يراد به التوبيخ والتقريع على اختلافهم وجهلهم.

المفردات اللغوية :

قالُوا أي اليهود والنصارى والمشركون الذين زعموا أن الملائكة بنات اللّه اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً أي تبناه ، والولد يستعمل مفردا وجمعا سُبْحانَهُ رد اللّه عليهم بقوله : سُبْحانَهُ أي تنزيها وتقديسا له عن التبني ، فإنه لا يصح إلا ممن يتصور له الولد ، والمراد التعجب من كلمتهم الحمقاء هُوَ الْغَنِيُّ عن كل أحد ، وإنما يطلب الولد من يحتاج إليه ، وهو علة لتنزيهه ، فإن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة.

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا ، وهو تقرير لغناه إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أي ما عندكم من حجة وبرهان على هذا الذي تقولونه أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ توبيخ وتقريع على قولهم.

يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بنسبة الولد وإضافة الشريك إليه لا يُفْلِحُونَ لا يسعدون ، فلا ينجون من النار ، ولا يفوزون بالجنة مَتاعٌ أي لهم متاع قليل فِي الدُّنْيا يتمتعون به طوال حياتهم ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد ثُمَّ نُذِيقُهُمُ بعد الموت بِما كانُوا يَكْفُرُونَ بسبب كفرهم.

المناسبة :

بعد أن حكى اللّه تعالى أفعال المشركين باتخاذ الأوثان والأصنام شفعاء ، وردّ عليهم ردا مقنعا ، ذكر هنا نوعا آخر من أباطيلهم وهو نسبة الولد إلى اللّه تعالى ، وهذا يشمل المشركين القائلين بأن الملائكة بنات اللّه ، واليهود القائلين بأن عزيزا ابن اللّه ، والنصارى القائلين بأن المسيح عيسى ابن اللّه.

التفسير والبيان :

موضوع الآيات : الإنكار على المشركين واليهود والنصارى الذي ادعوا أن اللّه تعالى ولدا.

ج ١١ ، ص : ٢٢١

و المعنى : وقال المشركون : الملائكة بنات اللّه ، وقالت اليهود : عزير ابن اللّه ، وقالت النصارى : المسيح ابن اللّه.

سُبْحانَهُ تنزه وتقدس اللّه عن التبني ، والمراد التعجب من كلامهم الباطل ، فإن التبني لا يصح إلا ممن يتصور له الولد ، واللّه لا والد له ولا ولد.

هُوَ الْغَنِيُّ علة لتنزيهه ، أي أن اللّه هو الغني بذاته عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، ولا حاجة له للولد ، وإن اتخاذ الولد ناشئ عن الحاجة.

لَهُ ما فِي السَّماواتِ .. فكيف يكون له ولد مما خلق ؟ وكل شيء مملوك له وعبد له ، وهو خالق السموات والأرضين وكل ما فيهما ، لا يشبهه أحد من خلقه ، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الكل محتاج إليه ، وكل ما في السموات وما في الأرض له ملكا وخلقا وعبيدا ، وتصريفا ، لا يشاركه في ذلك أحد ، فكيف بالموجد الخالق واهب الحياة وحوائجها يتخذ ولدا موجودا مخلوقا موهوبا له ، محتاجا إليه في كل شيء مادي كالرزق ومعنوي كالإعانة والنصرة والإعزاز ؟ !.

إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أي ليس عندكم دليل على ادعائكم وما تقولونه من الكذب والبهتان.

أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أي أتقولون على اللّه قولا لا حقيقة له ، وتنسبون إليه تعالى مالا يصح عقلا وواقعا نسبته إليه. وهذا استفهام يراد به التوبيخ والتقريع ، أو الإنكار والوعيد الأكيد ، والتهديد

الشديد. قال البيضاوي : وفي هذا دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد لا بد لها من دليل قاطع ، وأن التقليد فيها غير سائغ.

ونظير الآية قوله تعالى : وَقالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا

ج ١١ ، ص : ٢٢٢

لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً. لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً

[مريم ١٩/ ٨٨- ٩٥].

ثم توعد اللّه تعالى الكاذبين عليه المفترين ، ممن زعم أن له ولدا بأنهم لا يفلحون ، مما يدل على أن هذا المذهب افتراء على اللّه ونسبة لما لا يليق به إليه : قُلْ : إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ... أي قل لهم أيها الرسول : إن الذين يختلقون على اللّه الكذب بنسبة الشريك إليه ، أو باتخاذ الولد ، لا يفلحون ولا يفوزون أبدا ، في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فيستدرجهم ويمتعهم قليلا ، وأما في الآخرة فيضطرهم إلى عذاب غليظ شديد ، كما قال تعالى :

مَتاعٌ فِي الدُّنْيا أي لهم تمتع في الدنيا قليل لمدة قصيرة ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثم بعد الموت يرجعون إلى ربهم بالبعث يوم القيامة ، وما فيه من أهوال الحشر والحساب ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ أي ثم يلقون الشقاء المؤبد ويعذبون في نار جهنم العذاب الموجع المؤلم الغليظ أي الشديد ، بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على اللّه ، فيما ادعوه من الإفك والزور.

وفي هذا دلالة واضحة على الخسارة المحققة للكافرين ، فإن ما يتوهمون أنه نجاح في الدنيا بالحصول على المنافع المادية والمعنوية ، لا قيمة له أصلا في مقابلة ما فاتهم في الآخرة من ثواب عظيم ونعيم مقيم في جنان الخلد ، فإن الدنيا لا تساوي عند اللّه جناح بعوضة.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات أمرين : الأول- بطلان القول بنسبة الولد للّه تعالى بالأدلة القاهرة ، وبانعدام الدليل على صحة هذا القول. والثاني- ظهور أن هذا المذهب افتراء على اللّه ونسبة لما لا يليق به إليه.

ج ١١ ، ص : ٢٢٣

أما أدلة بطلان القول بنسبة الولد للّه تعالى فهي كما ذكرت الآية الأولى خمسة :

١- سبحانه : وهو تنزيه وتقديس اللّه تعالى عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد ، وتعجب شديد من هذه الكلمة الحمقاء لأنه تعالى ليس محتاجا إلى غيره ، وإنما هو مصدر قضاء الحوائج.

٢- هو الغني : اللّه هو الغني غنى مطلقا عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه.

وكل من كان غنيا امتنع أن يكون له أب وأم ، ومن تقدس عن الوالدين تقدس عن الأولاد. وامتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ، والولد عبارة عن انفصال جزء من أجزاء الإنسان. وامتنع أن يكون موصوفا بالشهوة واللذة ، فلا صاحبة له ولا ولد. وامتنع من اتخاذ الولد ، لعدم احتياجه إلى إعانته على المصالح الحاصلة والمتوقعة.

وكل من كان غنيا كان قديما أزليا باقيا سرمديا ، فلا يطرأ عليه الانقراض والانقضاء ، والولد إنما يحصل للشيء الذي ينقضي وينقرض.

وكل من كان غنيا مطلقا كان واجب الوجود لذاته ، فلو كان له ولد ، لكان ولده مساويا له ، أي يصبح واجب الوجود أيضا ، وإذا اتصف بهذه الصفة امتنع تولده من غيره ، وإذا لم يكن متولدا من غيره لم يكن ولدا.

فثبت أن كونه تعالى غنيا من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا ولد له « ١ » .

٣- له ما في السموات والأرض ملكا وخلقا وعبيدا ، فكيف يكون له ولد مما خلق ، وكل شيء مملوك له ، عبد له ؟ !.

---

(١) تفسير الرازي : ١٧/ ١٣٢ وما بعدها.

ج ١١ ، ص : ٢٢٤

٤- إن عندكم من سلطان بهذا ، أي ليس عندكم من حجة ولا دليل على صحة قولكم ، والدعوى العارية من الدليل باطلة بطلانا مطلقا. « ١ »

٥- أتقولون على اللّه مالا تعلمون ؟ من إثبات الولد له ، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة ، واللّه تعالى لا يجانس شيئا ، ولا يشابه شيئا. وهذا بالإضافة إلى كونه تأكيدا لما سبق إنكار شديد ووعيد أكيد وتقريع وتوبيخ على من تجرأ بنسبة الولد إلى اللّه تعالى.

و أما ظهور كون هذا المذهب افتراء وكذبا على اللّه ، فواضح مترتب على بطلان الادعاء بثبوت الولد للّه تعالى.

وقد دل قوله تعالى : أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ على أن إثبات العقيدة لا سيما فيما يتعلق بإثبات اللّه الصانع يتطلب دليلا قطعيا يقينا ، ولا يقبل فيه التقليد والوراثة ومحاكاة عقائد المسلمين المؤمنين بحق. ودل قوله لا يُفْلِحُونَ على إفلاس الكافر وخسارته المحققة يوم القيامة وعدم نجاته من العذاب. كذلك دل قوله تعالى : مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ... الآية على أن التمتع في الدنيا قليل وحقير جدا بالنسبة لنعيم الآخرة ، وأن مرجع جميع الخلائق إلى اللّه تعالى ، وأن الكفار والمشركين معذبون عذابا شديدا بسبب كفرهم.

---

(١) تفسير الرازي : ١٧/ ١٣٢ وما بعدها.

ج ١١ ، ص : ٢٢٥

قصة نوح عليه السّلام مع قومه [سورة يونس (١٠) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (٧(١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧(٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)

الإعراب :

إِذْ قالَ بدل مما قبله.

وَ شُرَكاءَكُمْ منصوب لوجهين : أحدهما- لأنه مفعول معه ، أي ، فأجمعوا أمركم مع شركائكم. والثاني- بتقدير فعل ، أي فأجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم. وقيل : التقدير : وادعوا شركاءكم. والنصب على تقدير الفعل مثل قول الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوما وزجّجن الحواجب والعيونا

و تقديره : وكحلن العيون لأن العيون لا تزجج.

وقرئ : وشركاؤكم بالرفع عطفا على ضمير فَأَجْمِعُوا المرفوع ، لوجود الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهو أَمْرَكُمْ لأن الفصل يتنزل منزلة التوكيد ، كقوله تعالى :

مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ [يونس ١٠/ ٢٨].

ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً اسم يكن وخبرها.

البلاغة :

فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ تقديم متعلّق تَوَكَّلْتُ لإفادة الحصر ، أي توكلت على اللّه لا على غيره.

ج ١١ ، ص : ٢٢٦

لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً استعارة ، عبر عن الالتباس والستر بالغمة ، أي لا يكن أمركم مبهما ، فيكون كالغمة.

المفردات اللغوية :

وَاتْلُ يا محمد عَلَيْهِمْ أي على كفار مكة نَبَأَ نُوحٍ خبره مع قومه كَبُرَ عَلَيْكُمْ عظم وشق عليكم مَقامِي قيامي أو إقامتي ومكثي فيكم. وَتَذْكِيرِي وعظي إياكم بآيات اللّه تَوَكَّلْتُ وثقت به فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ فاعزموا عليه عزما لا تردد فيه أي اعزموا على أمر تفعلونه بي وَشُرَكاءَكُمْ أي مع شركائكم ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ في قصدي عَلَيْكُمْ غُمَّةً مستورا خفيا ، بل أظهروه وجاهروني به ، والغمة : الستر واللبس ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ أدّوا إلى ذلك الأمر الذي تريدون بي ، ونفذوه بي وَلا تُنْظِرُونِ تمهلوني ولا تؤخروني ، فإني لست مباليا بكم.

(٢٢٧/١١)

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أعرضتم عن تذكيري فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أي فما طلبت منكم ثوابا عليه يوجب تولّيكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله إِنْ أَجْرِيَ أي ما ثوابي على الدعوة والتذكير إِلَّا عَلَى اللَّهِ أي فهو يثيبني به ، سواء آمنتم أو توليتم مِنَ الْمُسْلِمِينَ المنقادين لحكمه ، لا أخالف أمره ، ولا أرجو غيره.

فَكَذَّبُوهُ فأصروا على تكذيبه بعد ما ألزمهم الحجة ، وبيّن أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب فَنَجَّيْناهُ من الغرق وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ السفينة ، وكانوا ثمانين.

وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ أي وجعلنا من معه يخلفون غيرهم في عمارة الأرض وسكناها ، وهي جمع خليفة وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا بالطوفان فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ من إهلاكهم ، فكذلك نفعل بمن كذّب. وهذا تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذّب الرسول صلى اللّه عليه وسلّم وتسلية له.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى الأدلة الدالة على الوحدانية والرسالة والبعث والجزاء يوم القيامة ، وفنّد شبهات المشركين وكشف عنادهم لرسوله صلى اللّه عليه وسلّم وتكذيبهم له ، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء ، تسلية للرسول صلى اللّه عليه وسلّم ليتأسى بهم ، فيهون عليه ما يتعرض له من الشدائد والمكائد ، وتذكيرا للمشركين بمن سبقهم في مثل فعلهم ، وكيف كانت عاقبة المكذبين للرسل عليهم السلام.

ج ١١ ، ص : ٢٢٧

و ذكر تعالى هنا ثلاث قصص : قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى وهارون مع فرعون ، وقصة يونس مع

قومه ، وفي كل قصة عبرة وعظة. ولقد ذكرت أضواء من التاريخ على القصتين الأوليين ، وسأذكر ما يناسب قصة يونس عليه السلام.

التفسير والبيان :

(٢٢٨/١١)

و أخبر أيها الرسول واقصص على كفار مكة الذين يخالفونك ويكذبونك خبر نوح مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم اللّه ، ودمر هم بالغرق أجمعين عن آخرهم ، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك.

اذكر لهم حين قال نوح لقومه : يا قوم إن كان قد شق عليكم وعظم قيامي معكم للدعوة إلى عبادة ربكم ، وتذكيري ووعظي إياكم بآيات اللّه أي بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وعبادته ، فإني توكلت على اللّه وحده ووثقت به ، فلا أبالي ولا أكف عن دعوتي ورسالتي ، سواء عظم عليكم أو لا.

فأجمعوا أمركم ، أي اعزموا على ما تريدون من أمر تفعلونه بي ، أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم من دون اللّه من صنم ووثن.

ولا تجعلوا أمركم الذي تعتزمونه خفيا ملتبسا عليكم ، بل أظهروه لي ، وتبصروا فيه ، وافصلوا حالكم معي.

فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلى ذلك الأمر ونفّذوه بالفعل ، ولا تؤخروني ساعة واحدة عن تنفيذ هذا القضاء ، فمهما قدرتم فافعلوا ، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شي ء.

وهذا الموقف الواثق باللّه وبنصره لنوح أبي البشر الثاني مشابه لموقف هود عليه السّلام إذ قال لقومه : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ، ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ الآية [هود ١١/ ٥٤- ٥٦].

ج ١١ ، ص : ٢٢٨

و هكذا يتبين الفرق الجلي بين موقف المؤمن الراسخ الإيمان الذي لا يعرف التردد ، المعتصم باللّه وبوعده وثقته به ، وبين موقف الكافر الضعيف المتردد الذي لا ملاذ له ، إلا بالقوة الوهمية الخاثرة بل المنعدمة للشركاء والآلهة المزعومة.

(٢٢٩/١١)

فإن توليتم أي أعرضتم عن تذكيري وكذبتم ولم تؤمنوا برسالتي ولم تطيعوني فيما أدعوكم إليه من الدين الحق ، فإني لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا : أجرا أو جزاء ، إن ثواب عملي وجزائي على اللّه ربي الذي أرسلني إليكم ، وأمرني أن أكون من المسلمين ، أي المنقادين الممتثلين لما أمرت به من الاستسلام لكل ما يصل إلى من أجل هذه الدعوة ، والإسلام والخضوع للّه عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم « ١ » ، وإن تنوعت شرائعهم التفصيلية كما قال تعالى : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً [المائدة ٥/ ٤٨] فأصولهم واحدة ، ومصدرهم واحد ،

قال النبي صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد :

---

(١) فهذا نوح يقول : وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ. وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ، يا بَنِيَّ ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [البقرة ٢/ ١٣١- ١٣٢]. وقال يوسف : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ ، فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [يوسف ١٢/ ١٠١]. وقال موسى : يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ، فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ [يونس ١٠/ ٨٤] وقال السحرة : رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً ، وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ [الأعراف ٧/ ١٢٦] وقالت بلقيس : بِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ ، لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

]

النمل ٢٧/ ٤٤]. وقال تعالى واصفا رسالة الأنبياء : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا [المائدة ٥/ ٤٤] وقال تعالى عن الحوار بين :

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ، قالُوا : آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ [المائدة ٥/ ١١١] وقال الرسول وسيد البشر صلى اللّه عليه وسلّم امتثالا لقول اللّه : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [الأنعام ٦/ ١٦٣] أي من هذه الأمة.

ج ١١ ، ص : ٢٢٩

« الأنبياء أولاد علّات »

أي أننا أولاد من أمهات شتى والأب واحد ، وديننا وإيماننا واحد : وهو عبادة اللّه وحده لا شريك له ،

وإن تنوعت شرائعنا.

فكذبوه ، أي فأصروا على تكذيبه ، فنجيناه هو ومن آمن معه في الفلك أي السفينة التي صنعها بأمرنا. وجعلناهم خلائف ، أي وجعلنا الناجين مع نوح في السفينة خلائف أولئك الهالكين ، في عمارة الأرض وسكناها من بعدهم ، وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا نوحا ، فانظر أيها الرسول كيف أنجينا المؤمنين ، وأهلكنا المكذبين المنذرين ، الذين أنذرهم رسولهم بالعذاب قبل وقوعه ، فلم يرتدعوا ، وأصروا على تكذيبه ، وهذه عاقبة كل المصرّين على تكذيب الأنبياء ، وعاقبة المؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام :

١- العبرة من قصة نوح : ذكر اللّه تعالى في هذه السورة قصة نوح عليه السلام لفائدتين : الأولى- أن تصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار ، وهجر الجحود بالتوحيد والإيمان بالنبوة لأن اللّه عجل هلاك قوم نوح بالغرق لما أصروا على الكفر والجحود.

(١١/٢٣١)

و الثانية- أن الإنذار بالعذاب لا بد أن يتحقق ، فقد كان كفار مكة يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول صلى اللّه عليه وسلّم لهم ، ويقولون له : كذبت ، فإنه ما جاءنا هذا العذاب ، فذكر اللّه تعالى قصة نوح ليبين لهم أن ما أنذر به نوح قومه وقع في نهاية الأمر ، كما أخبر ، فكذلك يقع كل عذاب أنذركم به.

٢- النظر في الموقف والمقارنة بينها : موقف نوح وموقف قومه ، فموقف نوح عليه السّلام كان موقف المؤمن الجريء الجسور الذي لا يخشى الصعاب ، ولا يعرف التردد ، ولا يهاب الموت في سبيل دعوته ، ويتحدى الجمع الغفير فيما

ج ١١ ، ص : ٢٣٠

يريدون أن يعملوه معه. وموقف قومه كان موقف الهيّاب الضعيف المتخاذل المتردد الذي لم يستطع اتخاذ قرار حاسم في شأن نوح ، الذي كانت هيبة الإيمان تحميه وتعصمه من مكائدهم وشرورهم.

٣- كلمات نوح مع أولئك الكفار : كانت كلمات نوح مكونة من جملة شرط وجزاء. أما الشرط ففيه أمران : الأول- إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي أي ثقل وشق بسبب مكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وبسبب ما ألفه الكفار من مذاهب فاسدة وعقائد ومناهج باطلة ، والغالب أن من ألف طريقة في الدين يثقل عليه تغييرها.

والأمر الثاني- تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ لأن من شغف بلذات الدنيا كان شديد النفرة من الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات.

وأما الجزاء على الشرط ففيه أمور خمسة :

الأول- فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ أي إن شدة بغضكم لي التي تحملكم على إيذائي تجعلني لا أقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على اللّه ، وهذا منه توكل على اللّه في دفع شر هذه الساعة ، إن كان متوكلا أبدا على اللّه تعالى.

(١١/٢٣٢)

الثاني- فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ أي اعزموا على الأمر الذي تريدون إيقاعه بي ، وابذلوا جهودكم في الكيد لي والمكر بي ، مع شركائكم الأوثان التي تسمونها آلهة ، وفي هذا تحد شديد لمخططاتهم ومكائدهم.

الثالث- ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً أي ليكن أمركم ظاهرا منكشفا تتمكنون فيه مما شئتم ، وفي هذا استعداد لمواجهة قراراتهم بصراحة وجرأة ، وصرامة وصبر.

الرابع- ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ أي امضوا إلى بمكروهكم وما توعدونني به ، وهذا

ج ١١ ، ص : ٢٣١

دليل الإباء وعدم المبالاة بما ينفذون من قرار.

الخامس- وَلا تُنْظِرُونِ أي لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه ، وهذا غاية الشجاعة والبأس ، فإنه لا يحتاج إلى إنذار وإمهال. وهو أيضا من دلائل النبوات ، فإنه أعلمهم أنهم لا يصلون إليه بسوء لأن اللّه عاصم أنبياءه.

٤- النبي في دعوته لا يطلب أجرا من أحد على نصحه : فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ قال المفسرون : هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم إلى دين اللّه تعالى. ومتى كان الإنسان خاليا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرا في القلب. وهكذا كانت سيرة جميع الأنبياء.

٥- الثبات على المبدأ : إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فيه قولان :

الأول- أنكم سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوا ، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام.

والثاني- أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلى لأجل هذه الدعوة. قال الرازي : وهذا الوجه أليق بهذا الموضع ، لانسجامه مع قوله السابق : ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ.

٦- عاقبة القصة بين نوح وقومه : ترتب على هذا النقاش الحاد بين نوح وقومه الكفار نتائج حاسمة ومهمة جدا.

(١١/٢٣٣)

أما بالنسبة لنوح وأصحابه فأمران : أنه تعالى نجاهم من الكفار ، وأنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق.

وأما بالنسبة للكفار : فهو أنه تعالى أغرقهم بالطوفان وأهلكهم. وهذه القصة زحر للمخالفين من حيث يخافون آن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح ،

ج ١١ ، ص : ٢٣٢

و دعوة المؤمنين للثبات على الإيمان.

وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا عرضت على سبيل الحكاية تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ. وتفاصيل هذه القصة ذكرت في سور أخرى.

عادة الأمم في تكذيب الأنبياء [سورة يونس (١٠) : آية ٧٤]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

الإعراب :

كَذَّبُوا بِهِ الضمير يعود على قوم نوح ، أي فما كان قوم الأنبياء الذين أرسلوا بعد نوح ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح ، بل كذبوا كتكذيب قوم نوح.

المفردات اللغوية :

مِنْ بَعْدِهِ أي بعد نوح. رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ كإبراهيم وهود وصالح فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ المعجزات المثبتة لدعواهم مِنْ قَبْلُ أي قبل بعث الرسل إليهم ، أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل.

ويجوز أن يكون ذلك حكاية لما حدث في عهد نوح عليه السّلام. كَذلِكَ نَطْبَعُ نختم والمراد أن القلوب تصبح غير قابلة لغير ما رسخ فيها عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ أي كما طبعنا على قلوب أولئك نطبع على قلوب المعتدين ، أي المتجاوزين حدود الحق والعدل فلا تقبل الإيمان ، بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف. قال البيضاوي : وهذا دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة اللّه تعالى وكسب العبد.

ج ١١ ، ص : ٢٣٣

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى قصة نوح مع قومه والعبرة منها ، ذكر عبرة أخرى من تاريخ الأقوام مع أنبيائهم ، فإنهم لما كذبوا عوقبوا ، وكما طبع اللّه على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، كذلك يطبع اللّه على قلوب أمثالهم. فما على أهل مكة وغيرهم إلا الاتعاظ بذلك ، وتجنب أسباب تلك العاقبة ، من الكفر والتكذيب ، وإلا أدى بهم الكفر إلى الحيلولة عن الإيمان وما يتبعه من السعادة.

التفسير والبيان :

ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم مثل هود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب عليهم السلام ، بالبينات ، أي بالمعجزات القاهرة والأدلة والبراهين العقلية والحسية على صدق ما جاءوهم به.

فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أي فما كانت تلك الأقوام لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم ، وكما كذب به المتقدمون عنهم من قبل ممن كانوا أمثالهم في سبب الكفر.

والمراد بقوله مِنْ قَبْلُ ما كان إيمانهم إلا ممتنعا كالمحال لتصميمهم على الكفر قبل بعثة الرسل ، وتكذيبهم كتكذيب قوم نوح ، وكأنه لم يبعث إليهم أحد. وعبارة المفسرين في تفسير القبلية متقاربة ، فقال بعضهم : قبل بعثة الرسل ، وقال آخرون : بما كذب به قوم نوح من قبل.

كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ أي كما نختم على قلوب هؤلاء فلا يؤمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا نختم على قلوب من أشبههم في العناد ممن بعدهم من المعتدين كقومك ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

ج ١١ ، ص : ٢٣٤

قال الزمخشري : والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم لأن الخذلان يتبعه ، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

وبعبارة أخرى : المراد بالطبع عدم قبول القلوب شيئا من نور الهداية والمعرفة لأنهم تجاوزوا كل حد في الكفر والتكذيب ، فلا يؤمنوا.

(٢٣٥/١١)

و هذا إنذار شديد لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإنه إذا كان قد أصاب المكذبين السابقين العذاب والنكال ، فما ظن هؤلاء وقد فعلوا مثلهم وأكبر مما فعله من تقدمهم ؟ !.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يأتي :

١- تكذيب الأنبياء عادة شائعة بين الناس ، لتأثرهم بما كانوا عليه قبل بعثة الرسل من تصميم على الكفر ورسوخ فيه.

٢- الطبع أو الختم على القلوب معناه التعبير عن العناد واللجاج والخذلان.
٣- لقد أهلك اللّه الأمم المكذبة للرسل وأنجى من آمن منهم.
٤- احتج أهل السنة بالآية على أن اللّه تعالى قد يمنع المكلف عن الإيمان ، بسبب عناده وتصميمه على الكفر وتكذيبه الرسل.
٥- في الآية دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة اللّه تعالى وكسب العبد ، أي أن اللّه يخلق للإنسان القدرة ، والعبد يستخدمها فيما يختاره من خير أو شر.

ج ١١ ، ص : ٢٣٥

قصة موسى عليه السّلام مع فرعون

- ١- الحوار بين موسى وفرعون [سورة يونس (١٠) : الآيات ٧٥ الى ٧٨]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

المفردات اللغوية :

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد هؤلاء الرّسل. وَمَلَائِهِ قومه أو أشراف القوم.

بِآياتِنا الآيات التّسع. فَاسْتَكْبَرُوا عن الإيمان بها. لَسِحْرٌ مُبِينٌ بيّن ظاهر.

(٢٣٦/١١)

أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ إنه لسّحر ، فحذف المحكي بالقول لدلالة ما قبله عليه.

أَ سِحْرٌ هذا هو استئناف بإنكار ما قالوه. وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ من تمام كلام موسى ، للدّلالة على أنه ليس بسحر ، فإنه لو كان سحرا لاضمحلّ ، ولم يبطل سحر السّحرة ، فهذا دليل من موسى عليه السّلام على أنه ليس بسحر ، وإنما السّحر تخييل وتمويه.

لِتَلْفِتَنا لتردّنا وتصرفنا عنه ، واللفت والفتل مترادفان. وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ الملك فيها ، سمي بها لاتّصاف الملوك بالكبر والتّكبر على الناس باستتباعهم. وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ بمصدقين فيما جئتنا به.

المناسبة :

هذه هي القصّة الثانية المذكورة في سورة يونس ، وهي قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه ، وقد تكرر ذكرها في القرآن للدّلالة على أنّ قوة الحقّ وصوت

ج ١١ ، ص : ٢٣٦ النبّوة يعلوان الملك والحكم والسّلطان ، ويقوضان العروش ، ويزيلان دعائم الباطل. وهذا هو الفصل الأول من القصة وهو الحوار بين موسى وفرعون.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الأول من قصة موسى عليه السّلام.

والمعنى : ثم بعثنا من بعد تلك الرّسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون ملك مصر وأشراف قومه ، أما بقية الناس فهم تبع لهم في الكفر والإيمان ، ولذا لم يذكروا.

بعثناهما بآياتنا المذكورة في سورة الأعراف « ١ » وغيرها ، فاستكبروا عن اتّباع الحقّ والانقياد له ، وعن الإيمان بموسى وهارون ، وكانوا قوما مجرمين أي معتادي الاجرام كفارا ذوي آثام عظام ، راسخين في الجريمة والظّلم والإفساد في الأرض.

وأعظم الكبر : أن يتهاون الناس برسالة ربّهم بعد قيام الأدلّة على صحّتها.

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ .. أي فلما جاءهم موسى بالأدلّة الدّالة على الربوبية والألوهية الحقّة ، قالوا عنادا وعتوا وحبّا للشّهوات : إن هذا لسحر واضح ، قالوا مقسمين على قولهم مؤكدين له بإنّ ، واسم الإشارة ، واللام في الخبر ، والجملة الاسمية. وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ، كما قال تعالى : وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا [النمل ٢٧/ ١٤].

قالَ مُوسى : أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ .. قال لهم موسى منكرا عليهم وموبّخا لهم : أتقولون للحقّ الواضح البعيد كلّ البعد عن السّحر الباطل : إنه سحر ،

---

(١) وهي السّنون (أعوام الجدب والقحط) ونقص الأموال ، ونقص الأنفس ، ونقص الثّمرات ، والطّوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدّم ، قال تعالى : فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ ، وَالْجَرادَ ، وَالْقُمَّلَ ، وَالضَّفادِعَ ، وَالدَّمَ ، آياتٍ مُفَصَّلاتٍ .. [الأعراف ٧/ ١٣٣]. [.....]

ج ١١ ، ص : ٢٣٧

عجبا لكم أسحر هذا ؟ ! والحال أنكم تعرفون أن السحر تخييل وتمويه ، ولو كان هذا سحرا لاضمحلّ ، ولم يبطل سحر السّحرة ، ولا يفوز السّاحرون في ساحات الحقائق ، وقضايا الدّين ، وأصول الحياة ، وإقامة الممالك لأن السّحر شعوذة وخفّة يد لا تغير من الحقيقة شيئا. وقولهم : هذا سحر محذوف ، والاستفهام بقوله : أتقولون ؟ إنكار ، ثم استأنف إنكارا آخر من قبله ، فقال : أَسِحْرٌ هذا ؟ ! وحذف قولهم الأول اكتفاء بالثاني من قولهم ، منكرا على فرعون وملئه.

فأجابوه إجابة الضعيف المفلس الحجة الذي لا يجد متمسكا له إلا التقليد للآباء والأجداد ووراثة العادات والطقوس الدّينية ، فقالوا : قالُوا : أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا .. أي أجئتنا يا موسى لتصرفنا عن دين آبائنا وأجدادنا ، ولتكون لكما أي لك ولهارون أخيك الكبرياء في الأرض ، أي الرّياسة الدّينية والدّنيوية أو العظمة والملك والسّلطان ، وما نحن لكما بمصدقين لكما فيما تدعيانه من دين جديد يغاير دين الأسلاف والآباء ، وهذا سبب تكذيب الرّسل دائما.

وقد خاطبوا موسى أولا لأنه كان هو الدّاعي لهم للإيمان بما جاء به ، والإقرار بتوحيد الإله ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان. ثم أشركوا معه أخاه في الإفادة من ثمرات الدّعوة وهي النّفوذ والسّلطة والعظمة.

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يختلف شأن فرعون وقومه عمن قبله من الأمم ، في تكذيب الأنبياء ، وعناد الدّعاة إلى الإيمان باللّه ، والتّخلص من عبادة الأصنام.

وتمثل هذه القصة شدّة العناد بسبب عظمة السلطان والملك والجاه ، أمام شخصين ضعيفين موسى وهارون ، وكان موسى قد تربى في بيت فرعون.

ولكن الضعف الشّخصي يزول أمام قوة الاعتزاز بالنّبوة والإيمان ، فبالرغم

من هذا الضعف بادر موسى وهارون إلى دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان باللّه تعالى ، والتّرفع عن التّأله وتعظيم ما دون اللّه.

وأيد اللّه موسى بآيات تسع سلّطها على أهل مصر ، كالقحط المتوالي ، ونقص الأنفس والأموال والثّمرات بسبب الأمراض والجوع ، والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم ، ومع ذلك لم يؤمن فرعون وقومه ، ووصفوا الآيات والمعجزات بالسّحر.

فعجب موسى منهم ووبّخهم منكرا عليهم وصف المعجزة بالسّحر ، وناقشهم ببيان الفرق الواضح بين المعجزة والسّحر ، فلم يجدوا جوابا مقنعا إلا الارتماء في أحضان التّقليد واتّباع دين الآباء والأجداد ، والتّرفع عن الإيمان ، واتّهموا موسى وأخاه بأنهما يستهدفان من وراء دعوتهما الوصول إلى السلطة والملك في أرض مصر ، ولم يدروا بأن الإيمان باللّه وبالأنبياء أسمى وأجل وأقدس من النزعات الشخصية الشهوانية ، وحبّ السّلطة والتّسلط ، فهذه مظاهر فانية ، وأثر الإيمان خالد باق.

والخلاصة :

إن قوم فرعون عللوا عدم قبول دعوة موسى بأمرين :

الأول- التّمسك بالتّقليد : وهو معنى قوله تعالى : أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا فإنهم تمسكوا بالتّقليد ، ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الإصرار.

والثاني- الاتّهام بالحرص على طلب الدّنيا والوصول إلى الرّياسة : وهو معنى قوله تعالى : وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ أي يكون لكما الملك والعزّ في أرض مصر ، والخطاب هنا لموسى وهارون ، ولما ذكروا هذين السّببين صرحوا بالحكم وقالوا : وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ.

ج ١١ ، ص : ٢٣٩

- ٢- إحضار فرعون السّحرة لمقاومة دعوة موسى [سورة يونس (١٠) : الآيات ٧٩ الى ٨٢]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

الإعراب :

ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ فَلَمَّا : إما اسم موصول بمعنى الذي ، وإما استفهامية ، فإذا كانت اسما موصولا كانت مع الصّلة في موضع رفع بالابتداء ، والسِّحْرُ : خبره. وإذا كانت استفهاما كانت أيضا مبتدأ ، وجِئْتُمْ بِهِ الخبر ، والسِّحْرُ خبر مبتدأ مقدر ، تقديره : هو السحر.

ويجوز أن تكون فَلَمَّا في موضع نصب على تقدير فعل بعد فَلَمَّا وتقديره : أي شيء أتيتم أو جئتم به ، والسِّحْرُ خبر مبتدأ مقدر أي هو السحر.

ولا يجوز أن تكون فَلَمَّا في موضع نصب إذا كانت بمعنى الذي لأن ما بعدها صلتها ، والصّلة لا تعمل في الاسم الموصول ، ولا تكون تفسيرا للعامل الذي تعمل فيه.

البلاغة :

وَيُحِقُّ الْحَقَّ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

ساحِرٍ عَلِيمٍ حاذق في السحر ، فائق فيه. فَلَمَّا أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم. ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ أي الذي جئتم به هو السّحر ، لا ما سمّاه فرعون وقومه سحرا وهو المعجزات. إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ سيمحقه أو سيظهر بطلانه. إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ لا يثبته ولا يقويه.

وفيه دليل على أن السّحر إفساد وتمويه لا حقيقة له. وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ أي يثبته ويظهره.
بِكَلِماتِهِ بأوامره وقضاياه. وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ذلك.
ج ١١ ، ص : ٢٤٠
المناسبة :
هذا هو الفصل الثاني من قصة موسى مع فرعون ، فإن فرعون أراد الاستعانة بالسّحرة لمعارضة معجزة موسى ومقاومة دعوته ، فأمر بإحضار حذاق السّحرة ليظهر للناس أن ما أتى به موسى نوع من السّحر ، فيصد الناس عن اتّباعه ، باعتبار أنه ساحر.
التفسير والبيان :
هذا هو الفصل الثاني من قصة موسى عليه السّلام حيث استعان فرعون عليه بالسحرة.

و يلاحظ أنه ذكرت قصة السّحرة مع موسى في سورة الأعراف ، كما تقدّم ، وفي هذه السّورة ، وفي سورة طه وفي الشّعراء لأن فرعون أراد التمويه على الناس وصدّهم عن اتّباع موسى ومعارضة ما جاء به عليه السّلام من الحقّ المبين ، من طريق زخارف السّحرة والمشعوذين ، فانعكس عليه الأمر ، وصدم مرامه ، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام : وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ ، قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ. رَبِّ مُوسى وَهارُونَ [الأعراف ٧/ ١٢٠- ١٢٢].
ومعنى الآيات هنا : قال فرعون لحاشيته أو ملئه لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنها سحر فائق حاذق في علم السحر ، لظنّهم ألا فرق بين المعجزة الإلهية والسّحر. فأتوا بهم ، فلما جاء السّحرة وتجمّعوا ، قال لهم موسى بعد أن خيّروه بين أن يلقي ما عنده أولا ، أو يلقوا هم ما عندهم ، كما ذكر في سورة الأعراف : بل ألقوا ما أنتم ملقون من فنون السّحر ، ليظهر الحقّ ويبطل الباطل. فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا ، ويستنفدوا ما لديهم من طاقات وخبرات ، ثم يأتي بالحق بعده ، فيدمغ باطلهم ، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاؤوا بسحر عظيم : فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى ، قُلْنا :
ج ١١ ، ص : ٢٤١
لا تَخَفْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى . وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا ، إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى [طه ٢٠/ ٦٧- ٦٩].

فَلَمَّا أَلْقَوْا .. أي فلما ألقوا ما عندهم من الحبال والعصي قال موسى واثقا غير مبال بهم : ما أتيتم به هو السّحر بعينه ، لا ما سمّاه فرعون سحرا مما جئت به من الآيات والمعجزات من عند اللّه. وهذا السّحر الذي أظهر تموه إن اللّه سيمحقه وسيظهر بطلانه قطعا أمام الناس ، بما يفوقه من المعجزة التي هي آية خارقة للعادة تفوق السّحر وأشكاله المختلفة.

ثم علل ذلك بقوله : إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ أي لا يثبّته ولا يقويه ، ولا يجعله صالحا للبقاء ، وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ أي ويريد اللّه أن يؤيّد الحقّ ويظهره ، ويثبته ويقويه ، وينصره على الباطل بأوامره ووعده موسى ، وقيل : بما سبق من قضائه وقدره. وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ أي ولو كره المجرمون الظالمون كفرعون وملئه ذلك ، أي نصر الحقّ على الباطل. وفي آية أخرى : فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ [الأعراف ٧/ ١١٨] ، وقوله تعالى : إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى [طه ٢٠/ ٦٩].

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه مبارزة بين الحقّ والباطل ، بين المعجزة والسّحر ، فالمعجزة آية إلهية خارقة للعادة يؤيّد اللّه بها صدق الأنبياء لإقناع الناس وتصديق دعوتهم. وأمّا السّحر فهو إفساد وتمويه وتزييف لا حقيقة له ، فلم يستطع الصمود أمام الشيء الحقيقي الثابت الذي لا تمويه فيه.

وهذا المعنى هو ما تضمنته آية : إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ أي لا يضرّ أحدا كيد ساحر. لذا قال العلماء : لا تكتب على مسحور إلا دفع اللّه عنه السحر.

ج ١١ ، ص : ٢٤٢

(٢٤٣/١١)

و كان في خطة موسى عليه السّلام بأن يبدأ السّحرة أولا بالإلقاء براعة وثقة بما لديه من المعجزة وعدم اكتراث بالسّحرة ، فإنّ كل ما فعلوه من لفت أنظار الناس وإخافتهم حينما ألقوا حبالهم وعصيهم ، محق وأبطل بإلقاء العصا التي انقلبت ثعبانا عظيما التهم جميع الحبال والعصي ، وصدق فيما أعلنه قبل المبارزة :

ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ.

وحينئذ أدرك السّحرة خسارتهم ، وعرفوا أنّ فعل موسى ليس من قبيل السّحر ، فهم أعرف الناس بفنونه ، فلم يعاندوا ، وشرح اللّه صدورهم للإيمان ، واستيقظ فيهم عنصر العقل والتّفكير ، ولم يرهبهم تهديد فرعون ، فأعلنوا إيمانهم بربّ موسى وهارون ، فأسقط في أيدي فرعون وملئه ، وخابوا وخسروا ، واستوجبوا نار جهنم بإصرارهم على الكفر.

والخلاصة المستنبطة من هذه الآية : أن السّحر تمويه وزيف باطل ، واللّه تعالى يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون ، أي الفجرة الكافرون.

– ٣– إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى [سورة يونس (١٠) : الآيات ٨٣ الى ٨٧]

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

ج ١١ ، ص : ٢٤٣

الإعراب :

مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ جمع الضّمير في ملئهم لخمسة أوجه :

الأول– جمع الضمير على ما هو المعتاد في ضمير العظماء ، فيقول الواحد منهم : نحن فعلنا ، ومنه قوله : قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ، وكان فرعون جبارا فأخبر عنه بفعل الجميع.

الثاني– جمع الضمير على أن المراد بفرعون آله ، كما يقال : ربيعة ومضر ، ويكون في الكلام حذف مضاف ، تقديره : على خوف من آل فرعون.

الثالث– جمع لأنه ذو أصحاب يأتمرون به.

الرابع– أن جمع الضمير يعود على الذّرية التي تقدم ذكرها.

الخامس– أنه يعود على القوم الذين تقدم ذكرهم.

أَنْ يَفْتِنَهُمْ بدل مجرور من فِرْعَوْنَ بدل اشتمال.

أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً اللام مقحمة ، وجعل تبوأا متعديا مثل بوّأ ، يقال : بوّأته وتبوّأته ، كقولهم : علقته وتعلقته.

المفردات اللغوية :

ذُرِّيَّةٌ طائفة من شبّانهم ، والذّرية في أصل اللغة : صغار الأولاد ، وتستعمل عرفا في الصّغار والكبار.

عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أي مع خوف منهم ، والضّمير لفرعون أَنْ يَفْتِنَهُمْ الفتنة في اللغة : الاختبار والابتلاء بالشّدائد ، والمراد هنا التّعذيب ، أي أن يعذّبهم فرعون ويصرفهم بالتّعذيب عن

دينهم. وإفراده بالضّمير للدّلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه. إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ متكبّر قوي فتّاك. فِي الْأَرْضِ أرض مصر. وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ المتجاوزين الحدّ بادّعاء الرّبوبية واسترقاق أسباط الأنبياء.

(٢٤٥/١١)

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا فثقوا به واعتمدوا عليه. إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ مستسلمين لقضاء اللّه ، مخلصين له ، مذعنين لأمره. فَقالُوا : عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين. رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً موضع فتنة. لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي لا تظهرهم علينا ، فيظنّوا أنهم على الحقّ فيفتتنوا بنا ، أولا تسلّطهم علينا فيفتنونا. وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أي من كيدهم

ج ١١ ، ص : ٢٤٤

و شؤم مشاهدتهم. وفي تقديم التّوكل على الدّعاء تنبيه على أن الدّاعي ينبغي أن يتوكّل أولا لتجاب دعوته.

أَنْ تَبَوَّءا اتّخذا مباءة ومسكنا يسكنون فيها أو يرجعون إليها للعبادة. وَاجْعَلُوا أنتما وقومكما. بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً مصلّى أو مساجد تصلّون فيها لتأمنوا من الخوف ، وكان فرعون منعهم من الصّلاة. وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ أتّموها فيها حتى لا يؤذيهم الكفرة ويفتنوهم عن دينهم.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بالنّصر في الدّنيا والجنّة في الآخرة.

وإنما ثنّى ضمير تَبَوَّءا أولا لأن التبوء للقوم واتّخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور ، ثم جمع في قوله : وَاجْعَلُوا لأن جعل البيوت مساجد والصّلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد ، ثم أفرد بقوله : وَبَشِّرِ لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشّريعة.

المناسبة :

أبان اللّه تعالى أنه بالرّغم من مشاهدة المعجزات الباهرة على يد موسى عليه السّلام ، فإنه لم يؤمن به من بني إسرائيل إلا طائفة من شبّان قومه ، توطئة لإخراجهم من أرض مصر. وفي ذلك تسلية للنّبي محمد صلى اللّه عليه وسلّم لأنه كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر ، فله بسائر الأنبياء أسوة.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الثالث من قصة موسى عليه السّلام.

(٢٤٦/١١)

يخبر اللّه تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السّلام في أول أمره ، مع ما جاء به من الآيات البيّنات والحجج القاطعات ، إلا قليل من قومه بني إسرائيل ، وهم طائفة من الشباب ، على وجل وخوف من فرعون وملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر لأن فرعون كان جبارا عنيدا ، مسرفا في التّمرد والعتوّ متجاوزا الحدّ في الظلم والفساد ، شديد البطش والفتك ، حتى إنه ادّعى الرّبوبية واسترقّ أسباط الأنبياء ، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديد. فالضمير في

ج ١١ ، ص : ٢٤٥

قَوْمِهِ عائد إلى بني إسرائيل قوم موسى ، لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورين. وهذا قول مجاهد.

وقيل : الضمير في قَوْمِهِ لفرعون ، والذّرّية : مؤمن آل فرعون ، وآسية امرأته ، وخازنه ، وامرأة خازنه ، وماشطته. وهذا قول ابن عباس.

وضمير مَلَائِهِمْ يعود إلى فرعون بمعنى آل فرعون ، أو على ما هو المعتاد في ضمير العظماء.

والذّرّية : أولاد الذين أرسل إليهم موسى.

(٢٤٧/١١)

وَ قالَ مُوسى : يا قَوْمِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ .. أي وقال موسى لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الاضطهاد والتّعذيب : إن كنتم آمنتم أي صدّقتم باللّه وبآياته حقّ الإيمان ، فعليه توكّلوا واعتمدوا ، وبه ثقوا ، واطمئنوا لوعده ، إن كنتم مسلمين أي إن كنتم مستسلمين لقضاء اللّه ، مذعنين مخلصين له إذ لا يكون الإيمان كاملا إلا إذا صدّقه العمل وهو الإسلام ، فالمعلّق بالإيمان وجوب التّوكل ، فإنه المقتضي له ، ثم شرط في التّوكل الإسلام : وهو أن يسلموا نفوسهم للّه بأن يجعلوها له سالمة خالصة ، لا حظّ للشيطان فيها ، وذلك بأن يعملوا بالأحكام لأن التوكل الصحيح لا يكون مع خلطه بغيره.

والخلاصة : أن الإيمان : عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه. والإسلام : هو الانقياد للتّكاليف الصادرة عن اللّه تعالى ، وإظهار الخضوع وترك التّمرد.

فقالوا على الفور ممتثلين أمره لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين : عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا وبه وحده استعنا على أعدائنا ، ثم دعوا ربّهم قائلين : رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي بأن تنصرهم علينا وتسلطهم علينا فيفتتن الناس ،

ج ١١ ، ص : ٢٤٦

و يقولون : لو كان هؤلاء على حقّ لما هزموا أمام فرعون وظلمه ، أو موضع فتنة لهم أي عذاب بأن

يفتنونا عن ديننا وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أي خلّصنا برحمتك وإحسانك وعفوك من تسلّط الكافرين بك ، الظالمين الطّغاة ، الذين كفروا الحقّ وستروه ، ونحن قد آمنّا بك وتوكّلنا عليك.

(٢٤٨/١١)

و قد دعوا بهذا الدّعاء لأن التّوكل على اللّه هو أعظم علامات الإيمان لا يكمل إلا بالصّبر على الشّدائد ، والدّعاء لا يستجاب إلا مع الطاعة واتّخاذ الأسباب ، قال تعالى : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق ٦٥/ ٣] ، وكثيرا ما يقرن اللّه بين العبادة والتّوكل كقوله : فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ [هود ١١/ ١٢٣] ، وقوله تعالى : قُلْ : هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا [الملك ٦٧/ ٢٩] ، وقوله تعالى : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا [المزمل ٧٣/ ٩]. وأمر اللّه تعالى المؤمنين أن يكرروا في صلواتهم :

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة ١/ ٥].

ثم ذكر اللّه تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم ، فقال : وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ .. أي أمرنا موسى وأخاه هارون عليهما السّلام أن يتبوأ أي يتّخذا لقومهما بمصر بيوتا تكون مساكن للاعتصام فيها ، والأصح أن تكون مساجد وليست منازل مسكونة في رأي أكثر المفسّرين.

وأمرهما مع قومهما أن يجعلوا البيوت مساجد متّجهة نحو القبلة ، بأن يصلّوا في بيوتهم لأنهم كانوا خائفين. وقال قتادة والضّحّاك وسعيد بن جبير :

وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً أي يقابل بعضها بعضا. قال القرطبي : والقول الأول أصح أي اجعلوا مساجدكم إلى القبلة باتّجاه بيت المقدس ، وهو قبلة اليهود إلى اليوم.

ج ١١ ، ص : ٢٤٧

و أن يقيموا الصّلاة في تلك البيوت أي يتموها. وقد أمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة ، فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم.

وبشّر يا موسى المؤمنين بالحفظ والنّصر على عدوّهم في الدّنيا ، والجنة في العقبى.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

(٢٤٩/١١)

١- بالرّغم من المعجزات العظيمة لموسى عليه السّلام وانتصاره على السّحرة بتلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السّحر ، فإنه لم يؤمن به من قومه إلا طائفة قليلة من أولاد بني إسرائيل ، فإنه لطول الزّمان هلك الآباء وبقي الأبناء ، فآمنوا. وقيل : كانت الطائفة من قوم فرعون ، منهم مؤمن آل فرعون ، وخازن فرعون ، وامرأته ، وماشطة ابنته ، وامرأة خازنه.

وكان إيمانهم على خوف من فرعون لأنه كان مسلّطا عليهم ، عاتيا متكبّرا ، مجاوزا الحدّ في الكفر لأنه كان عبدا فادّعى الرّبوبية.

٢- أراد موسى عليه السّلام الاستيثاق من إيمان تلك الطائفة ، فقال لهم :

إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ أي صدّقتم باللّه وبرسالتي ، فتوكّلوا على اللّه وحده ، أي اعتمدوا عليه ، إن كنتم مسلمين ، كرر الشّرط تأكيدا ، أو أن الإسلام هو العمل ، وبيّن موسى أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى اللّه.

فأجابوا بأنّا توكّلنا على اللّه ، أي أسلمنا أمورنا إليه ، ورضينا بقضائه وقدره ، وانتهينا إلى أمره.

ودعوا اللّه بألا ينصر الظالمين عليهم ، فيكون ذلك فتنة لهم في الدّين ، أو

لا يمتحنهم بأن يعذّبوا على أيديهم ، وأن ينجيهم ويخلّصهم من الكافرين ، أي من فرعون وقومه لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة.

٣- اتّخاذ البيوت في فترة ما مساجد ، حتى لا يؤذي فرعون المصلّين لأن بني إسرائيل كانوا لا يصلّون إلا في مساجدهم وكنائسهم ، فخرّبها فرعون ومنعهم من الصّلاة ، فأوحى اللّه إلى موسى وهارون : أن اتّخذا وتخيّرا لبني إسرائيل بيوتا بمصر ، أي مساجد متّجهة نحو القبلة ، ولم يرد في رأي أكثر المفسّرين المنازل المسكونة ، وإنما أراد الاتّجاه إلى بيت المقدس.

وهذا يدلّ على أن القبلة في الصّلاة كانت شرعا لموسى عليه السّلام.

(٢٥٠/١١)

و استنبط العلماء من جواز أداء الصّلاة في البيوت : أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة ، والعذر الذي يبيح له ذلك كالمرض المانع من التّنقل ، أو خوف زيادته ، أو خوف جور السّلطان في مال أو بدن ، دون القضاء عليه بحقّ. والمطر الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع ، ومن له ولي حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يمرّضه عذر أيضا ، وقد فعل ذلك ابن عمر.

وأثير بهذه المناسبة خلاف في أداء صلاة التراويح (قيام رمضان) هل إيقاعه في البيت أفضل أو في المسجد ؟ فذهب مالك وأبو يوسف وبعض الشّافعية إلى أنه في البيت أفضل لمن قوي عليه ،

لما أخرجه البخاري : « فعليكم بالصّلاة في بيوتكم ، فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » .
وقال أكثر الأئمة : إن حضورها في الجماعة أفضل
لأن النّبي صلى اللّه عليه وسلّم قد صلّاها في الجماعة في المسجد ، ثم أخبر بالمانع الذي منع منه على الدّوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم ، فلذلك قال : « فعليكم بالصّلاة في بيوتكم » .
ثم إن الصحابة كانوا يصلّونها في المسجد فرادى متفرّقين ، إلى أن جمعهم عمر على قارئ واحد ، فاستقرّ الأمر على ذلك ، وثبت سنّة.
ج ١١ ، ص : ٢٤٩
٤- إن أداء الصّلاة في البيوت التي أمر اللّه بني إسرائيل فيها خوفا من أذى الأعداء أمر مشروع لا شكّ فيه. وكذلك تكتل الفئات القليلة في مواجهة طغيان الظالمين كفرعون أمر مطلوب سياسة ، إذا جرينا على القول بأن البيوت هي مساكن للاعتصام فيها ، لأن ذلك أدى إلى نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون.

(٢٥١/١١)

٥- دلّ إيمان الطائفة القليلة برسالة موسى عليه السّلام وتقديمهم في دعائهم عدم الفتنة على النّجاة على أن اهتمامهم بأمر دينهم كان فوق اهتمامهم بأمر دنياهم ، فإنهم قالوا أولا : رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، ثم قالوا : وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ. فهذا الترتيب يدلّ على تفضيلهم أمر الدّين على أمر الدّنيا.
- ٤- دعاء موسى على فرعون وملئه [سورة يونس (١٠) : الآيات ٨٨ الى ٨٩]
وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩)
الإعراب :
لِيُضِلُّوا اللام للعاقبة وهي متعلقة ب آتَيْتَ ، ويحتمل أن تكون للعلة لأن إيتاء النّعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضّلال.
فَلا يُؤْمِنُوا إما منصوب أو مجزوم ، الجزم : على أنه دعاء عليهم. والنّصب : إما لأنه معطوف على لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، أو على جواب الدّعاء أو جواب الأمر بالفاء بتقدير أن.
ج ١١ ، ص : ٢٥٠
وَ لا تَتَّبِعانِّ بالتّشديد ، أي أنه نهى بعد أمر. ومن قرأ بتخفيف النون ، كان في موضع نصب على الحال

، أي استقيما غير متبعين ، فتكون لا نافية ، لا ناهية.

البلاغة :

رَبَّنَا اطْمِسْ أمر أريد به الدّعاء بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره ، كقولك : لعن اللّه إبليس ، وتكرار رَبَّنا لِيُضِلُّوا للتّأكيد والتّنبيه على أن المقصود عرض ضلالاتهم وكفرانهم ، تقدمة لقوله تعالى : رَبَّنَا اطْمِسْ.

وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ استعارة لتغليظ العقاب ومضاعفته.

فَلا يُؤْمِنُوا جواب للدّعاء ، أو دعاء بلفظ النّهي ، أو عطف على : لِيُضِلُّوا وما بينهما دعاء معترض.

المفردات اللغوية :

زِينَةً ما يتزيّن به من الملابس والمراكب ونحوهما ، وأصل الزينة في اللغة : ما يتزين به من الحلي واللباس والأثاث والأموال والصحة ونحوها. لِيُضِلُّوا في عاقبته ، واللام لام العاقبة أي الصيرورة. عَنْ سَبِيلِكَ دينك. اطْمِسْ أي أهلكها وأزلها ، والطّمس : المحق وإزالة الأثر. وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ أي وأقسها واطبع عليها واستوثق حتى لا يدخلها الإيمان. فقوله تعالى : رَبَّنا لِيُضِلُّوا ، وقوله تعالى : رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ دعاء بلفظ الأمر. وقوله تعالى : فَلا يُؤْمِنُوا جواب للدّعاء أو دعاء بلفظ النّهي ، أو عطف على لِيُضِلُّوا وما بينهما دعاء معترض. الْأَلِيمَ المؤلم.

قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما أي موسى وهارون ، روي أن موسى كان يدعو ، وهارون يؤمّن.

فَاسْتَقِيما فاثبتا على ما أنتما عليه من الدّعوة وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا ، فإن ما طلبتما كائن ، ولكن في وقته ، روي أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة. سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ طريق الجهلة في الاستعجال ، أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد اللّه تعالى.

المناسبة :

لما بالغ موسى في إظهار المعجزات القاهرة الدّالة على نبوّته ، ورأى القوم : فرعون وملأه مصرّين على الجحود والعناد والإنكار ، دعا عليهم بعد أن ذكر سبب

إقدامهم على تلك الجرائم وهو حبّهم الدّنيا وبسطة النّعيم التي أبطرتهم فتركوا الدّين ، لهذا قال موسى : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالًا.

قال ابن كثير : هذه الدّعوة كانت من موسى عليه السّلام غضبا للّه ولدينه على فرعون وملئه الذين تبيّن له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء ، كما دعا نوح عليه السّلام ، فقال : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ، وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً [نوح ٧١/ ٢٦- ٢٧] ولهذا استجاب اللّه تعالى لموسى عليه السّلام فيهم هذه الدّعوة التي أمّن عليها أخوه هارون ، فقال تعالى : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما.

قال أبو العالية : دعا موسى وأمّن هارون فسمّي هارون وقد أمّن على الدّعاء داعيا.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الرابع من قصة موسى مع فرعون ، بعد وجود فاصل استطرادي للإخبار بإيمان طائفة بموسى عليه السّلام ، فبعد أن أبى فرعون وملؤه قبول دعوة الحقّ من موسى عليه السّلام ، واستمرّوا على ضلالهم وكفرهم معاندين عتاة متكبّرين ، وبعد أن أعدّ موسى قومه بني إسرائيل للخروج من مصر ، وغرس في قلوبهم الإيمان وإيثار العزّة والكرامة ، بعد ذلك دعا ربّه مبيّنا سبب الدّعاء فقال : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً .. أي أعطيتهم من الدّنيا والنّعمة ما أبطرهم ، وهو الزّينة الشّاملة من حلي ولباس وأثاث ورياش وأموال كثيرة ومتاع الدّنيا ونحوها من الزّروع والأنعام ، وأدّى النعيم بهم أن تكون عاقبة أمرهم إضلال عبادك عن الدّين ، والطّغيان في الأرض ، كما قال تعالى : إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى [العلق ٩٦/ ٦- ٧] ، ويشهد لما ذكر ما يوجد في قبور الفراعنة والآثار المصرية من الذهب والفضة والحلي والتّحف ، وما بنوه من

ج ١١ ، ص : ٢٥٢

القصور والقبور والتّماثيل الدّالة على رقي المدنية والحضارة.

فقوله تعالى : لِيُضِلُّوا اللام لام العاقبة أو الصّيرورة ، كقوله تعالى :

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً [القصص ٢٨/ ٨] ، فكانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال.

ويحتمل أن تكون اللام لام التعليل ، لكن بحسب ظاهر الأمر لا في الحقيقة نفسها ، بمعنى أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال ، وصارت تلك الأموال سببا لمزيد البغي والكفر ، أشبهت هذه الحالة حالة من أعطي المال لأجل الإضلال ، فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى.

رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ .. أي ربّنا أمحق وأزل آثارها وأهلكها ، واختم على قلوبهم وأقسها حتى لا تنشرح للإيمان ، فيستحقوا شديد العقاب ، ولا يؤمنوا حتى يشاهدوا العذاب المؤلم الموجع.

ولما دعا موسى بهذا الدّعاء وكان هارون أخوه يؤمّن على دعائه ، قال تعالى :

قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما أي استجبنا دعاءكما وقبلناه كما سألتما من تدمير آل فرعون ، فاستقيما ، أي فاثبتا على ما أنتما عليه من الدّعوة إلى الحقّ ، وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا الأمر قبل ميقاته ، فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ، أي طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد اللّه تعالى. ولا يعني هذا النّهي أن مقتضاه صدر من موسى وهارون عليهما السّلام ، كما أنّ قوله تعالى : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [الزّمر ٣٩/ ٦٥] لا يدلّ على صدور الشّرك منه.

قال ابن جريج : يقولون : إن فرعون مكث بعد هذه الدّعوة أربعين سنة.

وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين : أربعين يوما.

ج ١١ ، ص : ٢٥٣

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١- إن دعاء موسى وهارون كدعاء نوح عليهم السّلام لم يكن إلا بعد اليأس من إيمان القوم ، بعد طول العهد من النّبي موسى بالدّعوة إلى الدّين الحقّ ، وملازمة قومه حال الكفر وإصرارهم عليه ، وبعد نفاد الصّبر منه.

وكل ذلك لم يتم إلا بعد إذن من اللّه لأن مهمة الرّسل استدعاء إيمان قومهم ، ولا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من اللّه ، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن بدليل قوله تعالى لنوح عليه السّلام : وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ [هود ١١/ ٣٦] ، وعند ذلك قال : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً [نوح ٧١/ ٢٦].

٢- احتجّ بهذه الآية من يقول : إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا ، وهارون أمّن.

والتأمين على الدّعاء : أن يقول : آمين ، فقولك : آمين دعاء ، أي يا ربّ استجب لي.

٣- إن إجابة الدّعوات لها أوقات مخصوصة في علم اللّه وتقديره ، وليس ذلك بحسب مراد العبد الدّاعي ، وإنما بحسب مراد اللّه تعالى ، وإن تعجّل الإجابة جهل لا يليق مع الأدب مع اللّه تعالى ، وهو أيضا شكّ في الثّقة بوعد اللّه تعالى بإجابة دعاء الداعي إذا دعاه ، لهذا قال تعالى لموسى وهارون عليهما السّلام : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما ، وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أي لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدي ووعيدي.

ج ١١ ، ص : ٢٥٤

- ٥- إغراق فرعون وجنوده وإنجاء بني إسرائيل [سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٠ الى ٩٣]

(٢٥٦/١١)

وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

الإعراب :

بَغْياً وَعَدْواً مفعول لأجله.

بِبَدَنِكَ في موضع الحال ، أي ببدنك عاريا عن الروح.

البلاغة :

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ استفهام توبيخ وإنكار.

بَوَّأْنا ... مُبَوَّأَ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

وَجاوَزْنا أي جوزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم. يقال : جاز المكان وجاوزه وتجاوزه : إذا قطعه حتى تركه وراءه. فَأَتْبَعَهُمْ لحقهم. مِنَ الْمُسْلِمِينَ أي المنقادين لأمره ، كرر ذلك ليقبل منه فلم يقبل ، وقال جبريل له : آلْآنَ تؤمن ، أي أتؤمن

ج ١١ ، ص : ٢٥٥

الآن ، وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار. وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ قبل ذلك مدة عمرك.

وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ الضالين المضلين عن الإيمان.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ نلقيك على نجوة (مكان مرتفع) من الأرض ليراك بنو إسرائيل ، أو لا نغرقك في قعر البحر ونجعلك طافيا. بِبَدَنِكَ جسدك الذي لا روح فيه. لِمَنْ خَلْفَكَ بعدك وهم بنو إسرائيل. آيَةً عبرة وعظة ، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك.

(٢٥٧/١١)

روي عن ابن عباس : أن بعض بني إسرائيل شكّوا في موته ، فأخرج لهم ليروه. وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أي أهل مكة وغيرهم. عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

وَلَقَدْ بَوَّأْنا أنزلنا. مُبَوَّأَ صِدْقٍ منزل كرامة أو منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر. وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من اللذائذ. فَمَا اخْتَلَفُوا في أمر دينهم ، بأن آمن بعض وكفر بعض ، إلا من بعد ما قرءوا التوراة وعلموا أحكامها ، أو اختلفوا في أمر محمد صلى اللّه عليه وسلّم إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين ، بإنجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين ، فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

المناسبة :

هذا هو الفصل الخامس من قصة موسى مع فرعون التي ابتدأها اللّه تعالى بالحوار بينهما ، ثم أتبعها بقصة السحرة ، ثم استطرد في أثنائها لبيان إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى ، استعدادا للخروج من مصر ، ثم ذكر دعاء موسى على فرعون وملئه.

ولما أجاب اللّه تعالى دعاء موسى وهارون ، أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسّر لهم أسبابه ، وفرعون كان غافلا عن ذلك ، فذكر هنا خاتمة القصة الدالة على تأييد اللّه لموسى وأخيه على ضعفهما ، وقوة فرعون وقومه.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الخامس من قصة موسى عليه السّلام.

ج ١١ ، ص : ٢٥٦

(٢٥٨/١١)

و موضوع الآيات كيفية إغراق فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر مع موسى عليه السّلام ، وهم فيما قيل : ست مائة ألف مقاتل سوى الذرية ، وقد كانوا استعاروا من القبط حليا كثيرا ، فخرجوا به معهم ، فاشتد حنق فرعون عليهم ، فركب وراءهم مع جنوده وجيوشه الهائلة ، فلحقوهم وقت شروق الشمس عند ساحل البحر (البحر الأحمر- بحر السويس) فخاف أصحاب موسى عليه السّلام ، وإذا ضاق الأمر اتسع ، فأمره اللّه تعالى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقا لكل سبط واحد ، وأمر اللّه الريح فنشفت أرضه ، وجاوزت بنو إسرائيل البحر ، فلما خرج آخرهم منه ، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهمّ بالرجوع ، ثم صمّم على المتابعة وقال لأمرائه : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم ، ولما أصبحوا في وسط البحر

، أمر اللّه القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم ، فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون ، وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك :

آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ، كقوله تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا ، سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ ، وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ [غافر ٤٠/ ٨٤- ٨٥].

ولهذا قال اللّه تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال : آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ أي أهذا الوقت تؤمن ، وقد عصيت اللّه قبل هذا ؟ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ أي في الأرض من الذين أضلوا الناس.

(٢٥٩/١١)

هذه القصة من أسرار الغيب التي أعلم اللّه بها رسوله صلى اللّه عليه وسلّم.

ج ١١ ، ص : ٢٥٧

معنى الآيات :

وتجاوزنا ببني إسرائيل البحر بقدرتنا وحفظنا ، فلحقهم فرعون وجنوده ظلما وعدوا ، أي باغين وعادين عليهم ، أو للبغي والعدوان ، والفتك بهم ، أو إعادتهم إلى مصر ليعذبوهم سوء العذاب ويستعبدوهم كما كانوا يفعلون.

فلما أشرف على الغرق ، قال : آمنت بأنه لا إله بحق إلا اللّه الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين أي المنقادين المذعنين لأمره.

وكرر فرعون بهذه العبارة المعنى الواحد ثلاث مرات ، في ثلاث عبارات ، حرصا منه على القبول ، ومع ذلك لم يقبل منه إيمانه حيث أخطأ وقته ، وقاله عند الإكراه والاضطرار ، وحين لم يبق له اختيار قط.

ويلاحظ أن المرة الواحدة كانت كافية في حال الاختيار.

فردّ اللّه تعالى عليه على لسان جبريل ، أو بإلهام من اللّه تعالى نفسه بقوله :

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ أي أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق ، وأيست من نفسك ، وقد عصيت اللّه قبل هذا ، وكنت من الضالين المضلين عن الإيمان ، كقوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ [النحل ١٦/ ٨٨].

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ... أي فاليوم نرفعك على مكان مرتفع من الأرض ، وننقذك بجسدك الذي لا روح فيه ، أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شيء ولم يتغير من الارتماء في قعر البحر لتكون لبني إسرائيل دليلا

أو علامة على موتك وهلاكك وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأنا من أن يغرق ، ولتكون عبرة لمن بعدك من الناس يعتبرون بك ، فينزجرون عن الكفر والفساد في الأرض وادعاء الربوبية.

ج ١١ ، ص : ٢٥٨

(٢٦٠/١١)

و في هذا دليل على كمال قدرة اللّه تعالى وعلمه وإرادته.

وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ... أي وإن أكثر الناس لغافلون عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة للّه وحده ، فلا يتعظون بها ولا يعتبرون بها ، لعدم تفكرهم في أسبابها ونتائجها. وفي الآية دلالة على ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث وعواقبها.

وقد كان هلاكهم يوم عاشوراء من شهر المحرم ،

كما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال : قدم النبي صلى اللّه عليه وسلّم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال :

« ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلّم لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم ، فصوموه » .

ثم أخبر اللّه تعالى بالمناسبة عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فقال : وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ ... أي ولقد أنزلنا بني إسرائيل منزلا صالحا مرضيا ، وهو منزلهم سابقا في مصر ، ولاحقا في فلسطين ، ورزقناهم من الطيبات أي اللذائذ المستطابة المباحة فيها ، وأنعمنا عليهم فيها بكثير من الخيرات من الثمار والغلال والأنعام وصيود البر والبحر.

لقد وعدهم اللّه على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب أرض فلسطين في الماضي ، ولكن لما كفروا بالأنبياء ، وعلى التخصيص عيسى ومحمد عليهما السلام ، نزعها اللّه منهم. فليس لهم أي حق ديني بعدئذ في الاستيطان بأرض فلسطين بعد بغيهم وعدوانهم وكفرهم برسالات اللّه تعالى.

وللعلماء في تحديد المراد ببني إسرائيل قولان : الأول- أنهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السّلام ، وعلى هذا يكون مبوأ الصدق مصر والشام ، والطيبات منافع تلك البلاد ووراثة بني إسرائيل ما كان تحت أيدي قوم فرعون ، وأن التوراة هي العلم الذي أدى إلى الاختلاف بينهم .. والقول الثاني- هم اليهود

ج ١١ ، ص : ٢٥٩

(٢٦١/١١)

المعاصرون للنبي عليه الصلاة والسلام ، وبه قال جمع عظيم من المفسرين وهم قبائل اليهود في المدينة (قريظة والنضير وبنو قينقاع) ومنزل الصدق : ما بين المدينة والشام ، والطيبات : ما في تلك البلاد من التمور ، والمراد بالعلم : القرآن ، وسماه علما لأنه سبب للعلم على سبيل المجاز ، وكونه سبب الاختلاف : أن اليهود اختلفوا فآمن قوم وبقي آخرون على كفرهم ، فصار نزول القرآن سببا لحدوث انقسام بينهم.

فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ أي فما اختلف بنو إسرائيل في أمر دينهم إلا من بعد ما علموا وقرءوا التوراة وعلموا أحكامها ، أو ما اختلفوا في أمر محمد صلى اللّه عليه وسلّم إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته ، وذلك أنهم كانوا قبل بعثة محمد صلى اللّه عليه وسلّم مقرين بنبوته ، مجمعين على صحة رسالته ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، فلما بعث وجاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، فكفر به بعضهم حسدا وحبا للرياسة ولجمع المال ، وآمن آخرون.

والخلاصة : إنهم ما اختلفوا في شيء من المسائل جهلا ، وإنما من بعد ما جاءهم العلم ، ولم يكن لهم أن يختلفوا.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي ... أي إن ربك يفصل ويحكم بينهم يوم القيامة في شأن ما اختلفوا فيه ، فيميز المحق من المبطل بالإنجاء للمحقين من النار وإدخالهم الجنة ، والإهلاك للمبطلين في عذاب جهنم.

فقه الحياة أو الأحكام :

اشتملت الآيات على الأحكام التالية :

١- قد ينصر اللّه تعالى الضعفاء أو المستضعفين على الأشداء الأقوياء ، كما

نصر اللّه موسى وأخاه هارون على ضعفهما ، على فرعون الجبار وجنوده الأشداء ، إذ كانت دولتهم أقوى دول العالم القديم.

٢- إيمان اليأس لا ينفع لأنه في وقت الإلجاء والاضطرار والإكراه وفقد عنصر الاختيار وزوال وقت التكليف ، فلم يقبل اللّه إعلان فرعون الإيمان حينما أشرف على الغرق بمعان ثلاثة يؤكد بعضها بعضا. قال الرازي : آمن فرعون ثلاث مرات ، أولها قوله : آمَنْتُ وثانيها قوله : لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وثالثها قوله : وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فما السبب في عدم القبول ، واللّه تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد ، حتى يقال : إنه لأجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الإقرار ؟ والجواب أنه إنما آمن عند

نزول العذاب. والإيمان في هذا الوقت غير مقبول لأن عند نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء ، وفي هذه الحال لا تكون التوبة مقبولة ، ولهذا السبب قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا « ١ » ٣- كان فرعون عاصيا كافرا عاتيا متكبرا مفسدا في الأرض بالضلال والإضلال ، فاستحق التوبيخ والإنكار والتهكم عليه.

٤- تمّ إنقاذ جثة فرعون من الغرق ، واسمه منبتاح بن رمسيس ١٢٢٥ ق. م ، وهي التي ما تزال موجودة في متحف الآثار المصرية بالقاهرة وشاهدتها بنفسي ، وشاهدت فيها آثار ملوحة ماء البحر البيضاء على عظم الجبهة. ويعدّ هذا الإنقاذ عبرة وعظة لكل من يدعي الربوبية ويكفر باللّه ، فهو أحقر من أن يكون ربا لأن الرب لا يموت. قال المفسرون : إنما نجّى اللّه بدن فرعون بعد الغرق لأن قوما اعتقدوا فيه الألوهية ، وزعموا أن مثله

---

(١) تفسير الرازي : ١٧/ ١٥٤

ج ١١ ، ص : ٢٦١

لا يموت ، فأراد اللّه أن يشاهده الناس على ذلك الذل والمهانة ، ليتحققوا موته ، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان ، فيكون عبرة للخلق ، وزجرا لأهل الطغيان.

٥- ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث الجسام وعواقبها المؤثرة في التاريخ.

٦- إن في قصة إغراق فرعون الطاغية عبرة لمكذبي النبي محمد صلى اللّه عليه وسلّم الذين يغترون بقوتهم وكثرتهم وثروتهم ، فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عددا ، وأشد قوة ، وأوفر ثروة ، وقد جعل اللّه تعالى سنته في المكذبين واحدة وهي التدمير والإهلاك ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، فالعاقل من المكذبين من يتدبر في الأمر ، ويبادر إلى ساحة الرضا والإيمان ، ليكون من أهل النجاة في الآخرة : لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ [يوسف ١٢/ ١١١].

٧- لقد أنعم اللّه على بني إسرائيل بالنعم الكثيرة الدينية والدنيوية ، ومن أهمها إنقاذهم من طغيان فرعون ، وأمانهم واستقرارهم في فلسطين في الماضي ، ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا بها.

بل إنهم كفروا بهذه النعم ، وكفروا برسالة عيسى ومحمد عليهما السلام ، فأصبحوا مثل غيرهم ممن يستحق العذاب والطرد والإجلاء من ديار الإسلام.

والمقصود بذلك أحوال بني إسرائيل القدامى والمعاصرين للنبي صلى اللّه عليه وسلّم لأن المتأخرين

راضون بفعل المتقدمين ، وسائرون على نهجهم ، وهذا جمع بين القولين السابقين.
ولم يختلفوا في شأن رسالة محمد صلى اللّه عليه وسلّم وصدقه قبل بعثته ، بل كانوا مجمعين على نبوته والإيمان به على وفق الأوصاف المذكورة في كتبهم ، وإنما اختلفوا بعد بعثته حسدا وبغيا وحبا في بقاء المراكز الدينية ، والزعامة السياسية ، فكان اختلافهم
ج ١١ ، ص : ٢٦٢
بإيمان بعضهم وكفر الآخرين لا عن جهل بحقيقة ووصف محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، وإنما عن علم ومعرفة حقيقية به ، فإنهم يعرفونه بأوصافه المذكورة لديهم كما يعرفون أبناءهم.

(٢٦٤/١١)

٨- كان فلق البحر بعصا موسى عليه السّلام اثني عشر فرقا ، كل فرق منها كالجبل الأشم معجزة عظمي لسيدنا موسى عليه السّلام ، تمّ على أثرها إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ، لذا سن صوم يوم عاشوراء الذي تم فيه هذا الحدث شكرا للّه على ما أنعم.
٩- القضاء المبرم والحكم القاطع يتبين يوم القيامة في شأن المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم في أمر قبول دعوة محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، حيث ينجي اللّه المحقين ، ويدمر المبطلين.
تأكيد صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد [سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٤ الى ٩٧]
فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٩٧)
البلاغة :
حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ كناية عن القضاء الأزلي بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب.
ج ١١ ، ص : ٢٦٣
المفردات اللغوية :
فَإِنْ كُنْتَ أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبيك إليك أو أن الخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلّم والمراد به قومه ، على نحو قول العرب : إياك أعني واسمعي يا جارة ، وهو مثل قوله تعالى : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [الزمر ٣٩/ ٦٥] وقوله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ [الأحزاب ٣٣/ ٤١].
فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ يا محمد من القصص على سبيل الافتراض. الْكِتابَ هنا التوراة. مِنْ قَبْلِكَ فإنه ثابت عندهم يخبروك بصدقه ،

قال النبي صلى اللّه عليه وسلّم : « لا أشك ولا أسأل » .
لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ واضحا لا مرية فيه ، بالآيات القاطعة. فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ الشاكين فيه.
وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ .. أيضا من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه ، كقوله : فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ [القصص ٢٨/ ٨٦].
إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ وجبت وثبتت. كَلِمَتُ رَبِّكَ باستحقاق العذاب.
لا يُؤْمِنُونَ وهذا واقع لأن اللّه لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه. وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ لأنهم أصروا على الكفر. حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ وحينئذ لا ينفعهم ، كما لا ينفع فرعون.
المناسبة :
بعد أن أخبر اللّه تعالى عن قصص الأنبياء السابقين كنوح وموسى وهارون عليهم السلام بإنجاز النصر لهم على أقوامهم ، وحكى اختلاف بني إسرائيل عند ما جاءهم العلم حسدا وبغيا وإيثارا لبقاء الرياسة ، أورد ما يقوي صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد ، وخاطب به النبي صلى اللّه عليه وسلّم وأراد قومه.
التفسير والبيان :
أراد اللّه تعالى أن يؤكد صحة القرآن وصدق النبوة على سبيل الافتراض والمبالغة ، فقال : فإن وقع منك شك على سبيل الافتراض والتقدير في صحة ما أنزلنا إليك من القرآن المتضمن قصص الأنبياء المتقدمين مثل هود ونوح وموسى وغيرهم ، فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب أي التوراة من قبلك ، فهم على علم تام بصحة ما أنزل إليك.
ج ١١ ، ص : ٢٦٤
و المراد الإحالة على علماء أهل الكتاب الصادقين ووصفهم بالعلم ، لا وصف النبي صلى اللّه عليه وسلّم بالشك ، قال ابن عباس : لا واللّه ما شك طرفة عين ، ولا سأل أحدا منهم ، و
قال : « لا أشك ولا أسأل ، بل أشهد أنه الحق » كما ذكر قتادة وسعيد بن جبير والحسن البصري.

و الرأي الأولى كما ذكرت في بيان المفردات : أن الخطاب للسامع أو للنبي صلى اللّه عليه وسلّم والمراد به أمته ، وهذا تعبير مألوف بين العرب. كما أن افتراض الشك في الشيء لنفي احتمال وقوعه مألوف أيضا لدى العرب ، فيقول أحدهم : إن كنت ابني حقا فكن شجاعا. وذلك مثل قول عيسى عليه السّلام : إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ [المائدة ٥/ ١١٦] فهو يعلم أنه لم يقله ، ولكنه يفرضه ليستدل

على أنه لو قاله لعلمه اللّه منه.

قال البيضاوي : وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم.

لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ .. أي تاللّه لقد جاءك الحق واضحا لا مرية فيه ولا ريب ، بما أخبرناك في القرآن ، وبأنك رسول اللّه ، وأن اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك ، لما يجدون في كتبهم من نعتك وأوصافك ، فلا تكونن من الشاكين في صدق ما نقول.

وفي هذا تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم صلى اللّه عليه وسلّم موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب ، كما قال تعالى : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ [الأعراف ٧/ ١٥٧].

وهذا النهي : فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ تعريض بالشاكين والمكذبين للنبي صلى اللّه عليه وسلّم من قومه.

ج ١١ ، ص : ٢٦٥

وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا ... أي ولا تكونن أيها النبي ممن كذب بآيات اللّه الدالة على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل لهداية البشر ، فتكون ممن خسروا الدنيا والآخرة.

وهذا أيضا من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ [القصص ٢٨/ ٨٦] وفيه تعريض بالكفار الخاسرين الضالين.

(٢٦٧/١١)

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ ... أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة اللّه أي قضاؤه وحكمه بالعذاب لا يؤمنون أبدا ، لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وتصميمهم على الكفر ، وليس المعنى أن اللّه يمنعهم الإيمان ، وإنما هم الذين اختاروا الكفر وكسبوه. والمراد من الآية : أن من علم اللّه منهم الإيمان أو الكفر ، لا بد من حصوله لأن علم اللّه واسع شامل ، لا يتخلف.

وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ .. أي إن هؤلاء الذين علم اللّه تعالى أنهم لا يؤمنون ، سيبقون على كفرهم وجحودهم ، ولو جاءتهم كل آية كونية حسية ، أو علمية ، أو قرآنية ، مثل آيات موسى التي اقترحوا مثلها على النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، ومثل تفجير الأنهار والصعود في السماء ، وامتلاك الجنات أي البساتين ، ومثل آيات القرآن الدالة بإعجازها على أنها من عند اللّه تعالى ، وربما لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم الموجع الذي يحدق بهم ويطبق عليهم ، وحينئذ لا ينفعهم إيمانهم ، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أشرف على الغرق ، وكما قال تعالى : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى ، وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ، ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ [الأنعام ٦/

١١١] فالأدلة لا تنفعهم مهما كثرت لأن الدليل لا يهدي إلا بإعانة اللّه وتوفيقه ، وتوافر الاستعداد لقبوله.

ج ١١ ، ص : ٢٦٦

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- القرآن حق ، ونبوة محمد صلى اللّه عليه وسلّم حق ، وأدلة إثبات أحقيتهما : صدقهما فيما أخبرا به من قصص الأنبياء ، ومغيبات المستقبل ، وما أشار إليه من الآيات الدالة على الصدق في كل ما اشتمل عليه القرآن والسنة.

٢- افتراض الشك أحيانا يفيد في إثبات عكسه وهو اليقين ، وهذه نظرية أخذ بها الفلاسفة مثل (ديكارت).

(٢٦٨/١١)

٣- على كل من شك في شيء أن يبادر إلى سؤال العلماء لإزالته وتثبيت يقينه ، وترسيخ عقيدته.

٤- الخطاب في الآيتين الأوليين : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ وفَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ للنبي صلى اللّه عليه وسلّم ، والمراد غيره. قال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبته ، والدليل عليه

ما روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال لما نزلت هذه الآية : « و اللّه لا أشك » .

٥- الإحالة في تبين صدق القرآن وصحة النبوة كانت على من أسلم من اليهود ، كعبد اللّه بن سلام وأمثاله.

٦- إن الذين ثبت عليهم غضب اللّه وسخطه بمعصيتهم لا يؤمنون ، حتى ولو جاءتهم الآيات تترى بما يطلبون. فإن آمنوا حين نزول العذاب بهم لا ينفعهم إيمانهم لأنه إيمان يأس وإلجاء وقسر ، وتوبة يائس.

٧- احتج أهل السنة بهذه الآية : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب ، وقال في الكشاف في هذه الآية : ثبت

ج ١١ ، ص : ٢٦٧

عليهم قول اللّه تعالى الذي كتبه في اللوح ، وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا ، فلا يكون غيره ، وتلك كتابة معلوم ، لا كتابة مقدّر.

قصة يونس عليه السّلام مع قومه [سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٨ الى ١٠٠]

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

الإعراب :

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ منصوب إما لأنه استثناء منقطع ليس من جنس الأول وإما على الاستثناء المتصل غير المنقطع ، بأن يقدر في الكلام حذف مضاف ، تقديره : فلو لا كان أهل قرية آمنوا إلا قوم يونس.

ويونس : ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة. وقرئ برفع يونس على البدل ، كقول الشاعر :

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

و البدل من غير الجنس لغة بني تميم.

كُلُّهُمْ تأكيد لقوله لَآمَنَ ، وجَمِيعاً عند سيبويه : نصب على الحال. وقال الأخفش : جاء بقوله : جَمِيعاً بعد كل تأكيدا كقوله : لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ.

البلاغة :

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ الاستفهام للإنكار ، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل ، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه عليه.

ج ١١ ، ص : ٢٦٨

المفردات اللغوية :

فَلَوْ لا فهلا ، وكل منهما للتحضيض والتوبيخ. قَرْيَةٌ أهل قرية أي فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إليها ، كما أخر فرعون.

آمَنَتْ قبل نزول العذاب بها. فَنَفَعَها إِيمانُها بأن يقبله اللّه منها ويكشف العذاب عنها.

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لكن قوم يونس لَمَّا آمَنُوا عند رؤية أمارة العذاب ، ولم يؤخروه إلى حلوله. الْخِزْيِ الذل والهوان. وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ إلى انقضاء آجالهم ، الحين : مدة من الزمن ، والمراد بها هنا العمر الطبيعي الذي يعيشه الإنسان.

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً قال المعتزلة : المراد مشيئة القسر والإلجاء ، أي لو شاء اللّه تعالى أن يلجئهم إلى الإيمان لقدر عليه ، ولصح ذلك منه ، ولكنه ما فعل ذلك لأن الإيمان الصادر من العبد على سبيل الإلجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة ، فالمشيئة المرادة في الآية لم تقع في رأيهم. وقال أهل السنة : المراد تخليق الإيمان أو خلق الإيمان ، أي لو شاء ربك لخلق الإيمان فيهم ، ولكنه لم يفعل ، فدلّ على أنه ما أراد حصول الإيمان لهم لأن الإيمان لا يحصل إلا بخلق اللّه تعالى ومشيئته وإرشاده وهدايته ، فإذا لم يحصل ذلك المعنى لم يحصل الإيمان. والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر ، فكل إيمان لا يحصل إلا بمشيئة اللّه تعالى : وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ [الإنسان ٧٦/ ٣٠]. وهذا المذهب موافق للمعتزلة في أن اللّه تعالى ما قسر الخلق ، ولكنه أيضا ما سلب اختيارهم ، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختيارا وقصدا ، فإبقاء الآية على إطلاقها أولى ، وربط كل شيء من إيمان وغيره بمشيئة اللّه تعالى هو الواجب.

أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ بما لم يشأه اللّه منهم ، والاستفهام للإنكار ، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل ، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه عليه.

وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أي بإرادته وتوفيقه ، فلا تجهد نفسك في هداها ، فإنه إلى اللّه تعالى. والإذن بالشيء لغة : الاعلام بإجازته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ هنا العذاب أو الخذلان. وأصله في اللغة : الشيء القبيح المستقذر. لا يَعْقِلُونَ لا يتدبرون آيات اللّه ، ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات.

المناسبة :

(٢٧١/١١)

هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وهي قصة يونس عليه السّلام. فبعد أن بيّن اللّه تعالى أن الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ أتبعه بهذه الآية

ج ١١ ، ص : ٢٦٩

للدلالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم ، وانتفعوا بذلك الإيمان. وهذا يدل على أن الكفار فريقان : منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر ، ومنهم من حكم عليه بخاتمة الإيمان ، وكل ما قضى اللّه به فهو واقع.

وذكر في هذه الآيات ما يكمل قبلها في أن اللّه تعالى خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر ، وأن مشيئة اللّه وحكمته متعلقتان بأفعال عباده ، ووقوعها على وفقهما.

وكانت العبرة من إيراد هذه القصص الثلاث (قصة نوح ، وقصة موسى ، وقصة يونس) الرّد على شبهات الكفار التي منها أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم كان يهددهم بنزول العذاب عليهم ، ولم ينزل ، فأبان اللّه تعالى أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد ، بدليل أن اللّه أخّر العذاب عن قوم نوح ، وفرعون ، وقوم يونس ، ثم أوقعه في الأولين ولم يوقعه في قوم يونس بسبب إيمانهم.

أضواء من التاريخ :

ذكر يونس عليه السّلام في القرآن الكريم باسمه أربع مرات : في سورة النساء [١٦٣] والأنعام [٨٦] ويونس [٩٨] والصافات [١٣٩] وذكر بوصفه في سورتين : في سورة الأنبياء : وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً [٨٧] وفي سورة القلم : فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ ، إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ [٤٨].

(٢٧٢/١١)

و هو يونس بن متى ، ويقول أهل الكتاب : يونس بن أمتاي. وقد أرسله اللّه تعالى إلى نينوى من أرض الموصل ، فكذبوه ، فوعدهم بالعذاب بعد مدة ، قيل : إلى أربعين يوما ، وذهب عنهم مغاضبا ، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب ، ولما دنا الموعد غامت السماء غيما أسود ذا دخان شديد ، فهبط حتى غشي مدينتهم ، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا صدقه ، فلبسوا المسوح ، وبرزوا إلى

الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرّقوا بين كل والدة وولدها ، فحنّ بعضها إلى بعض ، وعلت الأصوات والعجيج ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان ، وتضرعوا إلى اللّه تعالى فرحمهم وكشف عنهم ، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة « ١ » . قال الطبري : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب ، وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

أما يونس فقد ذهب مغاضبا لقومه الذين أرسل إليهم لإبطائهم عن تلبية دعوته ، والدخول فيما دعاهم إليه من الإيمان ، فهرب إلى الفلك المشحون ، من غير إذن اللّه تعالى.

ثم امتحنه اللّه تعالى بالإلقاء في اليم والتقام الحوت ، قال تعالى : وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً ، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ [الأنبياء ٢١/ ٨٧- ٨٨].

فنبذه اللّه بالعراء وهو سقيم بعد أن مكث في بطنه ثلاثا أو سبعا أو أكثر أو أقل ، وحماه من هضم

الحوت له ، وأنبت عليه شجرة من يقطين. ثم أرسله اللّه تعالى إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا ، وقبل اللّه منهم إيمانهم.

(٢٧٣/١١)

و أما قوله تعالى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فمعناه المناسب للأنبياء المعصومين عن الخطأ : فظن أن لن نضيق عليه ، أي ظن أننا لن نلزمه بالذهاب إلى القوم الذين أرسل إليهم ، ولا نلجئه إلى تبليغ رسالة اللّه تعالى إليهم ، والمراد أنه تأول الأمر وهو أمر الذهاب إلى قومه على أنه أمر إرشاد لا أمر وجوب ، ولا

---

(١) تفسير الرازي : ١٧/ ١٦٥ ، تفسير القرطبي : ٨/ ٣٨٤

ج ١١ ، ص : ٢٧١

إثم في مخالفته ، كما تأول الفقهاء كتابة الدين المأمور به في قوله تعالى : إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ على أنه أمر ندب وإرشاد ، ففهم الأمر على هذا الوجه « ١ » .

التفسير والبيان :

فهلا كان أهل قرية من قرى الرسل الذين أرسلوا إليهم ، آمنوا بعد دعوتهم وإقامة الحجة عليهم ، وقبل نزول العذاب واستحالة الإيمان ، فنفعهم إيمانهم.

ولكن قوم يونس عليه السّلام الذي بعث في أهل نينوى بأرض الموصل شمال العراق ، كانوا قد كفروا ، ثم لما رأوا أمارات العذاب ، تضرعوا إلى اللّه تعالى ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان فرحمهم اللّه ، وكشف عنهم العذاب- أي العذاب الذي وعدهم يونس بنزوله- وقبل إيمانهم ، ومتّعهم إلى أجلهم.

أي لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم من القرى الغابرة إلا قوم يونس ، وهم أهل نينوى ، وما كان إيمانهم إلا تخوفا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم ، بعد ما عاينوا أسبابه. وكان قبول إيمانهم مغايرا لقبول إيمان فرعون ، فإنه آمن عند الإشراف على الغرق واقتراب الموت. أما قوم يونس فآمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل ، وإن كان إيمانهم عند ظهور أماراته.

(٢٧٤/١١)

و في القصة تعريض بأهل مكة ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس ، قبل أن يصلوا إلى درجة اليأس ، فإن العذاب قابل للتحقق كما حدث في قوم نوح ، وفرعون وجنوده. وعلى هذا التأويل لا تعارض ولا إشكال ولا خصوص لقوم يونس.

قال علي رضي اللّه عنه : إن الحذر لا يردّ القدر ، وإن الدعاء ليردّ القدر.

---

(١) قصص القرآن للأستاذ عبد الوهاب النجار : ص ٣٥٧ ، ٣٥٩

ج ١١ ، ص : ٢٧٢

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أي ولو شاء ربك يا محمد أن يأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به ، وأن يخلق فيهم الإيمان ، لفعل ولآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى ، كقوله تعالى :

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ، وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود ١١/ ١١٨- ١١٩].

وقال تعالى : أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً [الرعد ١٣/ ٣١]. وكُلُّهُمْ في الآية أي على وجه الإحاطة والشمول ، وجَمِيعاً أي مجتمعين على الإيمان ، مطبقين عليه ، لا يختلفون فيه.

(٢٧٥/١١)

أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ... أي أفأنت يا محمد تلزم الناس وتلجئهم إلى الإيمان ، ليس ذلك عليك ولا إليك ، بل إلى اللّه وعليه. فالإيمان لا يتم بالإكراه والإلجاء والقسر ، وإنما يتم بالطواعية والاختيار ، كما قال تعالى : لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ [البقرة ٢/ ٢٥٦] وقال تعالى : وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ [ق ٥٠/ ٤٥] وإنما مهمتك فقط التبليغ بالإنذار والتبشير ، كما قال تعالى : إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ [الشورى ٤٢/ ٤٨] وقال سبحانه : فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ [الغاشية ٨٨/ ٢١- ٢٢]. إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ [القصص ٢٨/ ٥٦].

وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أي ليس لنفس أن تؤمن إلا بإرادة اللّه ومشيئته وتوفيقه أو ما ينبغي لنفس أن تؤمن إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته ، والنفس مختارة في الإيمان اختيارا غير مطلق ، وليست مستقلة في اختيارها استقلالا تاما ، بل مقيدة بسنة اللّه في الخلق ، يهدي اللّه من يشاء بحكمته وعلمه وعدله.

ج ١١ ، ص : ٢٧٣

وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ أي ويجعل اللّه العذاب على الذين لا يتدبرون حجج اللّه وأدلته ، ولا يستعملون عقولهم في النظر بما يرشدهم إلى الحق من آيات اللّه وحججه الكونية والعقلية

القرآنية ، فهم لتعطيلهم منافذ المعرفة وحواسهم الهادية إلى الصواب ، ولاتباع الهوى ، يؤثرون الكفر على الإيمان.

فقه الحياة أو الأحكام :

استنبط العلماء من الآيات ما يأتي :

١- الحض على الإيمان وقت الرخاء والسعة قبل الإحاطة بالعذاب ، فهو الوقت الذي يقبل فيه الإيمان.

٢- خص اللّه قوم يونس من بين سائر الأمم بقبول توبتهم بعد معاينة العذاب ، كما ذكر الطبري عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قال القرطبي معلقا : قول الزجاج حسن فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك. ويعضد هذا

قوله صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر : « إن اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »

والغرغرة : الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا « ١ » .

فعلى قول الزجاج والقرطبي : لا تخصيص لقوم يونس.

٣- احتج أهل السنة بآية : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ... على قولهم بأن جميع

---

(١) تفسير القرطبي : ٨/ ٣٨٤

ج ١١ ، ص : ٢٧٤

الكائنات بمشيئة اللّه تعالى لأن كلمة لَوْ تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فقوله : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ يقتضي أنه ما حصلت تلك المشيئة ، وما حصل إيمان أهل الأرض بالكلية ، فدل هذا على أنه تعالى ما أراد إيمان الكل « ١ » .

ولقد أوردت في بيان المفردات مذهبي أهل السنة والمعتزلة في تفسير وَلَوْ شاءَ هل المشيئة مشيئة القسر والإلجاء ، أم مشيئة الخلق والإرشاد والهداية ؟

وفسر القرطبي الآية بقوله : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لاضطرهم إليه ، أي إلى الإيمان.

٤- الإكراه في الدين ممنوع ، لقوله تعالى : أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ قال ابن عباس : كان النبي صلى اللّه عليه وسلّم حريصا على إيمان جميع الناس فأخبره اللّه تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذّكر الأول ، ولا يضلّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول.

٥- احتج أهل السنة على قولهم : « أنه لا حكم للأشياء قبل ورود الشرع » .

بقوله : وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وجه الاستدلال به : أن الإذن عبارة عن الإطلاق في الفعل ورفع الحرج ، وصريح هذه الآية يدل على أنه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يقدم على هذا الإيمان.

٦- احتج أهل السنة أيضا على قولهم : بأن خالق الكفر والإيمان هو اللّه تعالى بقوله تعالى : وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ وتقريره أن الرجس هو العمل القبيح ، سواء كان كفرا أو معصية ، فلما ذكر اللّه تعالى فيما قبل هذه الآية أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة اللّه تعالى وتخليقه ، ذكر بعده أن

---

(١) انظر تفسير الرازي : ١٧/ ١٦٦ ، وكذا ص ١٦٧ للحكم رقم (٥) ، وص ١٦٨ للحكم رقم (٦).

الرجس لا يحصل إلا بتخليقه وتكوينه ، والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر. هذا ما ذكره الرازي.

ويلاحظ أننا فسرنا الرجس بالعذاب ، كما ذهب إليه كثير من المفسرين ، وهو ما قرره أبو علي الفارسي النحوي في أن الرجس يحتمل كون المراد منه العذاب.

فرضية النظر والتفكير وإنذار المهملين [سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (١٠(١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠(٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

الإعراب :

ما ذا إما استفهام مبتدأ ، وخبره : فِي السَّماواتِ ، أو أن الخبر : ذا بمعنى الذي ، والجملة الابتدائية

في موضع نصب.
ثُمَّ نُنَجِّي معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله : إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا.
كَذلِكَ الكاف : صفة مصدر محذوف ، تقديره : ننجي رسلنا ، والذين آمنوا ننجيهم مثل ذلك ، وتصير الجملة : كذلك ننج المؤمنين ، أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين.
حَقًّا عَلَيْنا اعتراض ، وهو منصوب بفعله المقدر ، أي حق ذلك علينا حقا ، ويجوز أن يكون حَقًّا بدلا من كَذلِكَ. ولا يجوز أن ينصب كَذلِكَ وحَقًّا ب نُنَجِّي لأن الفعل الواحد لا يعمل في مصدرين ، ولا في حالين ، ولا في استثناءين ، ولا في مفعولين معهما.
ج ١١ ، ص : ٢٧٦
البلاغة :
ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا عبر بصيغة المضارع عن الماضي ، لتهويل الأمر ، باستحضار صورة ذلك الماضي.
المفردات اللغوية :

قُلِ يا محمد لكفار مكة وغيرهم. انْظُرُوا تفكروا ما ذا أي الذي. فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته. وإن جعلت ما ذا استفهامية علقت انْظُرُوا عن العمل. وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ في علم اللّه وحكمته. وما : نافية أو استفهامية في موضع النصب.
مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم أي مثل وقائعهم من نزول العذاب بهم إذ لا يستحقون غيرها. مأخوذ من قولهم : أيام العرب أي وقائعها. فَانْتَظِرُوا ذلك.
ثُمَّ نُنَجِّي المضارع لحكاية الحال الماضي. رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا من العذاب.
كَذلِكَ الإنجاء. حَقًّا عَلَيْنا اعتراض. نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ أي كذلك الإنجاء ننج النبي صلى اللّه عليه وسلّم وأصحابه حين تعذيب المشركين.
المناسبة :
بعد أن بيّن اللّه تعالى في الآيات السالفة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق اللّه تعالى ومشيئته ، أمر بالنظر والاستدلال في الأدلة ، حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض ، فقال : انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فعلى كل عاقل التمييز بين الخير والشر ، وما على الرسول إلا التبشير والإنذار ، وما الدين إلا مساعد للعقل على حسن الاختيار.
التفسير والبيان :

يأمر اللّه تعالى عباده بالتفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات الباهرة ذات النظام البديع ، كالكواكب النيرة من ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر ، والليل والنهار واختلافهما ، وتعاقبهما طولا وقصرا ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها ، وما أنزل اللّه منها من مطر ، فأخرج به أنواع

ج ١١ ، ص : ٢٧٧

(٢٨٠/١١)

الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ في الأرض من دواب برية وبحرية مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وثروات معدنية ، وما في البحر من العجائب ، وهو مع ذلك مذلل للسالكين ، يحمل سفنهم ، ويجري بها برفق بتسخير العلي القدير العليم الذي لا إله غيره ، ولا رب سواه : وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ [الذاريات ٥١/ ٢١- ٢٠].

فالنظر في ذلك يرشد إلى وجود الخالق ، ويدعو إلى التصديق بالرسل ، والإيمان بالقرآن والوحي المخبر عن هذه الآيات العظام.

ولكن ما تغني وما تفيد وما تنفع أي لن تغني هذه الآيات أي الدلالات الكونية والقرآنية والرسل المنذرون أو الإنذارات قوما لا يتوقع إيمانهم كما ذكر في (الكشاف) وهم الذين لا يعقلون ، أي لا ينظرون في تلك الآيات. وقال القرطبي : عمن سبق له في علم اللّه أنه لا يؤمن. وقيل : ما استفهامية والتقدير :

أي شيء تغني.

والمعنى على الاستفهام : أي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها لقوم لا يؤمنون باللّه ورسله ، ولم يستخدموا عقولهم فيما خلقت من أجله ؟ وقوله : وَما تُغْنِي ... عَنْ قَوْمٍ أي لا تفيدهم شيئا ، أو أي شيء تغني الآيات وهي الدلائل ، والظاهر أن ما للنفي ، ويجوز أن تكون استفهاما « ١ » .

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ .. يحذّر اللّه المشركين قائلا : فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل وقائع الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ، من نزول العذاب بهم ؟ وهي وقائع اللّه في قوم نوح وعاد وثمود

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ١٩٤

ج ١١ ، ص : ٢٧٨

و غيرهم. والأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم ، والعرب تسمي العذاب أياما والنعم أياما كقوله تعالى : وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ [إبراهيم ١٤/ ٥] ، وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام.

قُلْ : فَانْتَظِرُوا .. قل أيها الرسول لهم منذرا مهددا موعدا : انتظروا عذاب اللّه وعقابه ، إني من المنتظرين هلاككم ، أو فانتظروا هلاكي ، إني معكم من المنتظرين هلاككم ، أو من المنتظرين موعد ربي.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا .. أي إن حكمنا المتبع وسنتنا السائدة أنه إذا وقع العذاب إنجاء رسلنا والمؤمنين معهم ، وإهلاك المكذبين.

كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا ... أي مثل هذا الإنجاء للرسل السابقين ومن آمن معهم ، ننجي المؤمنين معك أيها الرسول ، ونهلك المكذبين بالرسل. وهذا حق أوجبه اللّه تعالى على نفسه الكريمة ، كقوله : كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ [الأنعام ٦/ ٥٤] وكما جاء

في الصحيحين عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « إن اللّه كتب كتابا ، فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- وجوب النظر في الدلائل السماوية والأرضية للاهتداء بها إلى معرفة الخالق ، فلا سبيل إلى معرفة اللّه تعالى إلا بالتدبر في الدلائل ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « تفكروا في الخلق ، ولا تفكّروا في الخالق ، فإنكم لا تقدرون قدره » « ١ » .

---

(١) رواه أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن ابن عباس ، وهو حديث صحيح.

ج ١١ ، ص : ٢٧٩

فعلى الناس الاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال.

٢- وقائع اللّه في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم عبرة وعظة للمكذبين الرسل.

٣- سنة اللّه تعالى عند إيقاع العذاب الشامل إنجاء الرسل والمؤمنين معهم ، وإهلاك الكافرين الضالين المكذبين. وهذا الاصطفاء والتمييز عدل من اللّه ورحمة.

إخلاص العبادة للّه تعالى ونبذ الشرك [سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٧]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠(٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

الإعراب :

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ حذف حرف الجر من إِنْ أمر مطرد ، مثل « أنّ » وقد يكون الحذف غير مطرد ، فيقال : أمرتك الخير ، فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ [الحجر ١٥/ ٩٤].

وَأَنْ أَقِمْ عطف على أَنْ أَكُونَ لكن المعطوف محكي بصيغة الأمر ، ولا ضير في ذلك لأن المقصود هو الوصل بما يتضمن معنى المصدر ، ولا فرق في الأفعال كلها ، سواء الخبر منها والطلب ، والمعنى : وأمرت بالاستقامة في الدين بأداء الفرائض ، والانتهاء عن القبائح ، وقد سوغ سيبويه أن توصل أَنْ بالأمر والنهي ، لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر.

ج ١١ ، ص : ٢٨٠

حَنِيفاً حال من لِلدِّينِ أو من الوجه وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ معطوف على قوله : وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء.

البلاغة :

ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ بينهما طباق.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ .. وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ بين الجملتين مقابلة.

فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ إظهار الفضل في موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد لهم من الخير ، لا استحقاق لهم عليه.

المفردات اللغوية :

يا أَيُّهَا النَّاسُ خطاب لأهل مكة وغيرهم. فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي أي في صحته وأنه حق مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره وهو الأصنام ، لشككم فيه. يَتَوَفَّاكُمْ يقبض أرواحكم ، والمعنى كما ذكر البيضاوي : هذا خلاصة

ديني اعتقادا وعملا ، فاعرضوها على العقل الصرف ، وانظروا إليها بعين الإنصاف ، لتعلموا صحتها : وهو أني لا أعبد ما تختلقونه وتعبدونه ، ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ويتوفاكم. وإنما خص التوفي بالذكر للتهديد. وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أي وأمرت بأن أكون من المصدقين بما دل عليه العقل ونطق به الوحي.

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ أي وبأن أستقيم في الدين بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح.

حَنِيفاً مائلا عن الشرك وتوابعه إلى الدين الحق. ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ بنفسه إن.

دعوته أو خذلته ، فلا ينفعك إن دعوته ، ولا يضرك إن لم تعبده. فَإِنْ فَعَلْتَ فإن دعوته وفعلت ذلك افتراضا.

(٢٨٤/١١)

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ يصبك. بِضُرٍّ أي سوء من مرض أو ألم أو فقر. فَلا كاشِفَ رافع. فَلا رَادَّ فلا دافع لفضله الذي أرادك به. قال البيضاوي : ولعله ذكر الإرادة مع الخير ، والمس مع الضر ، مع تلازم الأمرين ، للتنبيه على أن الخير مراد بالذات ، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول. يُصِيبُ بِهِ أي بالخير. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أي فتعرضوا لرحمته بالطاعة ، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى الأدلة على صحة الدين ووحدانية الخالق وصدق

ج ١١ ، ص : ٢٨١

النبوة ، أمر رسوله بإظهار دينه ، وبإظهار المفارقة بينه وبين الشرك وما عليه المشركون من عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وأن النافع الضار هو اللّه الذين خلقهم ، فتخرج عبادة اللّه من حالة السر إلى الإعلان.

التفسير والبيان :

يأمر اللّه تعالى رسوله صلى اللّه عليه وسلّم بأن يقول لأهل مكة وغيرهم من الناس إلى يوم القيامة : إن كنتم لا تعرفون ديني ، فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ، وإن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه اللّه إلي ، فاعلموا وصفه وأنه لا مجال للشك فيه ، وهو أني لا أعبد الذين تعبدون من دون اللّه ، من حجارة وغيرها لأنها لا تضر ولا تنفع ، بل أعبد اللّه وحده لا شريك له ، الذي يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، وأن أكون من المؤمنين إيمانا حقا باللّه ، العارفين به تمام المعرفة.

وفي هذا تعريض بأن الدين الحق لا يشك فيه ، ويستحسنه ذوو العقول الصحيحة والفطر السليمة ،

وأما عباده الأصنام فمقطوع ببطلانها لأنها لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، ويستنكرها كل عاقل ، فإنها أحجار!!.

(٢٨٥/١١)

و يلاحظ أنه تدرج من نفي عبادة غير اللّه لأن الإزالة في كل شيء بقصد إصلاحه مقدمة على الإثبات ، والتخلي مقدم على التحلي ، ثم انتقل إلى إثبات عبادة اللّه ، ليبين أنه يجب ترك عبادة غير اللّه أولا ، ثم يجب الاشتغال بعبادة اللّه ، ثم انتقل إلى ذكر الإيمان والمعرفة بعد العبادة التي هي عمل جسدي ، ليدل على وجوب تطابق العمل مع الاعتقاد ، فإنه لا جدوى لعمل ما لم ينبع من اعتقاد صحيح يتجلى فيه نور الإيمان والمعرفة. وفي هذا التدرج من نفي عبادة الأصنام إلى إثبات من يعبده وهو الذي يتوفاكم ، وفي ذكر هذا الوصف الدال على التوفي دلالة على البدء وهو الخلق وعلى الإعادة « ١ » .

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ١٩٥

ج ١١ ، ص : ٢٨٢

وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ .. أي وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقيم وجهي للدين القيم ، أي بالاستقامة في أمر الدين بالتزام الأوامر واجتناب النواهي ، وبأن أخلص العبادة للّه وحده ، حنيفا أي مائلا عن الشرك والباطل إلى الدين الحق ، ولهذا قال : وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أي ممن يشرك في عبادة اللّه إلها آخر ، وهو معطوف على قوله : وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أي قيل لي : كن من المؤمنين وأقم وجهك ولا تشرك.

فقوله أَقِمْ وَجْهَكَ معناه استقم إليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالا. ونظير الآية قوله تعالى : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً ، وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام ٦/ ٧٩].

وهذا يدل على وجوب التوجه في العبادة والدعاء إلى اللّه وحده ، دون التفات إلى شيء سواه ، فمن توجه بقلبه إلى غير اللّه في عبادة أو دعاء فهو عابد غير اللّه.

(٢٨٦/١١)

لذا قال تعالى : وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ... أي لا تدع ولا تعبد أيها الرسول متجاوزا اللّه تعالى ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة إن دعوته ، ولا يضرك أصلا إن تركت دعاءه. فإن فعلت هذا وعبدت ودعوت غير اللّه ، كنت حينئذ من الظالمين نفسك لأنه لا ظلم أكبر من الشرك

باللّه تعالى ، ومن الظلم وضع العبادة في غير موضعها.

ثم أكد اللّه تعالى سلب صلاحية النفع والضر عن غير اللّه ، فقال : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ... أي وإن تتعرض لضرر يمسّ جسمك أو مالك من مرض أو فقر أو ألم ، فلا كاشف أو لا رافع له إلا اللّه ، وإن يردك أو يخصك اللّه بخير منه في دينك أو دنياك من نصر ورخاء ونعمة وعافية ، فلا دافع لفضله إلا اللّه إذ

ج ١١ ، ص : ٢٨٣

لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ولا مانع لفضله أحد ، وهو القادر على كل شيء ، يمنح ويمنع ، ويعطي ويحرم ، يفعل كل ذلك بحكمة وعلم.

والفضل الإلهي يكون عادة عاما بعموم الرحمة ، أما الضرر فإنه لا يقع إلا بسبب ، فإن البلاء لا يقع إلا بذنب ، ولا يرتفع إلا بتوبة : وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ [الشورى ٤٢/ ٣٠].

وهو سبحانه الغفور الرحيم لمن تاب إليه ، ولو من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه ، فتعرضوا لرحمته بالطاعة ، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمرين : تخصيص العبادة باللّه تعالى ونبذ الشرك ، وبيان أن الضار والنافع هو اللّه تعالى ، مما يوجب استحقاقه العبادة.

أما تخصيص العبادة وإخلاصها بنحو كامل نقي للّه عز وجل فيتطلب ضوابط أو قيودا ستة مفهومة من الآيات الثلاث الأولى وهي ما يأتي :

١- الامتناع النهائي البات المطلق عن عبادة غير اللّه بمختلف الأشكال.

٢- عبادة اللّه تعالى وحده دون سواه لأنه المحيي المميت وإليه المرجع والمآب.

٣- التصديق أو الإيمان الكامل الذي لا يخالجه أي شك بآيات اللّه.

٤- الاستقامة على أمر الدين بأداء الفرائض واجتناب القبائح ، والميل التام عما سوى الدين والشرع القويم ، فقوله : وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً كما قال الرازي : إشارة للاستغراق في نور الإيمان والإعراض بالكلية عما سواه.

ج ١١ ، ص : ٢٨٤

٥- تجنب كل مظاهر الشرك الحقيقي الظاهر من عبادة الأوثان ونحوها ، وهذا صار مفهوما من آية فَلا

أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وتجنب ما يسمى بالشرك الخفي وهو الرياء ، وهو المراد بقوله تعالى : وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

٦- الامتناع من عبادة أي شيء سوى اللّه ، مما لا يضر ولا ينفع ، ولا يغني من الحق شيئا ، ولا يفيد شيئا عند اللّه ، ولا ينفع عابده أو داعيه ، فمثل تلك العبادة والتعظيم لغير صاحب العظمة والجلال ظلم بحت بوضع العبادة في غير موضعها ، وضياع وإهدار للجهود ، وعدم إثمارها شيئا ما.

وأما النفع والإضرار وجلب الخير ودفع الشر : فلا يؤمل الخير من غير اللّه تعالى ، ولا يدفع الشر بغير اللّه تعالى ، ولا يمنح الفضل سوى اللّه ، ولا يكشف السوء غير اللّه عز وجل ، وهو سبحانه في كل الأحوال غفور لمن استغفره ، رحيم بمن تاب إليه وأناب ، ولو من أعظم المعاصي والجرائم هو الشرك.

ففي قوله تعالى : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ الآية بيان أن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى اللّه تعالى وحده ، لا يشاركه في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، وتكون هذه الآية مؤكدة للآيات السابقة ، ومكملة لها ، ومبرهنة لكل ذي عاقل أن المعبود بحق هو اللّه الذي يكشف الضر والسوء ، ويمنح الفضل والخير.

(٢٨٨/١١)

روى الحافظ ابن عساكر عن أنس بن مالك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن للّه نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوا أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم » .

٧- المغفرة والرحمة تشملان كل من تاب وأناب ، ولو من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإن اللّه يتوب عليه.

ج ١١ ، ص : ٢٨٥

الإسلام دين الحق ووجوب اتباعه [سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (١٠٩)

الإعراب :

وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ مبتدأ وخبر.

البلاغة :

فَمَنِ اهْتَدى .. وَمَنْ ضَلَّ بينهما طباق.

يَحْكُمَ اللَّهُ .. الْحاكِمِينَ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ أي أهل مكة وغيرهم. قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ .. أي رسوله والقرآن ، ولم يبق لكم عذر. فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ لأن نفعه وثواب اهتدائه له. وَمَنْ ضَلَّ بالكفر بالقرآن والرسول صلى اللّه عليه وسلّم. فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها لأن وبال الضلال عليها. وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ بحفيظ موكول إليّ أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير.

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ من ربك بالامتثال والتبليغ. وَاصْبِرْ على دعوتهم وأذاهم.

حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فيهم بامره بالنصرة أو بالأمر بالقتال. وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ أعدلهم إذ لا يمكن الخطأ في حكمه ، لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر.

ج ١١ ، ص : ٢٨٦

المناسبة :

هذه خاتمة عظيمة موجزة أجملت ما في السورة من مبدأ اتباع شريعة اللّه ووحيه إلى نبيه ، فبعد أن قرر سبحانه وتعالى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وزيّن آخر هذه السورة بالبيان الدال على استقلاله تعالى بالخلق ، والإبداع ، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية ، وهي إكمال الشريعة أو دين الحق ، وأزال علة التنكر لها ، وأوجب اتباعها ، وأوضح للناس كافة طريق الرؤية الصحيحة : فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها ، وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.

التفسير والبيان :

قل أيها الرسول للناس قاطبة ، من حضر ومن ستبلغه هذه الدعوة : قد جاء الحق المبين من ربكم ، يبين حقيقة هذا الدين ، وكمال هذه الشريعة ، على لسان رجل منكم.

فاللّه تعالى يأمر رسوله صلى اللّه عليه وسلّم أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند اللّه تعالى هو الحق الذي لا شك فيه.

فمن اهتدى به ، وصدق القرآن ورسول اللّه ، واتبعه ، فإنما يهتدي لنفسه ، أي يعود نفعه وثواب اهتدائه واتباعه على نفسه ، ومن ضل عنه وحاد عن منهجه ، فإنما يضل على نفسه ، أي يرجع وبال ذلك عليه.

وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أي وما أنا بموكّل بكم من عند اللّه بأموركم حتى أجعلكم مؤمنين وأكرهكم على الإيمان ، وإنما أنا نذير منذر لكم عذاب اللّه لمن أعرض وكذب ، وبشير مبشر من اهتدى ، والهداية على اللّه تعالى.

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ .. أي اتبع يا محمد ما أنزل اللّه عليك وأوحاه إليك ، وتمسك به أشد التمسك ، واصبر على دعوتك وأذى قومك ومخالفة من

ج ١١ ، ص : ٢٨٧

(٢٩٠/١١)

خالفك من الناس ، حتى يحكم اللّه ، أي يقضي بالفصل بينك وبينهم ، أي المكذبين فينصرك عليهم ويحقق لك الغلبة ، وهو خير الحاكمين أي أعدل الحكام وأحكمهم ، يقضي بالعدل التام والحكمة الصحيحة والواقع الحقيقي. وقد أنجز اللّه وعده لنبيه صلى اللّه عليه وسلّم فنصره مع الجند المؤمنين ، على فئات المشركين ، واستخلفهم في الأرض ، وجعلهم الأئمة الوارثين.

وفي هذا تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلّم عما لقيه من أذى قومه ، ووعد للمؤمنين أنصاره ، ووعيد للكافرين أعدائه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيتان إلى ما يأتي من الأحكام :

١- الإسلام دين الحق وشريعة اللّه الكاملة ، والقرآن مصدر هذا الحق والشرع ، والرسول صلى اللّه عليه وسلّم هو المعبّر عن الدين الحق المبلغ له.

٢- الإسلام منهج الهداية الربانية ومعقد الأمل والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، فمن أبصر الحق واتبع سبيل الهداية الإلهية بما فيها من اعتقاد حق صحيح ، وتشريع عادل ، ونظام سديد ، فاز ونجا وأسعد نفسه ، ومن تنكب طريق الحق ، وترك الرسول صلى اللّه عليه وسلّم والقرآن ، واتّبع الأصنام والأوثان ، وسار مع الأهواء وتقليد الآباء والأجداد ، هلك ووبال ذلك على نفسه.

٣- ما الرسول إلا مبلغ وحي اللّه ، مبشر من أطاعه بالجنة ، منذر من عصاه بالنار ، لا يملك إكراه أحد على الإيمان بدعوته ، واتباع رسالته.

٤- الرسول كغيره من الرسل والمؤمنين يجب عليه اتباع ما أوحى اللّه له ، والصبر على الطاعة وعن المعصية ، فإن أصابه مكروه بسبب نشر دعوته ، فليصبر عليه إلى أن يحكم اللّه فيه وله بالنصر على أعدائه والغلبة على المكذبين.

ج ١١ ، ص : ٢٨٨

قال ابن عباس : لما نزلت جمع النبي صلى اللّه عليه وسلّم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم ، فقال : « إنكم ستجدون بعدي أثرة « ١ » ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .

٥- لا يحكم اللّه عز وجل إلا بالحق والعدل ، وحكمه مطابق يقينا للواقع لأنه يعلم السرائر والبواطن

كما يعلم الظواهر.

---

(١) أي حب الذات والمؤاثرة عليكم ، فيفضل غيركم مثلا في نصيبه من الفيء ، وتكون الأولوية للأتباع والأشياع ، لا للذين سبقوا إلى الإيمان ونصرة الإسلام.

ج ١٢ ، ص : ٥

[الجزء الثاني عشر]

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية.

تسميتها :

سميت سورة هود لاشتمالها على قصة هود عليه السلام مع قومه : « عاد » في الآيات [٥٠- ٦٠] وهي كغيرها من قصص القرآن تمثل صراعا حادا عنيفا بين هود عليه السلام وبين قومه الذين دعاهم إلى عبادة اللّه تعالى ، وهجر عبادة الأصنام والأوثان ، فلما أصروا على كفرهم وتكذيبه ، عذبهم اللّه بعذاب غليظ شامل وهو الريح العقيم الصرصر ، التي سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ [هود ١١/ ٥٨] وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى ، كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ [الحاقة ٦٩/ ٦- ٨].

نزولها وشأنها ومناسبتها لما قبلها :

هذه السورة مكية أي نزلت في مكة إلا الآيات الثلاث التالية وهي :

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ .. [١٢] كما قال ابن عباس ومقاتل ، وقوله : أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ .. أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. [١٧] فإنها

ج ١٢ ، ص : ٦

نزلت في ابن سلام وأصحابه ، وقوله : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ .. [١١٤] فإنها نزلت في نبهان التمار.

وقد نزلت بعد سورة يونس ، وهي منفقة معها في معناها وموضوعها وافتتاحها ب الر واختتامها بوصف الإسلام والقرآن والنبي الذي جاء بالحق من اللّه ، والدعوة إلى الإيمان بما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وتفصيلها ما أجمل في سورة يونس من أمور الاعتقاد من إثبات الوحي والتوحيد والبعث والمعاد والثواب والعقاب والحساب ، وإعجاز القرآن وإحكام آياته ، ومحاجّة المشركين في ذلك وتحديهم بالقرآن ، وذكر قصص بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

وتمتاز هذه السورة بما فيها من القوارع والزواجر التي اشتملت عليها قصص هؤلاء الأنبياء ، والدعوة الشديدة إلى الاستقامة ، مبتدأة بالنبي صلى اللّه عليه وسلّم ،

روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول اللّه ، قد شبت ، قال : « شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » .

وسئل النبي صلى اللّه عليه وسلّم عما شيبة من سورة هود ، فقال : قوله تعالى : فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ.

ومن فضائلها :

ما أسنده أبو محمد الدارمي في مسنده عن كعب قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة »

و

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « من قرأ سورة هود ، أعطي من الأجر عشر حسنات .. » .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة كسورة يونس أصول الدين العامة وهي التوحيد ، والرسالة ، والبعث والجزاء ، وتوضيح هذه العناصر إجمالا فيما يأتي :

ج ١٢ ، ص : ٧

١- إثبات كون القرآن من عند اللّه ، من طريق إحكام آياته وإتقانها بنظمها نظما رصينا محكما لا نقص فيه ولا خلل ، كالبناء المحكم ، ثم تفصيلها في الحال دون تراخ ، ببيان دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص والتفرقة بين الحق والباطل ، ومن طريق إعجاز القرآن وتحديه العرب بأن يأتوا بعشر سورة مثله : أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ ، قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ

مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [هود ١١/ ١٣] وبعد أن عجزوا عن محاكاته والإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه ، أعلن اللّه تعالى إفلاسهم وعجزهم فقال : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ [هود ١١/ ١٤].

٢- توحيد اللّه : وهو نوعان :

أ- توحيد الألوهية : وهو عبادة اللّه وحده وعدم عبادة أحد سواه ، كما قال تعالى في مطلع هذه السورة : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. فعبادة كل من سواه كفر وضلال.

ب- توحيد الربوبية : أي الاعتقاد بأن اللّه وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون ، والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنته. وكان عرب الجاهلية يؤمنون بأن اللّه هو الرب الخالق : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. [العنكبوت ٢٩/ ٦١] ولكنهم كانوا يقولون بتعدد الآلهة. وورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت توحيد الربوبية ، مثل المذكور في هذه السورة : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ..

[٧] والخلق : التقدير المحكم الذي تكون فيه الأشياء على مقادير متناسبة ، ثم أريد به الإيجاد التقديري.

٣- إثبات البعث والجزاء : للإيمان بهما وللترغيب والترهيب ، كما في قوله

تعالى : إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٤] وقوله : وَلَئِنْ قُلْتَ : إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [٧].

٤- اختبار البشر لمعرفة إحسان أعمالهم : لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [٧].

٥- الموازنة بين طبع المؤمن والكافر في أحوال الشدة والرخاء ، فالمؤمن صابر وقت الشدة ، شاكر وقت الرخاء ، والكافر فرح فخور حال النعمة ، يئوس كفور حال المصيبة [الآيات ٩- ١١].

٦- استعجال البشر الخير والنفع ، والعذاب الذي ينذر به الرسل : وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ : ما يَحْبِسُهُ .. [٨] وقال تعالى في سورة يونس المتقدمة : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ ، لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ [١١].

٧- طبائع البشر مختلفة حتى في قبول الدين إلا من رحم ربك :

وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ .. [١١٨- ١١٩] أي أن لهذا الاختلاف فوائد علمية وعلمية ، كما أن فيه مضارّ إذا أدى إلى التفرق في الدين والاختلاف في أصول الحياة والمصالح

العامة.

٨- إيراد قصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلّم على ما يتعرض له. من أذى قريش وصدودهم عن دعوته : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ .. [١٢٠] ، وفي كل قصة عبرة وعظة أيضا للمؤمنين. وقد ذكر اللّه قصة نوح أب البشر الثاني وأمره له بصناعة الفلك ، لنجاته ومن معه من المؤمنين ، وإغراق قومه بالطوفان الذي عم الأرض ، ونوح أطول الأنبياء عمرا ، وأكثرهم بلاء وصبرا [الآيات : ٢٥- ٤٩] وتبين من قصته أن أتباع الرسل عادة هم

الفقراء ، كما حكى تعالى عن قوم نوح : وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ [هود ١١/ ٢٧].

ثم ذكر اللّه تعالى قصة هود الذي سميت السورة باسمه ، ودعوته قومه « عاد » الأشداء العتاة المتجبرين إلى عبادة اللّه تعالى ، فاعترفوا بقوتهم وقالوا :

مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ فأهلكهم اللّه بريح صرصر عاتية في بحر أسبوع :

سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً [الحاقة ٦٩/ ٧] وعبر عن ذلك بأنه عذاب غليظ ، بسبب الكفر والجحود بالآيات الإلهية : وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .. [الآيات : ٥٠- ٦٠].

ثم ذكر سبحانه قصة صالح مع قومه ثمود [الآيات : ٦١- ٦٨]. وأشار إلى قصة ضيوف إبراهيم من الملائكة [الآيتان : ٦٩- ٧٠] ثم قصة « لوط » [الآيات : ٧٠- ٨٣] ثم قصة شعيب [الآيات : ٨٤- ٩٥] ثم قصة موسى مع فرعون [الآيات : ٩٦- ٩٩].

٩- التعقيب المباشر على ما في تلك القصص من عبر وعظات ، بإهلاك الظالمين ، كما قال تعالى : ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ [الآيات : ١٠٠- ١١١].

١٠- الأمر بالاستقامة في الدين [الآية : ١١٢] وهو أمر ثقيل شديد على النفس ، يتطلب جهاد النفس ، والصبر على أداء الواجبات ، وحمايتها من الموبقات المهلكات.

١١- الطغيان سبيل الدمار ، والركون إلى الظلم موجب عذاب النار :

وَلا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ [الآية : ١١٣].

١٢- الأمر بإقامة الصلاة في أوقاتها ليلا ونهارا لأن الحسنات يذهبن

ج ١٢ ، ص : ١٠

السيئات [الآية : ١١١] والصبر على الطاعة ، فإن اللّه لا يضيع أجر المحسنين [الآية : ١١٥].

١٣- محاربة الفساد في الأرض من أجل حفظ الأمة والأفراد من الهلاك :

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ [الآية : ١١٦].

١٤- لا إهلاك ولا عذاب للأمم في حال الإصلاح [الآية : ١١٧].

١٥- تهديد المعرضين عن دعوة الحق بالعذاب ، وجعل العاقبة للمتقين.

ويلاحظ أن التهديد والترغيب أمران متلازمان مفيدان في إصلاح الأفراد والجماعات ، وبناء الأمة وتحقيق غلبتها على خصومها ، لذا اقترنا غالبا في القرآن.

١٦- ختمت السورة بما بدئت به من الأمر بعبادة اللّه وحده والاتكال عليه ، والتحذير من عقابه : وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، ليتناسق البدء مع الختام.

إحكام القرآن ودعوته إلى عبادة اللّه والتوبة إليه والإيمان بالبعث [سورة هود (١١) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

ج ١٢ ، ص : ١١

الإعراب :

كِتابٌ أُحْكِمَتْ كتاب : كتاب : خبر مبتدأ محذوف ، وأُحْكِمَتْ صفة له ، وقال الرازي :

الر اسم للسورة وهو مبتدأ ، وكِتابٌ خبره ، وذكر البيضاوي الوجهين.

مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ صفة ثانية ، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت ، أي من عنده إحكامها وتفصيلها.

أَلَّا تَعْبُدُوا إما أن تكون « أن » مفسرة بمعنى أي لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل : قال : ألا تعبدوا إلا اللّه ، أو آمركم ألا تعبدوا إلا اللّه ، مثل قوله تعالى : أَنِ امْشُوا [ص ٣٨/ ٦] أي امشوا.

وإما أن تكون مفعولا لأجله ، على معنى : لئلا تعبدوا إلا اللّه.
وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا معطوف على أَلَّا تَعْبُدُوا على الوجهين السابقين.
إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه.
يُمَتِّعْكُمْ مجزوم لأنه جواب الأمر ، وهو قوله : وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ وجزم جواب الأمر لأنه جواب لشرط مقدّر.
وَإِنْ تَوَلَّوْا أصله : تتولّوا ، فحذفت إحدى التاءين ، لاجتماع حرفين متحركين من جنس واحد ، فاستثقلوا اجتماعهما ، فحذفوا إحداهما تخفيفا.
البلاغة :
أُحْكِمَتْ .. وفُصِّلَتْ بينهما طباق حسن لأن المعنى : أحكمها حكيم ، وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور. وكذلك بين نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ طباق أيضا.
عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إضافة العذاب إلى اليوم الكبير وهو يوم القيامة للتهويل.
المفردات اللغوية :
الر تقرأ بأسمائها ساكنة ، كما ذكر في أول سورة يونس ، فيقال : ألف ، لام ، را ، وهي للتحدي والإلزام للعرب الفصحاء ، لإثبات إعجاز القرآن وكونه من عند اللّه ، أو هي حروف تنبيه مثل : ألا ، لما سيلقى بعدها. والسور المفتتحة بمثل تلك الحروف مكية إلا سورتي البقرة وآل عمران. والسور المكية تعنى بإثبات التوحيد والبعث والوحي وإعجاز القرآن ، وفيها غالبا قصص الأنبياء.
ج ١٢ ، ص : ١٢

أُحْكِمَتْ آياتُهُ نظمت نظما محكما لا خلل فيه من جهة اللفظ والمعنى ثُمَّ فُصِّلَتْ بينت الأحكام والقصص والمواعظ ، وبالإحكام والتفصيل يصبح القرآن كامل الصورة والمعنى. وقال الزمخشري : ثُمَّ فُصِّلَتْ كما تفصل القلائد (أي عقود النساء) بالفرائد من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، أو جعلت فصولا سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة ، أو فصل بها ما يحتاج إليه العباد ، أي بيّن ولخص « ١ » .
وقوله : ثُمَّ فُصِّلَتْ ليس معناها التراخي في الوقت ، ولكن في الحال ، كما تقول : هي محكمة أحسن الإحكام ، ثم مفصلة أحسن التفصيل ، وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل « ٢ » .
مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أي من عند اللّه الحكيم الصنع في أقواله وأفعاله وأحكامه ، العليم بأحوال الناس والكون ، في الظاهر والباطن ، الخبير بعواقب الأمور.

نَذِيرٌ بالعذاب إن كفرتم أو أشركتم وَبَشِيرٌ بالثواب إن آمنتم أو التزمتم عقيدة التوحيد وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ من الشرك والمعاصي ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ارجعوا بالطاعة يُمَتِّعْكُمْ في الدنيا مَتاعاً حَسَناً بطيب عيش وسعة رزق. والمتاع : كل ما ينتفع به في المعيشة.

إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى هو الموت أو العمر المقدّر وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ أي يعط كل محسن ذي فضل في العمل جزاءه وَإِنْ تَوَلَّوْا أصله : تتولوا ، فحذفت إحدى التاءين ، أي تعرضوا عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ هو يوم القيامة أو يوم الشدائد ، وقد ابتلي مشركو مكة بالقحط حتى أكلوا الجيف.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ رجوعكم في ذلك اليوم وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ القادر على كل شيء ، ومنه الثواب والعذاب ، وكأنه تقرير لكبر ذلك اليوم.

التفسير والبيان :

موضوع هذه الآيات تقرير أصول الدين وهي إحكام القرآن وتفصيله ، والدعوة إلى عبادة اللّه وتوحيده والإنابة إليه ، والإيمان بالبعث والجزاء في عالم الآخرة.

والمعنى : هذا كتاب عظيم الشأن جليل القدر ، محكم النظم والمعنى ، لا خلل

---

(١) الكشاف : ٢/ ٨٩

(٢) الكشاف : ٢/ ٩٠

فيه ولا نقص ، فهو كامل الصورة والمعنى لأنه صادر من عند اللّه الحكيم في أقواله وأحكامه ، الخبير بحوائج عباده وبعواقب الأمور.

ففي هذه السورة كغيرها من السور تبيان حقائق الاعتقاد وتفنيد أباطيل الكافرين ، وتوضيح أسلم الأحكام التشريعية للحياة ، وأقوم المناهج والفضائل والمواعظ من خلال القصص القرآني والتنبيه إلى غرر الشمائل والأخلاق.

أَلَّا تَعْبُدُوا .. أي أن هذا الكتاب المحكم نزل بألا تعبدوا غير اللّه ولا تشركوا به شيئا ، أو أنه نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة اللّه وحده لا شريك له ، أو لئلا تعبدوا إلا اللّه ، وهذا كقوله تعالى : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء ٢١/ ٢٥] وقوله : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل ١٦/ ٣٦].

إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ أي ، وقل للناس : إنني كائن لكم من جهة اللّه ، نذير من العذاب ، إن

خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه ، كما جاء
في الحديث الصحيح أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم صعد الصفا ، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب ، فاجتمعوا ، فقال : « يا معشر قريش ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ، ألستم مصدّقي ؟ » فقالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

(٩/١٢)

و هذا بيان مهمة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ووظيفته وهي الإنذار لمن عصاه بالنار ، والتبشير لمن أطاعه بالجنة.
وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ... أي : وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة ، أي أن تطلبوا المغفرة من الشرك والكفر والمعاصي ، وأن تتوبوا منها إلى اللّه عز وجل بالندم على ما مضى ، والعزم على عدم العودة إلى الذنوب في المستقبل ،
ج ١٢ ، ص : ١٤
و الاستمرار على ذلك ، فإن استغفرتم وتبتم من الذنوب ، يمتعكم متاعا حسنا في الدنيا ، أي يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، من عيشة طيبة ورزق واسع ونعمة متتابعة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى أي إلى أن يتوفاكم ، كقوله تعالى :
فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً [النحل ١٦/ ٩٧]. والجمع بين الاستغفار والتوبة للدلالة على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند اللّه إلا بإظهار التوبة ، والاستغفار مطلوب بالذات ، والتوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار ، هذا على أساس أنهما معنيان متباينان لأن الاستغفار طلب المغفرة وهي الستر ، والتوبة :
الانسلاخ من المعاصي ، والندم على ما سلف منها ، والعزم على عدم العود إليها ، والمعنى : استغفروا من الشرك ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. ومن قال : الاستغفار توبة ، جعل قوله : ثُمَّ تُوبُوا بمعنى أخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والعبادة.
وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ أي ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل جزاء فضله لا يبخس منه.

(١٠/١٢)

و التمتيع في الدنيا والثواب في الآخرة جمع بين الجزاءين ، إلا أن جزاء الدنيا موقوت محدود ، وجزاء الآخرة دائم مطلق غير مقيد بشي ء. وفي هذا دلالة على أن جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس إلا منه تعالى ، وليس إلا بإيجاده وتكوينه وإعطائه ، كما أن فيه إشارة إلى أن ثواب الدنيا لمجموع الناس ، لا لكل فرد فرد ، وأما جزاء الآخرة فمخصوص بكل فرد على حدة.

ومن عادة القرآن أن يذكر الشيء وفائدته للترغيب فيه ، ثم يذكر مقابله للترهيب والتهديد ، والتنفير ، فقال تعالى : وَإِنْ تَوَلَّوْا .. أي وإن أعرضتم عما دعوتكم إليه من عبادة اللّه وحده لا شريك له ، فإني أخشى عليكم عذاب يوم كبير هو يوم القيامة ، وصف بالكبر لما فيه من الأهوال ، كما وصف بالعظم والثقل والشدة والألم ، لما فيه من العظائم والشدائد والأثقال والآلام.

ج ١٢ ، ص : ١٥

ثم بيّن عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء ، ومنه العذاب والثواب ، أي أن معادهم يوم القيامة ، إلى اللّه القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه ، وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة. ولفظ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ يفيد الحصر ، يعني أن مرجعنا إلى اللّه لا إلى غيره.

وهذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر اللّه تعالى ، وكذّب رسله ، فإن العذاب يناله يوم القيامة ، لا محالة. وهو ترهيب يقابل الترغيب السابق.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- آي القرآن الكريم محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل ، منظمة بنظم محكم اللفظ والمعنى ، لا تناقض فيها ولا اضطراب ، مفصلة تفصيلا تاما شاملا جميع الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها ، فهي كاملة الصورة والمعنى ، محققة للمصالح البشرية في الدنيا والآخرة. وقوله : الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ دليل على وجود الصانع الخالق.

٢- دعوة القرآن صريحة تتجه نحو تحقيق العبودية للخالق المنعم المتفضل ، وتخصيصه وإفراده بالعبادة ، دون أي أحد سواه ، فالآية مشتملة على الأمر بعبادة اللّه ، ومنع عبادة غير اللّه.

٣- وظيفة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم هي الإنذار والتخويف لمن عصاه بالعذاب ، والتبشير بالرضوان والجنة لمن أطاعه.

٤- واجب الإنسان الاستغفار ، أي طلب المغفرة من الشرك والذنوب ، والتوبة والإنابة إلى اللّه بالطاعة والعبادة ، فمعنى قوله تُوبُوا ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع عن

الذنب توبة الكذابين.

ج ١٢ ، ص : ١٦

٥- إن ثمرة الاستغفار والتوبة وهو الفضل الإلهي على الإنسان المؤمن الطائع أمر عظيم واسع شامل الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا تمتيع إلى نهاية العمر المقدر بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، وعدم الاستئصال بالعذاب كما فعل بمن أهلك من الأمم السابقة ، فالمتاع الحسن : وقاية من كل مكروه وأمر مخوف ، واستمتاع بطيبات الحياة. وفي الآخرة إيتاء كل ذي عمل من الأعمال الصالحة جزاء عمله. ودلت الآية على أن لكل إنسان أجلا واحدا فقط.

٦- مرجع أو معاد الخلائق جميعا بعد الموت إلى اللّه تعالى القادر على كل شيء من ثواب وعقاب. وهذا ترهيب بعد الترغيب السابق.

إعراض الكفار عن الحق [سورة هود (١١) : آية ٥]

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٥)

البلاغة :

ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يعرضون عن الحق ، ويطوون صدورهم على ما فيها من حقد وحسد وعداوة النبي صلى اللّه عليه وسلّم لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أي يحاولوا الخفاء من اللّه أو ليتواروا عن محمد يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يتغطون بها يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ في قلوبهم وَما يُعْلِنُونَ في أفواههم ، فاللّه تعالى يستوي في علمه سرهم وعلنهم ، فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي بالأسرار ذات الصدور ، أو بالقلوب وأحوالها.

ج ١٢ ، ص : ١٧

سبب النزول :

روى البخاري عن ابن عباس في قوله : أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ قال :

كان أناس يستحيون أن يتخلوا ، فيفضوا بفروجهم إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم ، فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم. أي كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل اللّه هذه الآية ، أي في المسلمين.

وأخرج ابن جرير وغيره عن عبد اللّه بن شداد قال : كان أحدهم إذا مرّ بالنبي صلى اللّه عليه وسلّم ثنى صدره لكيلا يراه ، فنزلت.

وقيل : إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا : إذا أرخينا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا ، وطوينا صدورنا على عداوة محمد ، كيف يعلم ؟

وذكر الواحدي والقرطبي : أنها نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، يلقى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بما يحب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء.

والظاهر لي أن الآية في إعراض الكفار عن الحق ، بدليل ما قبلها وما بعدها.

المناسبة :

بعد وصف حالة الكفار وبيان أنهم إن أعرضوا عن عبادة اللّه وطاعته ، تعرضوا لعذاب يوم كبير ، بيّن اللّه تعالى أن التولي عن ذلك باطنا أو سرا كالتولي عنه ظاهرا ، وأن إعراضهم متصف بالحيرة والجهل.

التفسير والبيان :

ألا إن الكفار أو المشركين حين يسمعون الدعوة إلى اللّه ، يعرضون عن

النبي صلى اللّه عليه وسلّم بصدورهم ، كيلا يراهم النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، ولا يراهم أحد ، إمعانا في العناد والكفر. وقوله : أَلا للتنبيه.

ألا حين يستغشون ثيابهم ويغطون بها رؤوسهم ، ليستخفوا أو يتواروا من محمد أو من اللّه ، يظنون أن اللّه لا يراهم ، مع أن اللّه يعلم ما يسرون في قلوبهم ، وما يعلنون بأفواههم ، ويعلم ما يسرون ليلا ، وما يظهرون نهارا.

وكرر أَلا للتنبيه على وقت استخفائهم. وعود الضمير إلى اللّه أولى ، لقوله تعالى : يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ.

إن اللّه عليم بالأسرار ذات الصدور ، وبخواطر القلوب ، فليحذر من يظن أن أسراره خفية على اللّه ، وليعلم أن اللّه مطلع على كل شيء في الوجود ، وما تنطوي عليه النفوس من شكوك وأوهام ، ويجازي كل إنسان بما أسر وأعلن.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على تصميم الكفار في إعراضهم عن سماع القرآن ، ودعوة النبي صلى اللّه عليه وسلّم إلى الإيمان برسالته ، وأنهم بهذا الإعراض أغبياء جاهلون.

ودلت أيضا على أنه لا فائدة في استخفائهم وتواريهم عن اللّه أو عن محمد صلى اللّه عليه وسلّم لأن اللّه مطلع على كل شيء في الوجود من النيات والضمائر والسرائر ، ومن الأقوال والأفعال العلنية ، يستوي علمه بالسر مع علمه بالجهر ، ولا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم.

ج ١٢ ، ص : ١٩

فضل اللّه وعلمه وقدرته [سورة هود (١١) : الآيات ٦ الى ٧]

وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)

المفردات اللغوية :

وَما مِنْ دَابَّةٍ : مِنْ : زائدة ، والدّابة في اللغة : كل ما يدبّ على الأرض ، زحفا على بطنه أو مشيا على قوائمه ، وإطلاق الدّابة على الخيل والبغال والحمير إطلاق عرفي. رِزْقُها غذاؤها ومعاشها ، لتكفله إياها تفضّلا ورحمة. وإنما أتى بلفظ الوجوب بهذا التّعبير تحقيقا لوصوله وضمانه وحملا على التّوكل فيه.

مُسْتَقَرَّها مكانها من الأرض ومسكنها. وَمُسْتَوْدَعَها ما كانت مودعة فيه قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ، والمراد بالمستقر والمستودع : أماكن الحياة والممات ، أو الأصلاب والأرحام. كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ كلّ مما ذكر ، أي كلّ واحد من الدواب وأحوالها ورزقها ومستقرّها ومستودعها مذكور في اللوح المحفوظ ، مكتوب فيه مبيّن ، والمراد بالآية كونه عالما بالمعلومات كلها ، وكونه قادرا على الممكنات بأسرها ، لتقرير التوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد.

وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ أي وكان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السّموات والأرض. وليس المعنى على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر ، وإنما كقوله : السماء على الأرض. والماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم.

والعرش : مركز التنظيم للملك ومصدر التدبير ، وهو أعظم من السموات والأرض.

لِيَبْلُوَكُمْ متعلّق بخلق ، أي خلق ذلك لحكمة بالغة هي أن يعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم المختبر لأوضاعكم كيف تعملون. والابتلاء : الاختبار والامتحان. أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أي أطوع للّه ، وأعمال

المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن ، وأما أعمال الكافرين فتتفاوت إلى حسن

ج ١٢ ، ص : ٢٠

و قبيح. إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أي ما هذا القرآن الناطق بالبعث ، والذي تقوله يا محمد إلا سحر ، أي تخييل وتمويه ، مُبِينٌ أي بيّن ظاهر البطلان. ويجوز تضمين قُلْتَ معنى ذكرت. ومعنى قولهم : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أن السحر أمر باطل ، وأن بطلانه كبطلان السحر ، تشبيها له به.

المناسبة :

لما بيّن اللّه تعالى في الآية السابقة أنه يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ أردفه بما يدلّ على كونه تعالى عالما بجميع المعلومات ، قادرا على كل شيء ، فهو الخالق والرّازق والعالم بأحوال البشر ، والباعث لهم بعد الموت ، فالبعث واقع لا محالة.

التفسير والبيان :

ما من نوع من أنواع دواب الأرض أو البحر أو الجوّ إلا على اللّه رزقها ومعيشتها وغذاؤها المناسب لها ، المعدّ لطعامها بعد البحث والحركة والعمل ، ويعلم مستقرّها ومستودعها ، أي يعلم منتهى سيرها في الأرض حيث تأوي إليه وهو مستقرّها ، والموضع الذي تأوي إليه من وكرها ، ومكان موتها ودفنها ، وهو مستودعها ، وهذا يشمل بداية تكوينها ووجودها في الأصلاب والأرحام وأيام الحياة والممات. وكل ما ذكر من كلّ الدّواب وأرزاقها ومستقرّها ومستودعها ثابت مكتوب في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه جميع مقادير الخلق.

و هذا دليل على أن اللّه تعالى متكفل بأرزاق المخلوقات كلها ، وقد أوجب ذلك على نفسه بكلمة عَلَى المفيدة للوجوب تفضّلا منه ورحمة ، إلا أن الرّزق بمقتضى سنّته تعالى في الكون خاضع لمبدأ ارتباط الأسباب بالمسببات ، أي أن الحصول على الرّزق مرتبط بالسّعي والعمل ، بعد توافر الإلهام المودع في الخلائق ، وهدايتهم إلى الطّلب والتّحصيل ، كما قال تعالى : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه ٢٠/ ٥٠].

ج ١٢ ، ص : ٢١

و نظير الآية قوله تعالى : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ، ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ [الأنعام ٦/ ٣٨] ، وقوله تعالى : وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ ، وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ [الأنعام ٦/ ٥٩].

وبعد أن أثبت تعالى بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات ، أثبت بكونه خالقا السموات والأرض كونه تعالى قادرا على كل المقدورات ، وفي الحقيقة كل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم اللّه وعلى كمال قدرته ، فقال تعالى :

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ...

أي أنه تعالى يخبر عن قدرته على كل شيء ، وأنه خلق أو أبدع وكوّن السموات والأرض في ستة أيام من أيام اللّه في الخلق والتكوين ، لا كأيامنا الحالية ، وهو الظاهر بدليل قوله تعالى : وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [الحج ٢٢/ ٤٧] وقوله : تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج ٧٠/ ٤]. ويقدر علماء الفلك اليوم من أيام التكوين بألوف الألوف من سنوات الدنيا.

وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ العرش : أعظم المخلوقات ، ولا نعلم حقيقته وإنما نؤمن به كما أخبر عنه تعالى ، وأما استواؤه عليه ، فالاستواء معلوم والكيف مجهول ، كما روي عن أم سلمة رضي اللّه عنها ومالك وربيعة. وهذه الآية تدل على كيفية بدء الخلق قبل أن يخلق اللّه السموات والأرض ، وعلى أن العرش والماء كانا قبل السموات والأرض ، وأن العرش كان قبل أن يخلق شيئا ، وأن ما تحت العرش هو الماء أصل المادة الحية ، كما قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً ، فَفَتَقْناهُما ، وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلا يُؤْمِنُونَ

ج ١٢ ، ص : ٢٢

[الأنبياء ٢١/ ٣٠] وهذا ما يسميه علماء الفلك بنظرية السديم ، ويعبر عنها القرآن بالدخان ، أو الماء أو متن الريح.

ثم ذكر تعالى علة الخلق العجيب بقوله : لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ولم يخلق ذلك عبثا ، كما قال تعالى : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات ٥١/ ٥٦] وقال : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ [المؤمنون ٢٣/ ١١٥].

و التكليف بالعبادة والطاعة واجتناب المعاصي للاختبار والامتحان ، ومعرفة الأحسن عملا : وهو العمل الخالص للّه عز وجل ، القائم على أساس شريعة اللّه ، فإذا فقد العمل أحد هذين الشرطين حبط وبطل ، فمن شكر وأطاع أثابه اللّه ، ومن كفر وعصى عاقبه. ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : لِيَبْلُوَكُمْ أي ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم ، كيف تعملون.

وبما أن للابتلاء والاختبار ثمرة ، فلا بدّ من حصول الحشر والنشر ، المقتضي تخصيص المحسن بالرحمة والثواب ، وتخصيص المسيء بالعقاب ، ولا بد للعاقل من الاعتراف بالمعاد والقيامة ، لذا قال تعالى : وَلَئِنْ قُلْتَ : إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ....

والمعنى ولئن أقمت يا محمد الأدلة على البعث بعد الموت ، وذكرت ذلك للمشركين ، لقال الكافرون : هذا سحر ، أي غرور باطل لأن السحر في مفهومهم باطل. ومعنى الجملة : ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان.

ج ١٢ ، ص : ٢٣

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- تكفل اللّه بأرزاق المخلوقات ، وضمنها لهم تفضلا من اللّه تعالى لهم ، ورحمة بهم. وهذا دليل على اتصافه تعالى بالعدل والرحمة. ولكن الرزق مرتبط بالسعي والكسب والعمل ، كما قال تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ، فَامْشُوا فِي مَناكِبِها ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ [الملك ٦٧/ ١٥].

٢- علم اللّه عز وجل محيط شامل بكل مخلوقات الأرض ودوابها البرية والبحرية والجوية ، بدءا من وجود مادتها في الأصلاب والأرحام ، إلى ظهورها في ساحة الحياة الحركية ، إلى تنقلاتها وتحركاتها ومسيرها حيث تأوي إليه ، وإلى الموضع الذي تموت فيه فتدفن.

٣- اللّه خالق السموات والأرض وما بينهما من كائنات حية ، وهاتان الآيتان : وَما مِنْ دَابَّةٍ ووَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ تدلان على كمال علم اللّه تعالى وكمال قدرته.

٤- العرش مع كونه أعظم من السموات والأرض كان على الماء. واللّه تعالى أمسك الماء لا على قرار ، والعرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه اللّه تعالى فوق سبع سموات ، من غير دعامة تحته ، ولا علاقة فوقه.

٥- اللّه خلق السموات لابتلاء واختبار المكلف ، وهذا يقتضي أن اللّه تعالى خلق هذا العالم الكبير لمصلحة المكلفين.

٦- الواجب قطعا وعقلا حصول الحشر والنشر ، والاعتراف بالمعاد والقيامة ، لإقامة العدل بين الخلائق ، وللجزاء الذي يميز بين المحسنين والمسيئين ، فيجازى المحسن بالثواب والرحمة ، والمسيء بالعقاب والعذاب.

ج ١٢ ، ص : ٢٤

موقف الإنسان المؤمن والكافر عند النعمة والنقمة [سورة هود (١١) : الآيات ٨ الى ١١]

وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

الإعراب :

وَلَئِنْ أَخَّرْنا اللام للقسم ، والجواب : لَيَقُولُنَّ.

وَ لَئِنْ أَذَقْنَا اللام في لَئِنْ موطئة لقسم مقدّر ، وليست جوابا للقسم ، وإنما جوابه قوله : إنه ليئوس كفور. وأغنى جواب القسم عن جواب الشرط ، كما في قوله تعالى : قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ ، لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ [الإسراء ١٧/ ٨٨] فرفع لا يَأْتُونَ على أنه جواب القسم الذي هيأته اللام ، وتقديره : واللّه لا يأتون. ولو كان جواب الشرط ، لكان مجزوما ، فلما رفع دل على أنه جواب القسم ، واستغني به عن جواب الشرط.

أَلا يَوْمَ منصوب بخبر لَيْسَ مقدم عليه ، وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها.

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا في موضع نصب على الاستثناء من : الْإِنْسانَ لأن المراد به الجنس المفيد للاستغراق ، كقوله تعالى : إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا [العصر ١٠٣/ ٢]. وقوله : إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ [العاديات ١٠٠/ ٦]. وإِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى [العلق ٩٦/ ٦]. وقيل : هو استثناء منقطع.

أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ مبتدأ وخبر.

ج ١٢ ، ص : ٢٥

البلاغة :

لَيَؤُسٌ كَفُورٌ من صيغ المبالغة ، أي شديد اليأس ، كثير الكفران.

نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

إلى أُمَّةٍ المراد : إلى أجل معلوم ، أي إلى مجيء أوقات أمة. والأمة في الأصل : الجماعة من جنس واحد ، مثل : وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ [القصص ٢٨/ ٢٣] ، وقد تطلق على الدين والملة ، كما في قوله تعالى : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ [الزخرف ٤٣/ ٢٢] وقد تطلق على الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به ، كما في قوله تعالى :

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً [النحل ١٦/ ١٢٠] وقد تطلق على الزمن ، كما في قوله تعالى : وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ [يوسف ١٢/ ٤٥] وكما هنا. وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل ، كما قال تعالى : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران ٣/ ١١٠]. وفي الصحيح : « فأقول : أمتي أمتي » .

لَيَقُولُنَّ استهزاء ما يَحْبِسُهُ ما يمنعه من النزول مَصْرُوفاً مدفوعا وَحاقَ نزل بهم العذاب وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ المراد بالإذاقة هنا : الإعطاء القليل. والمراد بالإنسان هنا :

الكافر أو مطلق الإنسان رَحْمَةً غنى وصحة نَزَعْناها سلبناها إياه لَيَؤُسٌ شديد اليأس من عود تلك النعمة ، قنوط من رحمة اللّه كَفُورٌ شديد الكفر به.

نَعْماءَ هي النعمة والنّعمى : وهي الخير والمنفعة من صحة وغنى ، ويقابلها : الضراء والضّر : وهو الألم من فقر وشدة السَّيِّئاتُ المصائب لَفَرِحٌ بطر مغتّر بالنعمة فَخُورٌ متعاظم على الناس بسبب النعم صَبَرُوا على الضراء إيمانا باللّه تعالى واستسلاما لقضائه وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ في النعماء وَأَجْرٌ كَبِيرٌ هو الجنة.

المناسبة :

بعد أن حكى اللّه تعالى عن الكفار أنهم يكذبون الرسول صلى اللّه عليه وسلّم بقولهم : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ حكى عنهم في الآية الأولى : وَلَئِنْ أَخَّرْنا نوعا آخر من أباطيلهم ، وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذي توعدهم به الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، أخذوا في الاستهزاء ، وقالوا : ما سبب حبسه عنا ؟

ج ١٢ ، ص : ٢٦

و بعد أن ذكر أن عذاب الكفار ، وإن تأخر ، فلا بد من مجيئه ، ذكر بعده ما يدل على كفرهم واستحقاقهم لذلك العذاب ، وهو سوء طبع الإنسان ، ففي حال النعمة يبطر ويتفاخر ، وفي حال الضر يجحد ويأس من رحمة اللّه ، إلا من صبر وشكر وعمل صالحا.

التفسير والبيان :

و اللّه لئن أخرنا العذاب عن الكفار أو المشركين ، بعد أن توعدهم به الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، إلى حين من الزمان ، على وفق سنتنا وحكمتنا : لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ [الرعد ١٣/ ٣٨] لقالوا استهزاء وتكذيبا واستعجالا : ما يحبسه ؟ أي ما الذي يؤخر هذا العذاب عنا ؟ ومعنى إِلى أُمَّةٍ إلى أجل معلوم وحين معلوم.

فأجابهم اللّه تعالى بأنه إذا جاء الوقت الذي عينه اللّه لنزول ذلك العذاب الذي كانوا يستهزئون به ، لم يصرفه عنهم صارف ، وسيحيط بهم حينئذ من كل جانب ، جزاء بما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه ، كما قال تعالى :

إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ ، ما لَهُ مِنْ دافِعٍ [الطور ٥٢/ ٧- ٨] والمضاف الذي هو جزاء محذوف.

ثم أخبر تعالى عن صفات الإنسان الذميمة إلا من رحم اللّه من عباده المؤمنين : أنه إذا أعطاه اللّه نعمة من صحة ورزق وأمن وولد بارّ ، رحمة منه ، ثم سلبه تلك النعمة ، وأبدله بها نقمة من مرض أو فقر أو خوف أو موت أو كارثة ، أضحى شديد اليأس من رحمة ربه ، كثير الكفر والجحود للماضي ولما عليه من نعم أخرى ، فهو قانط بالنسبة للمستقبل ، جاحد لماضي الحال كأنه لم ير خيرا ، ولما عليه الآن من النعم ، وذلك لعدم التزامه بفضيلة الصبر والشكر.

وإن أعطاه اللّه نعمة من بعد ضراء ، كشفاء من مرض ، وقوة من بعد ضعف ، ويسر من بعد عسر ، لقال : ذهب ما كان يسوؤني من المصائب ، ولن

ينالي بعد اليوم ضيم ولا سوء ، وأصبح شديد الفرح والبط بتلك النعمة أو بما في يده ، متفاخرا متعاظما على غيره ، محتقرا من دونه.

فهو في موقفه هذا لا يقابل النعمة بالشكر عليها ، بل يبطر ويفخر على الناس ، ولا يواسي البائس الفقير.

ويلاحظ أنه عبر في حال النعمة بقوله : أَذَقْنَا والذوق : إدراك الطعم ، ليدل على التمتيع بالنعمة بأقل أوصافها ، وفي حال الضراء بقوله :

مَسَّتْهُ والمس : مبدأ الوصول ، ليشعر بأن الضر في أقل مرتبة من الإصابة.

وهناك مقابلة بين التعبير ب أَذَقْنَا الذي يفيد اللذة والاغتباط ، وقوله : نَزَعْناها الذي يفيد شدة تعلقه بالنعمة والحرص عليها.

وكل هذا يدل على أن في الإنسان طبائع سيئة وأمراضا فتاكة وهي اليأس من رحمة اللّه والكفر بنعمته ،

والبطر والفخر والتكبير ، ولا علاج لها إلا بالصبر والإيمان والرضا بالقضاء والقدر.
والمراد بالإنسان مطلق الإنسان بدليل استثناء الصابرين الذين يعملون الصالحات منه بقوله : إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فثبت أن المقصود بالإنسان المؤمن والكافر. وحينئذ يكون الإنسان شاملا المؤمن والكافر ، والاستثناء متصل ، قال القرطبي : وهو حسن.
وفي قول آخر : إن المراد منه الكافر ، حملا على المعهود السابق في الآية المتقدمة وهو الكافر ، ولأن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر ، وهي صفات : اليؤوس ، والكفور ، وقوله : ذهب السيئات عني ، والفرح ، والفخور ، وتلك هي صفات الكافرين ، وليست من صفات أهل

ج ١٢ ، ص : ٢٨

الدين ، وحينئذ يجب حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع ، حتى لا تلزم هذه المحذورات.
ثم استثنى اللّه تعالى من جنس الإنسان الصابرين العاملين الصالحات بقوله :
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ...

(٢٤/١٢)

أي إلا الذين صبروا على الشدائد والمكاره كالجهاد والفقر والمصيبة ، وعملوا الصالحات أي الأعمال الطيبة المفيدة في حال الرخاء أو النعمة والعافية ، كأداء الفرائض وشكر النعمة وأعمال البر والخير والإحسان للناس ، والتقرب إلى اللّه بصالح الأعمال ، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم بعملهم الصالح أو بما يصيبهم من الضراء ، وأجر كبير في الآخرة على ما عملوا من بر وخير وما أسلفوا في زمن الرخاء ، أقله الجنة.
وفي معنى الآية قوله تعالى : وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ [العصر ١٠٣/ ١- ٣]
و الحديث النبوي الثابت : « و الذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همّ ولا غمّ ولا نصب ، ولا وصب « ١ » ، ولا حزن ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر اللّه بها من خطاياه »
و
في الصحيحين : « و الذي نفسي بيده لا يقضي اللّه للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له : إن أصابته سراء فشكر ، كان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاء فصبر ، كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .
فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات ما يأتي :

١- أقسم اللّه تعالى على أن كل عذاب أوعد اللّه أو الرسول به الكفار آت

---

(١) النّصب : التعب ، والوصب : المرض.

ج ١٢ ، ص : ٢٩

لا ريب فيه ، ولا يصرفه عنهم صارف ، وهو نازل محيط بهم ، جزاء ما كانوا به يستهزئون. والمراد من العذاب إما عذاب الدنيا وهو عذاب الاستئصال أو الهزيمة الساحقة في معركة فاصلة كمعركة بدر ، وإما عذاب الآخرة. وأخبر تعالى عن أحوال القيامة بلفظ الماضي : وَحاقَ مبالغة في التأكيد والتقرير.

(٢٥/١٢)

٢- وأقسم عز وجل أيضا على أن الإنسان (و هو اسم شائع للجنس في جميع الناس ، أو الكفار) إن وجد أقل القليل من الخيرات العاجلة وهو الإذاقة والذوق (و هو أقل ما يوجد به الطعم) يقع في التمرد والطغيان ، وإن أدرك أقل القليل من المحنة والبلية ، يقع في اليأس والقنوط والكفر. واليؤوس : من الرحمة ، والكفور للنعم : الجاحد لها ، وكلاهما من صيغ المبالغة ، يراد به التكثير ، كفخور للمبالغة. وتفسير هذه الظاهرة : هو أن الكافر يعتقد أن سبب حصول تلك النعمة مصادفة ومجرد اتفاق. وأما المسلم فيعتقد أن تلك النعمة من اللّه تعالى وفضله وإحسانه ، فلا يحصل له اليأس ، ويأمل خيرا منها ، ويصبر على فقدها كما قال تعالى : عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها ، إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ [القلم ٦٨/ ٣٢] وقال تعالى : إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ [يوسف ١٢/ ٨٧].

٣- وأقسم تعالى ثالثا على أن الإنسان إن أمدّه اللّه بنعمة كالصحة والرخاء والسعة في الرزق ، بعد ضر مسّه كالفقر والشدة ، قال : ذهب السيئات عني أي المصائب التي تسوء صاحبها من الضر والفقر ، وهو فرح (بطر) فخور (متعال على الناس) بما ناله من السعة ، وينسى شكر اللّه عليه.

وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة ، كما قال البيضاوي.

٤- استثنى اللّه تعالى من أوصاف الإنسان الذميمة وأحواله حالة المؤمنين

ج ١٢ ، ص : ٣٠

(٢٦/١٢)

الذين يصبرون على الشدائد والمكاره ، ويكونون عند الرخاء والسعة من الشاكرين ، ويعملون الأعمال الطيبة الخيّرة في الدنيا ، فهؤلاء لهم من اللّه مغفرة على ما صبروا على عمل الخير وحال المصاب ، ولهم ثواب كبير أقله الجنة. وهذا جمع بين المطلوبين : زوال العقاب والخلاص منه ، وهو المراد من قوله لَهُمْ مَغْفِرَةٌ والفوز بالثواب ، وهو المراد من قوله : وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وهذا دليل على إعجاز القرآن لا بألفاظه فحسب ، بل بمعانيه أيضا.

أما الكافر عند البلاء فلا يكون عادة من الصابرين ، وعند الفوز بالنعمة لا يكون من الشاكرين لأن الشكر الحقيقي لا يكون إلا بالإيمان بالمنعم ، والصبر لا ثواب له عليه ما لم ينبعث من الإيمان ، وكثيرا ما يجزع وينفد صبره وربما ينتحر لأنه لا يجد سلوى أو عزاء له بمصابه يعوضه عنه في الآخرة لعدم إيمانه بالبعث والحساب والجزاء الحق من اللّه تعالى وحده.

والخلاصة : أن الآيات موازنة دقيقة بين أوصاف الإنسان المؤمن وأوصاف الإنسان الكافر ، ومنشأ الفرق هو الإيمان والكفر.

٥- أحوال الدنيا غير باقية ، بل هي متغيرة متحولة من النعمة إلى المحنة ، ومن اللذات إلى الآفات ، وبالعكس وهو الانتقال من المكروه إلى المحبوب ، ومن المحرمات إلى الطيبات.

مطالبة مشركي مكّة بإنزال كنز أو مجيء ملك مع النّبي صلى اللّه عليه وسلّم وتحدّيهم بالقرآن [سورة هود (١١) : الآيات ١٢ الى ١٤]

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١١(٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١١(٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

ج ١٢ ، ص : ٣١

الإعراب :

وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ : ضائِقٌ : عطف على تارِكٌ ، وصَدْرُكَ مرفوع به ، وهاء بِهِ تعود على ما أو على بَعْضَ ، أو على التّبليغ أو على التّكذيب. أَنْ يَقُولُوا في موضع نصب ، أي كراهية أن يقولوا.

المفردات اللغوية :

فَلَعَلَّكَ هنا للاستفهام الإنكاري ، الذي يراد به النّفي أو النّهي ، أي لا تترك. والأصل أن « لعلّ » للتّرجي وتوقع المحبوب ، وقد تكون للإعداد والتّهيئة ، كما في قوله تعالى : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة ٢/

٢١ وغيرها] ، وقد تكون للتّعليل كما في قوله تعالى : لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى [طه ٢٠/ ٤٤].
تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ فلا تبلغهم إياه ، وهو ما يخالف رأي المشركين ، مخافة ردّهم واستهزائهم ، ولا يلزم من توقع الشيء وجوده ووقوعه ، لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرّسل من الخيانة في الوحي مانعا.

(٢٨/١٢)

وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ عارض لك أحيانا ضيق الصّدر ، بتلاوته عليهم ، لأجل أن يقولوا ، أي مخافة أن يقولوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أي هلا صحبه كنز ينفقه لكسب الأتباع كالملوك ، والكنز : المال الحاصل بغير كسب. أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ يصدقه كما اقترحنا. إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك ، لا الإتيان بما اقترحوه. وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ رقيب حفيظ للأمور ، فتوكل عليه ، فإنه عالم بحالهم ، ومجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.
أَمْ يَقُولُونَ : أَمْ بمعنى بل. افْتَراهُ الضمير لما يوحى وهو القرآن. بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ في الفصاحة والبلاغة والبيان وحسن النّظم ، تحدّاهم أولا بالإتيان بمثل القرآن ، ثم بعشر سور ، ثم لما عجزوا عنها تحدّاهم بسورة. وتوحيد المثل باعتبار كلّ واحد. مُفْتَرَياتٍ مختلقات
ج ١٢ ، ص : ٣٢
من عند أنفسكم ، إن صحّ أني اختلقته من عند نفسي ، فإنكم عرب فصحاء مثلي ، تقدرون على مثل ما أقدر عليه ، بل أنتم أقدر لمعرفتكم بأساليب البيان خطابة وشعرا ونثرا. وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره إلى المعاونة على المعارضة. إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنه مفترى.
فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ أي بالإتيان بما دعوتم إليه للمعاونة. والاستجابة : الإجابة. وجمع ضمير لَكُمْ إما لتعظيم الرّسول صلى اللّه عليه وسلّم ، أو لأن المؤمنين أيضا كانوا يتحدّونهم أيضا. فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ خطاب للمشركين : فاعلموا أنما أنزل مصحوبا بعلم اللّه فلا يعلمه إلا اللّه ، ولا يقدر عليه سواه ، وليس افتراء عليه.
وَأَنْ مخففة أي أنه. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إن كان الخطاب للمؤمنين ؟ وهل أسلموا بعد هذه الحجة القاطعة إن كان الخطاب مع الكفار ؟
المناسبة :

(٢٩/١٢)

بعد أن ذكر اللّه تعالى افتراء المشركين على القرآن بأنه سحر مبين ، وإعراضهم عنه كيلا يسمعوه ، ذكر تكذيبهم للرّسول صلى اللّه عليه وسلّم وللقرآن ، وظنّهم أنه مثل الملوك مدعوم بالمال للإغراء وكسب الأتباع ، ومطالبتهم دعمه بالكنز أو بالملك ، وتحدّيهم بالإتيان بعشر سور مثل القرآن الكريم.

سبب النّزول :

روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما : أن رؤساء مكة قالوا : يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا. وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوّتك ، فقال : لا أقدر على ذلك ، فنزلت هذه الآية.

التفسير والبيان :

لعلك أيها الرّسول تارك بعض ما يوحى إليك أحيانا أن تلقيه إليهم ، وتبلغه إياهم مخافة ردّهم له وتهاونهم به ، مثل تسفيه أحلامهم والتّنديد بعبادتهم الأوثان ، وضائق به صدرك بأن تتلوه عليهم ، أو لأجل أن يقولوا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ

ج ١٢ ، ص : ٣٣

و المراد بهذا الاستفهام الإنكاري النّفي أو النّهي ، أي لا تترك شيئا مما أوحينا إليك من تبليغه المشركين وغيرهم ، ولا تتضايق من تلاوته عليهم. ويقصد من ذلك المبالغة في التّحذير ، والإغراء بأداء الرّسالة ، وعدم المبالاة بكلماتهم الفاسدة ، تأكيدا على تبليغ كامل الوحي ، سواء رضي الناس أو غضبوا ، لأن مجاملتهم غير مفيدة. ولا يعني هذا وقوع المنهي عنه ، لعصمة الرّسول من التّقصير أو الخيانة في الوحي ، فقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أن يخون في الوحي ، والتّنزيل ، وأن يترك بعض ما يوحى إليه لأن تجويزه يؤدي إلى الشّك في كلّ الشّرائع والتّكاليف ، وذلك يقدح في النبوة.

أَنْ يَقُولُوا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ .. أي لا تتضايق لأجل أن يقولوا ، أو كراهة أن يقولوا « ١ » : لو لا أي هلا أنزل عليه كنز من عند ربّه يغنيه عن التّجارة والكسب ، ويدلّ على صدقه ، والقائل عبد اللّه بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، أو ينزل معه ملك من السماء يؤيد دعوته ، كقوله تعالى :

وَقالُوا : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ؟ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً. أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها ، وَقالَ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً [الفرقان ٢٥/ ٧- ٨]. وإنما قال :

ضائِقٌ ولم يقل « ضيق » ليشاكل تارِكٌ الذي قبله ، ولأن الضائق عارض طارئ غير لازم ، والضيق ألزم

منه.

فهذا إرشاد من اللّه تعالى لنبيّه ألا يضيق صدره بتبليغ الوحي والرّسالة ، وألا يثنيه شيء عن دعوتهم إلى اللّه آناء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى :

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ [الحجر ١٥/ ٩٧].

---

(١) وذلك مثل : يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [النساء ٤/ ١٧٦] أي لئلا تضلّوا.

ثم أكّد اللّه تعالى مهمّة نبيّه فقال : إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ ... أي ليس عليك إلا إنذارهم بما أوحي إليك ، غير مبال بما يقولون ، ولا آت بما يقترحون ، ولك أسوة بإخوانك من الرّسل قبلك ، فإنهم كذّبوا وأوذوا ، فصبروا حتى أتاهم نصر اللّه عزّ وجلّ ، واللّه هو الرّقيب على عباده ، الحفيظ للأمور ، فتوكّل عليه ، ولا تبال بهم ، فإنه عالم بحالهم ، ومجازيهم على أعمالهم. وهذا كقوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ [البقرة ٢/ ٢٧٢] ، وقوله تعالى : فَذَكِّرْ ، إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ [الغاشية ٨٨/ ٢١- ٢٢] ، وقوله تعالى :

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ [ق ٥٠/ ٤٥].

ثم أبان اللّه تعالى إعجاز القرآن الكريم بدليل تحدّي العرب به ، فقال : أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ .. أي بل يقول مشركو مكة : افترى محمد القرآن أي اختلقه من عند نفسه ، فإن كان ما يزعمون صحيحا ، فليأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، تضارعه في الفصاحة والبلاغة ، وإتقان الأحكام والتّشريعات في شؤون الحياة المختلفة من سياسة واجتماع واقتصاد ونظام تعامل ، والإخبار بقصص الأنبياء والغيبيات ، وهم أهل السّبق في البيان والتّفوق في ملكة اللسان. والمختار عند أكثر المفسّرين أن القرآن معجز بسبب الفصاحة ، وقيل : بسبب الأسلوب ، وقيل : بسبب عدم التناقض ، وقيل : بسبب اشتماله على العلوم الكثيرة ، وقيل :

بسبب إخباره عن المغيبات.

ولكنهم عجزوا لأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، بل ولا بأقصر سورة من مثله لأن كلام الرّب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شي ء.

وهذه الآية اشتملت على خطابين : خطاب الرّسول صلى اللّه عليه وسلّم بقوله تعالى :

قُلْ : فَأْتُوا .. ، وخطاب الكفار بقوله : وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ...

ج ١٢ ، ص : ٣٥

ثم قال اللّه تعالى بعد هذا التّحدي : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن القرآن نزل من عند اللّه ، وبما لا يعلمه إلا اللّه من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه ، وتشريع بأمره ونهيه لا يبلغون مستواه. وجاء ضمير لَكُمْ بصيغة الجمع لأنه خطاب للرّسول صلى اللّه عليه وسلّم وللمؤمنين ، والمراد أن الكفار إن لم يستجيبوا لكم في الإتيان بالمعارضة ، فاعلموا أنما أنزل بعلم اللّه تعالى.

واعلموا أنه لا إله موجود ومعبود بحقّ إلا اللّه عزّ وجلّ.

فهل أنتم بعد قيام الحجة القاطعة على أنه ، أي القرآن ، من عند اللّه مسلمون ، مؤمنون باللّه وبهذا القرآن ، وبما تضمنه من عقائد ووعد ووعيد وأخلاق وآداب ونظام شامل للحياة ؟ وهذا يدلّ على أن الخطاب للكفار ، فإن كان الخطاب للمسلمين فمعناه : فهل أنتم مخلصون ؟

ومعنى هذا أنه بعد ظهور الدّليل القاطع على صدق النّبي صلى اللّه عليه وسلّم وصدق القرآن ، يكون كفرهم مجرد عناد وإعراض واستكبار.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- وجوب تبليغ الوحي بكامله دون إنقاص أو إرجاء شيء منه ، ولا يتنافى هذا الحكم مع مبدأ عصمة الرّسول صلى اللّه عليه وسلّم عن الخيانة في الوحي والتّنزيل ، وترك بعض ما يوحى إليه ، وهذا كقوله تعالى في تأكيد الأمر بإبلاغ الوحي : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [المائدة ٥/ ٦٧].

وهذا الحكم لا يختلف سواء قلنا : إن معنى الكلام في آية فَلَعَلَّكَ تارِكٌ .. الاستفهام الإنكاري أي هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما

ج ١٢ ، ص : ٣٦

سألوك ؟ أو معنى الكلام النّفي مع استبعاد ، أي لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك لأن مشركي مكة قالوا للنّبي صلى اللّه عليه وسلّم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتّبعناك ، فهمّ النّبي صلى اللّه عليه وسلّم أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت.

٢- لا مجاملة ولا مهادنة ولا إرجاء في تبليغ الوحي ، فسواء كره الناس تبليغهم ما أنزل اللّه أم قالوا : لو لا أنزل عليه كنز أو ملك ، فلا تراجع عن تبليغ الوحي.

٣- تحدّى اللّه العرب في هذه السّورة بأن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن ، بعد أن كان تحدّاهم بالإتيان بمثل القرآن ، فعجزوا في الحالين ، كما عجزوا عن الإتيان بمثل سورة منه ، في سورة أخرى. والتحدي ليثبت أن القرآن كلام اللّه المعجز.

٤- ثبت بقوله : فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ عجزهم عن المعارضة ، فقامت عليهم الحجة بأن القرآن ليس من عند محمد أو غيره ، وإنما هو كلام اللّه ، وليعلم الجميع أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ.

٥- إن وجوه إعجاز القرآن كثيرة منها البلاغة والفصاحة ، ومنها الاشتمال على الغيبيات ، ومنها الأحكام التّشريعية ، ومنها مواكبه الاكتشافات العلمية الحديثة.

من أراد الدنيا وحدها حرم نعيم الآخرة [سورة هود (١١) : الآيات ١٥ الى ١٦]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

ج ١٢ ، ص : ٣٧

الإعراب :

وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ابتداء وخبر ، أي وباطل عمله.

المفردات اللغوية :

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها أي من قصد بعمله الطّيب وإحسانه وبرّه الدّنيا.

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ نؤتهم ثمار أعمالهم وافية تامة ، جزاء ما عملوه من خير كصدقة وصلة رحم. فِيها بأن نوسع عليهم رزقهم. وَهُمْ فِيها أي الدّنيا. لا يُبْخَسُونَ ينقصون شيئا من أجورهم. حَبِطَ فسد وبطل ولم ينتفعوا به.

سبب النّزول :

قيل : إن الآية مختصّة بالكفار ، أو بالمنافقين ، وقيل : إنها عامّة مطلقة في أهل الرّياء ، والظاهر أن المراد بهذا العام هو الكافر لأن قوله تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ لا يليق إلا بالكفار.

المناسبة :

بعد أن أثبت اللّه تعالى أن القرآن من عند اللّه تعالى ، وليس بالمفترى من محمد صلى اللّه عليه وسلّم

كما يزعم المشركون ، ذكر أن سبب المعارضة والتّكذيب هو الهوى والشهوة ومحض الحسد وحظوظ الدّنيا.

التفسير والبيان :

من كانت إرادته مقصورة على حبّ الدّنيا وزينتها ، من متاع ولباس ، وزينة وأثاث ، ولم يكن طالبا السعادة الأخروية ، يوصل اللّه إليه جزاء عمله في الدّنيا من الصّحة والرّياسة وسعة الرّزق وكثرة الأولاد ، ويوفّيه ثمرة جهده تماما دون أن ينقصه شيئا من مردود العمل ونتيجة الكسب لأن الأرزاق منوطة بالأعمال ، لا بالنّيات.

ج ١٢ ، ص : ٣٨

و ذلك يدلّ على أن ثمرة العمل في الدّنيا مرتبطة بالكسب وتقدير اللّه ، وأما جزاء الآخرة فهو محصور بإرادة اللّه وفضله وإحسانه.

وأولئك الذين لا همّ لهم إلا الدّنيا ، لا حظّ لهم في الآخرة إلا النّار في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا في الدّنيا ثمرة العمل الحسن ، وبقي لهم في الآخرة وزر العمل السّيء ، وتبدد أثر عملهم في الدّنيا ، وبطل ثواب عملهم في الآخرة لأنهم لم يريدوا وجه اللّه تعالى ، والعمدة في الثواب الأخروي هو الإخلاص للّه عزّ وجلّ.

و نظير الآية قوله تعالى : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً. وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً [الإسراء ١٧/ ١٨- ١٩] ، وقوله سبحانه : مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ، وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [الشورى ٤٢/ ٢٠].

ويؤيّده الحديث المشهور في الصّحيحين عن عمر رضي اللّه عنه : « إنما الأعمال بالنّيات ، وإنما لكلّ امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله ، فهجرته إلى اللّه ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » وقال قتادة : من كانت الدّنيا همّه ونيّته وطلبته ، جازاه اللّه بحسناته في الدّنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة ، وليس له حسنة يعطى بها جزاء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدّنيا ، ويثاب عليها في الآخرة. أي أن للمؤمن على عمله الحسن ثوابين ، ثواب الدّنيا وثواب الآخرة ، وللكافر ثوابا واحدا وهو في الدّنيا فقط.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيتان على ما يأتي :

ج ١٢ ، ص : ٣٩

١- اقتضى عدل اللّه وحكمته أن من قصد الدنيا وحدها وأتى بعمل البرّ والخير كصدقة وصلة رحم وكلمة طيّبة ونحو ذلك ، يكافأ بها فقط بصحة الجسم ، وكثرة الرّزق ، لكن لا حسنة له في الآخرة ، ويحرم من ثمرة عمله فيها. ٢- إن أهل الرّياء والسّمعة يعطون بحسناتهم في الدّنيا ، حتى لا يظلموا شيئا منها مهما قلّ ، ويحرمون من الثواب الأخروي لأن ثواب الجنة يكون بتزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح ، واجتناب المعاصي ، وأما عمل أهل الدّنيا فمقصور عليها وعلى مظاهرها وشهواتها.

(١٢/٣٦)

٣- ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية وأمثالها المذكورة مطلقة ، تشمل المؤمن والكافر.

٤- إن العبد ينوي ويريد ، واللّه سبحانه يحكم ما يريد.

٥- الكافر يخلد في النّار ، والمؤمن لا يخلّد لقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ [النساء ٤/ ٤٨].

٦- الإسلام يدعو إلى إيثار العمل للآخرة على عمل الدّنيا ، في النّيّة والقصد ، فإن قصد الدّنيا والآخرة معا كان ذلك مقبولا شرعا.

من كان يريد الآخرة [سورة هود (١١) : آية ١٧]

أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧)

ج ١٢ ، ص : ٤٠

الإعراب :

أَفَمَنْ كانَ : فَمَنْ : مبتدأ ، والهمزة للإنكار ، والخبر محذوف تقديره : أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن كان يريد الحياة الدّنيا ، والهاء في يَتْلُوهُ للقرآن ، والشاهد : الإنجيل. والهاء في مِنْهُ عائد للّه تعالى ، والهاء في قَبْلِهِ للإنجيل.

وكِتابُ مُوسى معطوف مرفوع على قوله : شاهِدٌ ففصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف ، وهو قوله تعالى : مِنْ قَبْلِهِ وتقديره : ويتلوه كتاب موسى من قبله.

إِماماً وَرَحْمَةً نصب على الحال من كِتابُ مُوسى .

فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ مبتدأ وخبر ، والجملة خبر وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ.

المفردات اللغوية :

بَيِّنَةٍ حجة وبيان وبرهان من اللّه يدلّه على الحقّ والصّواب فيما يأتيه ويذره ، والبيّنة :
هي القرآن ، وهو حكم يعمّ كلّ مؤمن مخلص ، وقيل : المراد به النّبي صلى اللّه عليه وسلّم ، أو المؤمنون ، وقيل :

(٣٧/١٢)

مؤمنو أهل الكتاب. وَيَتْلُوهُ يتبعه. شاهِدٌ له بصدقه. مِنْهُ أي من اللّه ، و « الشاهد » : الإنجيل ، وقيل : جبريل ، وقيل : القرآن ، وقيل : النّبي صلى اللّه عليه وسلّم. وَمِنْ قَبْلِهِ أي الإنجيل ، وقيل : القرآن. كِتابُ مُوسى التّوراة شاهد له أيضا. إِماماً كتابا مؤتّما به في الدّين. أُولئِكَ أي من كان على بيّنة ، ويراد بكلمة فَمَنْ المعنى الجماعي. يُؤْمِنُونَ بِهِ أي بالقرآن ، فلهم الجنة.
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ أهل مكة وجميع الكفار الذين تحزّبوا معهم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم. فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ يردها لا محالة ، أي مكان الوعد وهي النّار يردها. فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ في شكّ من الموعد المذكور ، أو القرآن. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ أهل مكة وأمثالهم. لا يُؤْمِنُونَ لقلّة نظرهم واختلال فكرهم.
المناسبة :
تعلّق الآية بما قبلها واضح ، فبعد أن ذكر اللّه تعالى من كان يريد الدّنيا وزينتها ولا يهتم بالآخرة وأعمالها ، أعقبه بذكر من كان يريد الآخرة ويعمل لها ، ومعه شاهد يدلّ على صدقه وهو القرآن.
ج ١٢ ، ص : ٤١
التفسير والبيان :
أ فمن كان على نور وبصيرة من اللّه تدلّه على الحقّ والصّواب ، ويؤيّده شاهد له على صدقه ، وهو كتاب اللّه من إنجيل أو قرآن ، وهم المؤمنون بالفطرة بأنه لا إله إلا اللّه ، كمن كان يريد الحياة الدّنيا وزينتها ؟ كما قال تعالى : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ ، فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [الزّمر ٣٩/ ٢٢] ، وقال تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها [الرّوم ٣٠/ ٣٠].

(٣٨/١٢)

و كذلك يؤيّده كتاب موسى عليه السّلام وهو التّوراة ، الذي أنزله اللّه تعالى إلى تلك الأمّة إماما لهم ، أي كتابا مؤتما به في الدّين وقدوة يقتدون به ، ورحمة من اللّه بهم لأنه همزة وصل بخير الدّارين ، فمن آمن به حقّ الإيمان ، قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ويكون ذلك الكتاب رحمة لمن آمن به وعمل

به.

وكون الإنجيل والتّوراة تابعين للقرآن ليس في الوجود ، بل في دلالتهما على هذا المطلوب ، وتبشيرهما بالنّبي صلى اللّه عليه وسلّم وكونه موصوفا فيهما : يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ [الأعراف ٧/ ١٥٧].

أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ... أي أولئك الذين يؤمنون بما في التّوراة من البشارة بمحمد النّبي صلى اللّه عليه وسلّم ، يؤمنون بهذا القرآن إيمانا حقّا عن يقين وإذعان.

وفي الجملة : من كان مؤمنا بالفطرة وبالعقل ، وبنور القرآن ، وبالوحي الثابت الذي نزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرّسل ، فهو على منهج الحقّ والصّواب.

ومن يكفر بالقرآن من أهل مكة ومن تحزّبوا على النّبي صلى اللّه عليه وسلّم وغيرهم من اليهود والنّصارى والوثنيين ، فالنّار موعده لا ريب في وروده إياها ، أي أن مآله حتما إلى جهنم وهو من أهل النّار ، جزاء تكذيبه ، كما قال تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ، وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها ، وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ [هود ١١/ ١٦]

ج ١٢ ، ص : ٤٢

و الْأَحْزابِ هم كما قال مقاتل : بنو أميّة ، وبنو المغيرة بن عبد اللّه المخزومي ، وآل طلحة بن عبيد اللّه. وقال سعيد بن جبير : الأحزاب : أهل الأديان كلّها ، وروي عن مقاتل : « من الملل كلّها » لأنهم يتحازبون.

و في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « و الذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النّار » .

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ أي فلا تكن أيها المكلّف السّامع في شكّ من أمر هذا القرآن ، فإنه حقّ من اللّه لا ريب ولا شكّ فيه ، كما قال تعالى : الم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ [السّجدة ٣٢/ ١- ٢]. والخطاب بقوله : فَلا تَكُ للنّبي صلى اللّه عليه وسلّم ، والمراد جميع المكلّفين.

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ .. أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بهذا القرآن ، كما قال تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف ١٢/ ١٠٣] ، والسبب أن المشركين مستكبرون مقلّدون زعماءهم ، وأن أهل الكتاب حرّفوا دين أنبيائهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يأتي :

١- إن من تبيّن الرشد والصّواب بالفطرة والعقل ، واهتدى بنور الوحي الإلهي فهو الذي يؤثر الآخرة على الدّنيا ، ولا يستوي إطلاقا مع من آثر الدّنيا الفانية وزينتها الموقوتة على الآخرة الباقية الخالدة.

٢- اليهود والنصارى المؤمنون بحقّ يؤمنون بما في التّوراة والإنجيل من البشارة بالنّبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وأما غير المؤمنين بحقّ ، المتأخرون منهم أو من غيرهم ، فهم

ج ١٢ ، ص : ٤٣

الذين موعدهم النّار ، فمن يكفر بالقرآن أو بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام ، من أهل الملل كلها أو أهل الأديان كلها ، فهو من أهل النّار.

٣- القرآن الكريم حقّ ثابت من عند اللّه ، فلا يشكّنّ أحد بذلك ، وليبادر إلى الإيمان بما جاء فيه. ولكن مع الأسف أكثر الناس لا يؤمنون به.

الكافرون والمؤمنون وجزاء أعمال كلّ منهم [سورة هود (١١) : الآيات ١٨ الى ٢٤]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (١٩) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

الإعراب :

الَّذِينَ يَصُدُّونَ إما نعت للظالمين ، وإما خبر لمبتدأ أي هم الذين.

ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ ما : فيها ثلاثة أوجه :

ج ١٢ ، ص : ٤٤

أ- أن تكون ظرفية زمانية في موضع نصب بيضاعف ، وتقديره : يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار ، أي أبدا ، كقوله تعالى : خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ [هود ١١/ ١٠٧] أي مدة دوام السموات والأرض ، أي : أبدا.

ب- أن تكون في موضع نصب ، على تقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : بما كانوا ، فحذف حرف

الجر ، فاتصل الفعل به.

ج- أن تكون ما نافية ، ومعناه لا يستطيعون السمع ولا الإبصار ، لما قد سبق لهم في علم اللّه تعالى.

أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

(٤١/١٢)

مبتدأ وخبر.

لا جَرَمَ ردّ لكلامهم ، وهو نفي لما ظنوا أنه ينفعهم. وجَرَمَ فعل ماض بمعنى كسب.

أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ في موضع نصب من وجهين : أحدهما- تقديره : كسب ذلك الفعل لهم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ، أي كسب ذلك الفعل الخسران في الآخرة. وهذا قول سيبويه.

والثاني- التقدير : لا صدّ ولا منع عن أنهم في الآخرة ، وحذف حرف الجر ، فانتصب بتقدير حذف حرف الجر ، وهذا قول الكسائي.

مَثَلًا تمييز منصوب.

البلاغة :

كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ تشبيه مرسل مجمل لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه ، أي مثل الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم البصر والسمع ، ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير.

المفردات اللغوية :

وَمَنْ أَظْلَمُ لا أحد. افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بنسبة الشريك والولد إليه. يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ في الموقف يوم القيامة مع جملة الخلق ، بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم ، والمراد : يحاسبهم ربهم. الْأَشْهادُ جمع شاهد وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ ، وعلى الكفار بالتكذيب.

لَعْنَةُ اللَّهِ اللعنة واللعن : الطرد من رحمة اللّه تعالى. يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يصرفون عن دين اللّه : دين الإسلام. وَيَبْغُونَها عِوَجاً يطلبون السبيل معوجة ، والعوج : الالتواء.

هُمْ تأكيد للأولى. مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أي ما كانوا معجزين للّه في الدنيا أن يعاقبهم ، ولا يمكنهم أن يهربوا من عذاب اللّه تعالى. مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره.

ج ١٢ ، ص : ٤٥

أَوْلِياءَ أنصار يمنعونهم من عذابه أو عقابه ، ولكنه أخر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشد وأدوم.

يُضاعَفُ لَهُمُ بإضلالهم غيرهم. ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ للحق. وَما كانُوا يُبْصِرُونَ أي يبصرونه ، لفرط كراهتهم له ، كأنهم لم يستطيعوا ذلك. خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

(٤٢/١٢)

لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم. وَضَلَ
غاب. يَفْتَرُونَ
على اللّه من ادعاء الشريك.
لا جَرَمَ حقا. قال الفراء : إنها بمنزلة قولنا : لا بد ولا محالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة (حقا). تقول العرب : لا جرم أنك محسن ، على معنى : حقا إنك محسن.
وَأَخْبَتُوا خشعوا وسكنوا وأخلصوا للّه تعالى ، وأصل الإخبات : قصد الخبث وهو المكان المطمئن المستوي. مَثَلُ صفة. الْفَرِيقَيْنِ الكفار والمؤمنين. كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ هذا مثل الكافر ، وتشبيه بالأعمى لتعاميه عن آيات اللّه ، وبالأصم لعدم استماعه كلام اللّه تعالى وتدبر معانيه. وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هذا مثل المؤمن لتبصره بالقرآن وسماعه له سماع تدبر وإمعان ، فيكون كل واحد منهما مشبها باثنين. أَفَلا تَذَكَّرُونَ تتعظون ، أصله : تتذكرون ، فأدغم التاء في الذال.
المناسبة :
بعد أن تحدث القرآن عن فريقي الناس : وهما الذي يريد الدنيا وزينتها ، والذي يريد الآخرة ، أبان حال كل من الفريقين في الدنيا والآخرة.
وكان القصد من آية مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها ذم الحريصين على الدنيا ونسيان الآخرة ، والقصد من آية أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ الرّد على منكري نبوة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم والطعن في معجزاته ، وأما المراد من آية وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فهو الرّد على المشركين الذين يزعمون أن الأصنام شفعاؤهم عند اللّه ، وهذا محض الافتراء على اللّه تعالى ، وهو داخل تحت عموم وعيد المفترين على اللّه تعالى.
التفسير والبيان :
يبين اللّه تعالى حال المفترين عليه ووصفهم بأنهم أظلم الناس ، وفضيحتهم في الآخرة أمام الخلائق كلهم ، فيذكر أنه لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن اختلق
ج ١٢ ، ص : ٤٦

الكذب على اللّه تعالى ، في صفته أو حكمه أو وحيه ، أو زعم وجود شفعاء له بدون إذنه ، أو اتخاذه ولدا من الملائكة كالعرب القائلين بأن الملائكة بنات اللّه ، واليهود القائلين بأن عزيرا ابن اللّه ، والنصارى القائلين بأن المسيح ابن اللّه.

أُولئِكَ يُعْرَضُونَ .. أي أولئك المغرقون في الكفر والشرك والافتراء على اللّه ، يعرضون على ربهم أي يحاسبهم ربهم حسابا شديدا ، ويقول الأشهاد من الملائكة الأبرار : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم وافتروا عليه ، فلعنة اللّه على الظالمين ، أي أنهم مطرودون من رحمة اللّه تعالى.

وبما أن العرض عام في كل العباد ، فإن المراد به هنا عرض خاص وهو العرض بقصد افتضاحهم ، فيحصل لهم الخزي والنكال في أسوأ حال ، والعرض يكون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال ، أو على من شاء اللّه من الخلق بأمر اللّه تعالى ، من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

والآية مثل قوله تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ. يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر ٤٠/ ٥١- ٥٢].

وروى الإمام أحمد والشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقول في النجوى يوم القيامة : « إن اللّه عز وجل يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟

أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة اللّه على الظالمين » .

الَّذِينَ يَصُدُّونَ .. إن هؤلاء الظالمين يردون الناس عن اتباع الحق

ج ١٢ ، ص : ٤٧

و الإيمان والطاعة ، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى اللّه عز وجل ، ويحولون بينهم وبين الجنة ، وَيَبْغُونَها عِوَجاً أي ويعدلون بالناس عن سبيل اللّه إلى المعاصي والشرك ، فهم يريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة ، والحال أنهم كافرون بالآخرة أي جاحدون بها مكذبون ، وأعاد لفظ هُمْ تأكيدا.

أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ ... إن أولئك الظالمين الصادين عن سبيل اللّه لا يعجزون ربهم أن يعاقبهم بالدمار والخسف كما فعل بغيرهم ، بل هم تحت قهره وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدنيا قبل الآخرة ، وليس لهم أنصار ينصرونهم من دون اللّه تعالى ، ويحجبون عنهم العذاب ، ويضاعف لهم العقاب بسبب إضلالهم غيرهم ، كما ضلوا بأنفسهم ، وكانوا صمّا عن سماع الحق ، عميا عن اتباعه.

ونظير الآية قوله تعالى : إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ [إبراهيم ١٤/ ٤٢] وقوله سبحانه : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ [النحل ١٦/ ٨٨]

وقوله صلى اللّه عليه وسلّم في الصحيحين : « إن اللّه ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » .
وعلة مضاعفة العذاب هي : ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ أي لم يستمعوا إلى القرآن سماع تدبر واتعاظ ، ولم يبصروا طريق الحق والخير وينظروا إلى آيات القرآن وآيات الكون ، الدالة على صدق الوحي ، كما قال تعالى : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ ، وَالْغَوْا فِيهِ ، لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [فصلت ٤١/ ٢٦] وقال : وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ [الأنعام ٦/ ٢٦].

(٤٥/١٢)

فليس المراد نفي السمع والبصر ، بل المقصود أنهم وإن كانوا يسمعون ويبصرون في الظاهر ، إلا أنهم ما استخدموا هاتين الحاستين استخداما صحيحا في

ج ١٢ ، ص : ٤٨

تلقي المعارف والمعلومات وتكوين العقيدة السلمية ، ونظرا لعنادهم وعتوهم وكراهتهم الحق والهدى ، ما كانوا يطيقون سمع آيات القرآن والتبصر بآيات الكون.

أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا ...

أي أولئك الموصوفون بالأوصاف السابقة خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نارا حامية يتزايد سعيرها ، كما قال تعالى :

مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ ، كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً [الإسراء ١٧/ ٩٧] ولا موت ولا حياة فيها.

وضلّ عنهم أي ذهب عنهم الذي كانوا يفترونه من دون اللّه من الأنداد والأصنام ، فلم تجد عنهم شيئا ، بل ضرتهم كل الضرر ، كما قال تعالى : وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً ، وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ [الأحقاف ٤٦/ ٦] وقال سبحانه : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم ١٩/ ٨١- ٨٢].

لا جَرَمَ ... حقا إنهم في الآخرة أخسر الناس صفقة لأنهم استبدلوا بنعيم الجنان ودرجاتها عذاب جهنم ودركاتها ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم ، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن بغضب الديان وعقابه.

(٤٦/١٢)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... بعد أن ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر السعداء ، وهم الذين آمنوا باللّه ورسوله ، وعملوا في الدنيا الأعمال الصالحة ، فآمنت قلوبهم ، وثابروا على الطاعات وترك المنكرات ، وخشعوا للّه وأنابوا إليه ، فلهم جنات العلى ذات النعم التي لا تعد ولا تحصى ، من كل ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهم مخلدون فيها ، ماكثون فيها على الدوام ، لا يموتون ولا يهرمون ، ولا يمرضون ، ولا يخرج منهم مستقذر ، وإنما هو رشح مسك يعرقون به.

ج ١٢ ، ص : ٤٩

ثم ذكر اللّه شبه الكافرين والمؤمنين وضرب مثلا لكليهما فقال : مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ أي مثل الفريقين المذكورين اللذين وصفا سابقا وهم الكفار بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، كمثل الأعمى والأصم ، والسميع والبصير الكافر مثل الأعمى ، لتعاميه عن وجه الحق في الدنيا والآخرة ، وعدم اهتدائه إلى الخير وعدم معرفته إياه ، ومثل الأصم لعدم سماعه الحجج ، فلا يسمع ما ينتفع به والمؤمن مثل متفتح السمع والبصر ، لاستفادته بما يسمع من القرآن ، ويرى في الأكوان. والسمع والبصر وسيلتا العلم والهدى ، وطريقا تكوين العقل.

(٤٧/١٢)

لا يستوي هذا وذاك صفة وحالا ومالا ، أفلا تذكرون أي تعتبرون ، فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء ، وكيف لا تميزون بين هذه الصفات المتباينة ؟ ! كما قال تعالى : لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ [الحشر ٥٩/ ٢٠] وقال سبحانه : وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [فاطر ٣٥/ ١٩- ٢٢] واستعمال : أَفَلا تَذَكَّرُونَ تنبيه على أنه يمكن علاج هذا العمى وهذا الصمم.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات ما يأتي :

١- لا أحد أظلم لأنفسهم من الذين افتروا على اللّه كذبا ، فنسبوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام : هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه.

٢- ينادى بالكفار والمنافقين على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على اللّه ، ألا لعنة اللّه على الظالمين ، أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

ج ١٢ ، ص : ٥٠

و الأشهاد المنادون بذلك : هم الملائكة ، أو الأنبياء والمرسلون ، والعلماء لذين بلّغوا الرسالات.

٣- إن سبب اللعنة على الظالمين وطردهم من رحمة اللّه إنما هو صدّ أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة للّه تعالى ، وعدولهم بالناس عن سبيل اللّه إلى المعاصي والشرك ، وكفرهم وجحودهم بالآخرة.

٤- الظالمون وغيرهم لا يعجزون اللّه بعقابهم في الدنيا ، ولا يقدرون على الإفلات من سلطان اللّه وقدرته وخسف الأرض بهم ، وليس لهم أنصار ينصرونهم من دون اللّه تعالى ، وعقابهم مضاعف على قدر كفرهم ومعاصيهم بسبب إضلالهم غيرهم ، وبسبب تعطيلهم قدرات السمع والبصر في استماع الحق وإبصاره.

٥- هؤلاء الظالمين خسروا أنفسهم وضاع عنهم افتراؤهم ، وتبدد كل ما تعلقوا به من آمال خاسرة ، وهم حقا في الآخرة أخسر الناس صفقة لاستبدالهم بنعيم الجنة بعذاب جهنم.

٦- المؤمنون المصدقون باللّه ورسوله ، العاملون الصالحات ، الخاشعون الخاضعون المنيبون لربهم ، هم أصحاب الجنة الماكثون فيها أبدا.

٧- لا تساوي إطلاقا بين المؤمنين والكافرين ، كما لا تساوي بين الأعمى والبصير ، ولا بين الأصم والسميع ، أفلا تنظرون في الوصفين وتتعظون وتعتبرون ؟ ! والخلاصة : إن اللّه تعالى وصف السعداء أهل الجنة بصفات ثلاث هي :

الإيمان ، والعمل الصالح ، والخشوع إلى اللّه تعالى ووصف الأشقياء المنكرين الجاحدين أهل النار بأربع عشرة صفة هي :

١- كونهم مفترين على اللّه : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ

ج ١٢ ، ص : ٥١

٢- إنهم يعرضون على اللّه في موقف الذل والهوان والخزي والنكال :

أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ.

٣- حصول الخزي والنكال والفضيحة العظيمة لهم : وَيَقُولُ الْأَشْهادُ : هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ.

٤- كونهم ملعونين من عند اللّه : أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ.

٥- كونهم صادّين عن سبيل اللّه مانعين عن متابعة الحق : الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

٦- سعيهم في إلقاء الشبهات ، وتعويج الدلائل المستقيمة : وَيَبْغُونَها عِوَجاً.

٧- كونهم كافرين : وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ.

٨- كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب اللّه : أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ.

٩- إنهم ليس لهم أولياء يدفعون عنهم عذاب اللّه ، فليست أصنامهم شفعاء عند اللّه : وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ.

١٠- مضاعفة العذاب لهم ، لسعيهم في الإضلال ومنع الناس عن الدين ، مع ضلالهم الشديد : يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ.

(٤٩/١٢)

١١- تعطيلهم وسائل الإيمان والمعرفة والاعتقاد الصحيح : ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ.

١٢- كونهم خاسرين أنفسهم لاشترائهم عبادة الآلهة بعبادة اللّه تعالى :

أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

.

ج ١٢ ، ص : ٥٢

١٣- غيبة افترائهم وذهابه عنهم بحيث لم يعودوا يتنبهون لضلالهم : وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

.

١٤- كونهم خاسرين في الآخرة : لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ.

قصة نوح عليه السلام [سورة هود (١١) : الآيات ٢٥ الى ٣١]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (٢٧) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (٢٨) وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩)

(٥٠/١٢)

وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)

ج ١٢ ، ص : ٥٣

الإعراب :

أَنْ لا تَعْبُدُوا بدل من إِنِّي لَكُمْ أو مفعول مُبِينٌ ويجوز أن تكون أَنْ مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير.

ما نَراكَ الكاف : مفعول أول. الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا فاعل اتَّبَعَكَ ، واتَّبَعَكَ وفاعله : مفعول ثان لنراك إذا كان من رؤية القلب ، وفي موضع الحال إذا كان من رؤية العين.

بادِيَ الرَّأْيِ منصوب على الظرف ، أو في بادي الرأي ، والعامل فيه : نَراكَ أي ما قبل إلا لأنه يتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها. وبادِيَ بغير همز : اسم فاعل من بدا يبدو : إذا ظهر ، أي : ظاهر الرأي ، وقرئ بالهمز : من بدأ يبدأ ، أي أول الرأي.

أَ نُلْزِمُكُمُوها أنلزم : يتعدى إلى مفعولين ، الأول : الكاف والميم ، والثاني : الهاء والألف ، وأثبت الواو في : أَنُلْزِمُكُمُوها ، ردا إلى الأصل لأن الضمائر ترد الأشياء إلى أصولها ، كقولك : المال لك وله. وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعا ، وقدم الأعرف منهما ، جاز في الثاني الفصل والوصل.

وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ جملة اسمية في موضع الحال ، ولَها : في موضع نصب لأنه يتعلق بكارهون.

تَزْدَرِي تقديره : تزدريهم ، فحذف المفعول من الصلة وهو العائد ، مثل : أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا [الفرقان ٢٥/ ٤١] أي بعثه اللّه. وأصله : تزتري على وزن تفتعل ، ثم أبدل من التاء دالا لقرب مخرجهما.

البلاغة :

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ شبّه من لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه بمن سلك الصحراء لا يعرف طرقها على سبيل الاستعارة التمثيلية.

أَ فَلا تَذَكَّرُونَ استفهام للإنكار والتقريع.

المفردات اللغوية :

إِنِّي لَكُمْ أي بأني لكم. نَذِيرٌ مُبِينٌ بيّن الإنذار ، أبيّن لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص. أَنْ لا تَعْبُدُوا أي بألا تعبدوا. إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ إن عبدتم غيره عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ مؤلم في الدنيا والآخرة ، وهو في الحقيقة صفة المعذّب ، لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة : جدّ جده ، ونهاره صائم للمبالغة.

ج ١٢ ، ص : ٥٤

الْمَلَأُ الأشراف والزعماء. إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا لا فضل لك علينا ، ولا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب

الطاعة. أَراذِلُنا أسافلنا وأخساؤنا وأصحاب الحرف الخسيسة والفقراء ، جمع أرذل الذي هو جمع رذل ، مثل كلب وأكلب وأكالب. بادِيَ الرَّأْيِ ظاهر الرأي من غير تعمق ، من البدو ، أو أول الرأي أو ابتداء الرأي من غير تفكر فيك ، من البدء ، أي في بدء الحكم عليك من أول وهلة ووقت حدوث أول رأيهم. وهو منصوب على الظرف ، أي وقت حدوث أول رأيهم. وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ أي زيادة تؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة. بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ في ادعاء الرسالة والنبوة ، وهذا الخطاب أدرجوا قومه معه فيه ، وغلب المخاطب على الغائبين.

أَ رَأَيْتُمْ أخبروني. إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي أي على حجة شاهدة بصحة دعواي الرسالة أو معجزة. وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ أي النبوة.

(٥٢/١٢)

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ خفيت عليكم فلم تهدكم ، وحقه أن يقال : فعميتا ، ولكن أفرد الضمير إما لأن البينة في نفسها هي الرحمة ، أو لأن حذفها للاختصار أو الاقتصار على ذكره مرة ، أو لأنه لكل واحدة من البينة والرحمة. أَنُلْزِمُكُمُوها يعني أنجبركم أو أنكرهكم على قبولها والاهتداء بها.

وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ لا تختارونها ولا تتأملون فيها ، أي لا نقدر على ذلك.

لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أي على التبليغ ، وهو وإن لم يذكر فمعلوم مما ذكر. مالًا جعلا تعطونيه. إِنْ أَجرِيَ أى ما ثوابي المأمول. وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا جواب لهم حين سألوا طردهم. إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ بالبعث ، فيجازيهم ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم.

تَجْهَلُونَ عاقبة أمركم. مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ أي يمنعني من عذابه ، أي لا ناصر لي إن طردتهم. أَفَلا فهلا. تَذَكَّرُونَ تتعظون ، فإن طردهم ليس بصواب.

خَزائِنُ اللَّهِ أي خزائن رزقه أو أمواله حتى جحدتم فضلي. وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ عطف ، أي ولا أقول لكم : أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني ، أو حتى أعلم أن هؤلاء اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة ولا تصميم قلبي. وَلا أَقُولُ : إِنِّي مَلَكٌ بل أنا بشر مثلكم. تَزْدَرِي تحتقر شأنهم لفقرهم. لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً أي فإن ما أعد اللّه لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا.

اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ قلوبهم. إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ أي إن قلت شيئا من ذلك.

المناسبة :

بعد أن أثبت اللّه تعالى بعثة النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وأن القرآن وحي من اللّه تعالى ، وبعد أن ذكر حال فريقي المؤمنين والكافرين المكذبين ، وحض على الاعتبار

و الاتعاظ بالحالين بقوله : أَفَلا تَذَكَّرُونَ ذكر مجموعة من قصص الأنبياء للعظة والتذكر ، وبيان اشتراك النبي صلى اللّه عليه وسلّم مع من قبله من الأنبياء في الدعوة إلى أصول واحدة مشتركة بين الأنبياء ، وهي عبادة اللّه وحده والإيمان بالبعث والجزاء ، وتنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه اللّه أمرهم.

التفسير والبيان :

أول هذه القصص المذكورة هنا هي قصة نوح عليه السلام ، وكان قد ذكر تعالى هذه القصة في سورة يونس ، وأعاد ذكرها هنا لما فيها من عظات وفوائد ، أهمها إعلام الكفار أن محمدا صلى اللّه عليه وسلّم كغيره من الرسل ، جاء للدعوة إلى توحيد اللّه وإثبات البعث والحساب والجزاء.

وتضمنت قصة نوح هنا عدة عناصر هي :

وصف دعوته إجمالا ، ومناقشة قومه والرد عليهم ، واستعجالهم العذاب ، وكيفية صنع نوح السفينة ، وإغراقهم بالطوفان ، ونجاة نوح ومن آمن معه ، والتماس نوح إنجاء ابنه معه. وكان نوح عليه السلام أول رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام.

والمعنى : تاللّه لقد أرسلنا نوحا إلى قومه المشركين ، فقال لهم : إني لكم نذير من اللّه ظاهر الإنذار ، أنذركم عذابه وبأسه إن أنتم عبدتم غير اللّه ، فآمنوا به وأطيعوا أمره ، ولا تعبدوا غيره ، ولا تشركوا به شيئا لأني أخاف عذاب يوم القيامة ، الذي هو عذاب شديد الألم.

ثم ذكر اللّه تعالى أجوبة قومه له وهي أربع شبهات :

الأولى- فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. أي قال السادة الكبراء من الكافرين منهم : ما أنت إلا بشر مثلنا ، أي لست بملك ، ولكنك بشر مشابه لنا في الجنس ، فلا مزية تمتاز بها علينا تستوجب الطاعة.

ج ١٢ ، ص : ٥٦

الثانية- وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ .. أي ولم يتبعك إلا أراذل القوم الأخساء أصحاب الحرف الخسيسة كالزرّاع والصناع ، وهم الفقراء والضعفاء ، في بادئ الأمر وظاهره دون تأمل ولا تفكر ولا تدبر في عواقب الأمور. ولو كنت صادقا لاتبعك الأشراف والأكياس من الناس ، كقوله تعالى : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ [الشعراء ٢٦/ ١١١].

الثالثة- وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ أي ما رأينا لكم علينا امتيازا ظاهرا في فضيلة أو قوة أو ثروة أو

علم أو عقل أو جاه أو رأي ، يحملنا على اتباعكم : لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ [الأحقاف ٤٦/ ١١].

الرابعة- بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ أي بل يترجح لدينا كذبكم في ادعائكم الصلاح والسعادة في الدار الآخرة.

ويلاحظ أنهم أشركوا معه أتباعه في هذه الإجابة ، وكان الخطاب لنوح ومن آمن معه.

ثم أخبر اللّه تعالى عن ردود نوح عليه السلام على قومه الذين أثاروا تلك الشبهات ، وغيرها مما لم يحكها القرآن وطواها ، أو لم يقولوها ولكن كلامهم يستلزمها.

قالَ : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ .. قال نوح : يا قومي ، أخبروني ماذا أفعل وما ترون ؟ إن كنت على يقين وحجة ظاهرة فيما جئتكم به من ربي ، يتبين لي بها أني على حق من عنده ، وآتاني رحمة من عنده وهي النبوة والوحي ، فعمّيت عليكم أي خفيت عليكم ، فلم تهتدوا إليها ، ولا عرفتم قدرها ، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ، أنكرهكم على قبولها ونغصبكم عليها ، وأنتم لها كارهون ، معرضون عنها ، فلا يعقل الإكراه في الدين.

وهذا دليل النبوة والترفع عن آراء الجهال والسذّج.

وَيا قَوْمِ ، لا أَسْئَلُكُمْ .. أي لا أطلب منكم على نصحي لكم مالا أي أجرا

آخذه منكم ، وإنما أجري على اللّه عز وجل. وهذا قول تكرر صدوره من جميع الأنبياء بعد نوح ، مثل هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام.

وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا .. أي ليس من شأني طرد المؤمنين وتنحيتهم من مجلسي.

ويظهر من هذا أن أكابر الكفار كانوا يبغون تخصيصهم ببعض المزايا والامتيازات ، كتخصيص مجلس خاص بهم ، لا يلتقون فيه مع الضعفاء والفقراء ، أنفة منهم وكبرا وترفعا ، كما حدث تماما بين النبي محمد صلى اللّه عليه وسلّم وبين قومه قريش ، فقال تعالى : وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ [الأنعام ٦/ ٥٢].

إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ إن هؤلاء الأتباع سيلقون ربهم وسيحاسبهم على أعمالهم ، كما يحاسبكم ، ويعاقب من طردهم ، ولكني أراكم قوما تجهلون الحقائق وتترددون في ظلمات الجهل في استرذالكم لهم ، وسؤالكم طردهم ، فإن تفضيل الناس بعضهم على بعض إنما هو بالعمل الطيب والخلق الفاضل ، لا بالثروة والمال والجاه كما تزعمون.

وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي ... أي يا قوم من ينصرني من عذاب اللّه إن طردتهم ، فذلك ظلم عظيم ، كما قال

تعالى : فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ [الأنعام ٦/ ٥٢] أفلا تذكّرون ، أي أفلا تتعظون وتتفكرون فيما تقولون ؟ ! وَلا أَقُولُ لَكُمْ .. أي لا تعني النبوة والرسالة أني أملك خزائن رزق اللّه تعالى ، وأقدر على التصرف فيها ، وإنما أنا بشر كغيري من الناس مؤيد بالمعجزات ، أدعو إلى عبادة اللّه بإذنه ، ولا أعلم من الغيب إلا ما أطلعني اللّه عليه ، ولست ملكا من الملائكة ، ولا أستطيع القول لهؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم : لن ينالهم خير ، وليس لهم ثواب على أعمالهم ، وهو ما وعدهم اللّه به

على الإيمان من سعادة الدنيا والآخرة ، اللّه أعلم بما في صدورهم ، فإن كان باطنهم كظاهر هم في الإيمان ، فلهم الحسنى ، وإن حكم إنسان على سرائرهم ، كان ظالما قائلا ما لا علم له به.

والمقصود بالآية أن نوحا عليه السلام أخبرهم بتذلله وتواضعه للّه عز وجل.

وفي هذا دلالة على الخط الفاصل بين الأنبياء وبين الزعماء ، الأولون يهتمون بإرشاد الناس إلى ما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية دون إغراء بمال أو عطاء نفعي ، والآخرون يعتمدون في كسب الأتباع على الوعود بالمنافع المادية وبذل الأموال رخيصة من أجل كسب تأييدهم.

و فيه دلالة على أن النبي بشر لا ملك ، وأنه لا يعلم الغيب وإنما علمه عند اللّه ، كقوله تعالى : قُلْ : لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا ، إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ [الأعراف ٧/ ١٨٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- دعوة نوح قومه كدعوة سائر الأنبياء إلى عبادة اللّه وإطاعته وحده لا شريك له ، وترك عبادة الأصنام.

٢- الاستمرار على الكفر أو عبادة الأصنام يوجب العذاب الأليم الموجع الشاق في الدار الآخرة.

٣- إن الغالب في إعراض قوم نوح من الأشراف والسادة والكبراء كإعراض كل المكذبين الجاحدين مبني على أعذار واهية ، رأسها الاستكبار والاستعلاء على بقية الناس من الفقراء والضعفاء الذين يتبعون الحق غالبا ، كما قال تعالى :

وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف ٤٣/ ٢٣].

و هكذا يكون الغالب على ضعفاء الناس اتباع الحق ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته ، كما ذكرت الآية : إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها .. ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال له فيما قال :

أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم. فقال هرقل : هم أتباع الرسل.

٤- قولهم : بادِيَ الرَّأْيِ ليس بمذمة ولا عيب في الواقع لأن الحق إذا وضح ، لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، بل لا بد من اتباع الحق حينئذ لكل ذي عقل وذكاء ، ولا يفكر عندئذ بالبعد عنه إلا غبي أو عيي ، والرسل عليهم السلام إنما جاؤوا بأمر جلي واضح. جاء

في الحديث أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر ، فإنه لم يتلعثم »

أي ما تردد ولا تروى لرؤيته أمرا عظيما واضحا ، فبادر إليه وسارع.

٥- الأنبياء يتمسكون عادة بما ثبت لديهم يقينا من وحي اللّه تعالى ، والنبوة والرسالة ، ولو عارضهم أكثر الناس.

٦- لا يلجأ الأنبياء عادة إلى إكراه أحد من الناس على قبول دعوتهم :

أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ وهو استفهام بمعنى الإنكار ، أي لا يمكنني أن أضطركم إلى الإيمان والمعرفة بها ، وهي شهادة أن لا إله إلا اللّه ، أو النبوة والرحمة الإلهية أو البينة. وهذا أول نص يمنع الإكراه على الدين.

٧- لا يصح عقلا وذوقا وأدبا طرد الأنبياء من يؤمنون بهم ، لا لشيء إلا لأنهم فقراء ضعفاء ، فلو فعل ذلك أحدهم فرضا لخاصموه عند اللّه ، وجازاهم على إيمانهم ، وجازى من طردهم ، ولا يجد من ينصره ويمنعه من عذاب اللّه إن طردهم لأجل إيمانهم ، ويكون طرد المؤمنين بصفة دائمة لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي ، ولا يقدم عليه نبي. والمقصود هو الطرد المطلق على سبيل التأبيد.

ج ١٢ ، ص : ٦٠

٨- خزائن الرزق في تصرف اللّه تعالى ، والغيب لا يعلمه إلا اللّه عز وجل ، ولا يقول نبي : إن منزلته عند الناس منزلة الملائكة.

٩- احتج بعض العلماء بآية : وَلا أَقُولُ : إِنِّي مَلَكٌ على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ؟ لدوامهم على

الطاعة ، واتصال عباداتهم مذ خلقوا إلى يوم القيامة.

١٠- الفضائل الحقيقة الروحانية ليست إلا ثلاثة أشياء : الاستغناء المطلق فلا أدعيه : وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ والعلم التام : وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ والقدرة التامة الكاملة : وَلا أَقُولُ : إِنِّي مَلَكٌ والملائكة أكمل المخلوقات في القدرة والقوة.

والمقصود من ذكر هذه الأمور الثلاثة أنه ما حصل لنوح عليه السلام إلا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الإنسانية ، وأما الكمال المطلق فلا يدعيه.

١١- إن استحقاق المؤمن ثواب اللّه تعالى لا يمنعه اعتراض أحد : لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهم ، اللّه أعلم بما في أنفسهم فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به.

استعجال قوم نوح العذاب ويأسه منهم [سورة هود (١١) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]

قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)

ج ١٢ ، ص : ٦١

الإعراب :

إِنْ أَرَدْتُ شرط ، وجواب الشرط دل عليه : وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي وتقدير الكلام :

إن كان اللّه يريد أن يغويكم ، فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي.

البلاغة :

فَعَلَيَّ إِجْرامِي مجاز بالحذف ، أي عقوبة إجرامي ، على سبيل الفرض ، بدليل استعمال كلمة إِنِ الدالة على الشك. وأما إجرامهم فهو محقق : وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ.

المفردات اللغوية :

جادَلْتَنا خاصمتنا. فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فأطلته أو أتيت بأنواعه. فَأْتِنا بِما تَعِدُنا به من العذاب. إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في دعوى النبوة ، والوعيد ، فإن مناظرتك لا تؤثر فينا. إِنْ شاءَ تعجيله لكم ، أو تأجيله ، فإن أمره إليه لا إلي. وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بدفع العذاب أو الهرب منه فلستم بفائتين اللّه تعالى.

نُصْحِي النصح : قصد الخير للمنصوح وإخلاص القول والعمل له. أَنْ يُغْوِيَكُمْ أي إغواءكم أي الإيقاع

في الغيّ والفساد ، وقيل : المراد أن يهلككم هُوَ رَبُّكُمْ خالقكم والمتصرف فيكم على وفق إرادته.
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيجازيكم على أعمالكم.
أَمْ يَقُولُونَ بل أيقول كفار مكة. افْتَراهُ اختلق محمد القرآن. فَعَلَيَّ إِجْرامِي أي عقوبة ذنبي ووباله. وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ أي من إجرامكم في إسناد أو نسبة الافتراء إلي.
المناسبة :
بعد أن أجاب نوح قومه على شبهاتهم ، أوردوا عليه أمرين : الأول- أنهم وصفوه بكثرة المجادلة ، والثاني- أنهم استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به. ثم ذكر تعالى يأسه منهم ، واعتراضا في القصة وهو براءة محمد من نسبة افترائهم إليه.
التفسير والبيان :
قال قوم نوح له : قد حاججتنا فأكثرت من ذلك ، ونحن لا نتبعك ، فأتنا بما تعدنا به من العذاب المعجل في الدنيا ، إن كنت صادقا في دعواك أن اللّه
ج ١٢ ، ص : ٦٢

يعذبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة ، وهذا كقوله تعالى : قالَ : رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهاراً ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً [نوح ٧١/ ٥- ٦].
قال لهم نوح : إنما الذي يعاقبكم ويعجل تعذيبكم اللّه الذي لا يعجزه شيء ، إن شاء عقابكم عاجلا أو آجلا ، فما أنتم بمعجزين أي بفائتي اللّه ولا بمستطيعي الهرب من عذابه لأنكم في قبضته وملكه وسلطانه.
ولا يفيدكم نصحي واجتهادي في إيمانكم ، إن أراد اللّه إغواءكم أي إيقاعكم في الغي والضلال والفساد ، ودماركم وهلاككم ، هو ربكم أي خالقكم والمتصرف في أموركم ، والحاكم العادل الذي لا يجور ، وإليه ترجعون في الآخرة ، فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير أو شر.
ومعنى إرادة اللّه إغواءهم وإضلالهم : ربط الأسباب بالمسببات ، لا خلقه للغواية والشقاوة فيهم ، فإن ذلك منوط بالعمل والكسب ، والنتائج متوقفة على المقدمات.
أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ ..
هذا كلام معترض في وسط قصة نوح ، مؤكد لها ، مقرر لها ، وهي حكاية لقوله مشركي مكة في تكذيب هذه القصص : أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ بل يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون في مكة : إن محمدا افترى القرآن ، أي اختلقه من قبل نفسه ، ومنه ما أخبر به عن نوح وقومه ، فرد اللّه معلما نبيه أن يقول

لهم : إن افتريته فعلي عقوبة إثمي ، وعذاب ذنبي ، والاجرام : اقتراف المحظورات واكتسابها ، وأنا بريء من آثامكم وذنوبكم ، وسيجزيكم اللّه على أعمالكم ، فجرمكم ليس مفتعلا ولا مفترى لأني اعلم ما عند اللّه من العقوبة لمن كذب عليه ، فكل إنسان مسئول عن ذنبه ، كما قال تعالى : أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى ، وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا

ما سَعى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ، ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى [النجم ٥٣/ ٣٦- ٤١].

ونظير الآية : وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [يونس ١٠/ ٤١].

والأظهر أن قوله : أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ هو من محاورة نوح لقومه ، كما قال ابن عباس لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ، والخطاب منهم ولهم. وأنهم يقولون : افترى ما أخبركم به من دين اللّه وعقاب من أعرض عنه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الآتي :

١- إن عناد الكفار وغباءهم وحماقتهم استوجب كل ذلك التنكر لدعوة النبي نوح عليه السلام ، مهما أتى به من الأدلة المثبتة لتوحيد اللّه ووجوب طاعته وعبادته ، وورّطهم في طلب تعجيل نقمة اللّه وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق.

٢- الجدال في الدين لتقرير الأدلة وإزالة الشبهات أمر محمود ، وهو حرفة الأنبياء ، ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق ، فمن قبله نجا ، ومن ردّه خاب وخسر.

٣- التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار ، والجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق أمر مذموم ، وصاحبه في الدارين ملوم.

٤- قوله تعالى : إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ رد على المعتزلة والقدرية ومن وافقهما الذين زعموا أن اللّه تعالى لا يريد أن يعصي العاصي ، ولا يكفر الكافر ، ولا يغوي الغاوي ، وأنه يفعل ذلك ، واللّه لا يريد ذلك.

و الواقع أن اللّه هو الهادي والمضل ، وإرادة اللّه يصح تعلقها بالإغواء ، والمعنى أن اللّه يبين للناس

طريق الهداية وطريق الضلال ، ويختار الإنسان ما يشاء مع إرادة اللّه.
وكلام نوح عليه السلام دليل على أنه تعالى ما أغواهم ، بل فوض الاختيار إليهم من وجهين :

(٦٢/١٢)

الأول- لو أراد اللّه تعالى إغواءهم ، لما بقي في النصح فائدة ، ولما أمر اللّه نوحا بأن ينصح الكفار ، وأجمع المسلمون على أن نبينا كغيره من الأنبياء مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم.
الثاني- لو ثبت الحكم عليهم بأن اللّه تعالى أغواهم أو خلقهم غاوين ضالين ، لصار هذا عذرا لهم في عدم إيمانهم ، ولصار عمل نوح غير ذي موضوع ولا هدف ، ولا داعي له ، ولا فائدة منه لأنه يسهل عليهم الاعتذار بذلك ، والرد عليه بعدم جدوى دعواه.
والخلاصة : إن مبدأ أهل السنة أن اللّه تعالى قد يريد الكفر من الإنسان ، ولكن لا يأمره بذلك ، وإنما يأمره بالإيمان ، وإذا أراد الكفر من العبد فإنه يمتنع صدور الإيمان منه.
٥- كل إنسان مسئول عن نفسه ، فإن افترى أو اختلق نبي الوحي والرسالة كما يزعم قومه المعادون له ، فعليه عقاب إجرامه ، وإن كان محقا فيما يقول ، وهو الحق الأكيد ، فعليهم عقاب تكذيبهم وسيئاتهم.
ج ١٢ ، ص : ٦٥
نهي نوح عن الاغتمام بهلاك قومه وأمره بصنع السفينة [سورة هود (١١) : الآيات ٣٦ الى ٤١]

(٦٣/١٢)

وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)
وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١)
الإعراب :
نُوحٍ منصرف لأنه خفيف ، وإن كان فيه العجمة والتعريف.
مِنْ قَوْمِكَ يُؤْمِنَ فاعل يُؤْمِنَ. مَنْ يَأْتِيهِ مَنْ موصولة ، مفعول العلم.

اثْنَيْنِ في موضع نصب لأنه مفعول احْمِلْ. ووَ أَهْلَكَ معطوف عليه.
مَنْ سَبَقَ منصوب على الاستثناء من أَهْلَكَ.
وَمَنْ آمَنَ في موضع نصب لأنه معطوف على اثنين ، أو على أهلك.
ج ١٢ ، ص : ٦٦
مَجْراها فيه ثلاثة أوجه : الأول- أن يكون منصوبا على تقدير حذف ظرف مضاف إلى ذلك. وَمُرْساها عطف عليه ، وتقديره : باسم اللّه وقت إجرائها وإرسائها ، أي اركبوا فيها متبركين باسم اللّه تعالى في هذين الوقتين. وبِسْمِ اللَّهِ متعلق بمحذوف في موضع نصب على الحال من واو ارْكَبُوا. وبِسْمِ اللَّهِ هو العامل في مَجْراها.

(١٢/٦٤)

الثاني- أن يكون مَجْراها مبتدأ ، وبِسْمِ اللَّهِ خبره ، وتقديره : بسم اللّه إجراؤها وإرساؤها ، والجملة حال من ضمير فِيها.
والثالث- أن يكون مَجْراها في موضع رفع بالظرف ، والظرف حال من هاء :
فِيها.
ومن قرأ مَجْراها وَمُرْساها جعله اسم فاعل من أجراها اللّه فهو مجري ، وأرساها فهو مرسي ، وهو خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو مجريها ومرسيها.
إِلَّا قَلِيلٌ مرفوع بفعل : آمَنَ ولا يجوز نصبه على الاستثناء لأن الكلام قبله لم يتم. والتعبير حصر بهم.
البلاغة :
وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا كناية عن الرعاية والحفظ.
المفردات اللغوية :
فَلا تَبْتَئِسْ تحزن ، أي لا تغتم بهلاكهم ، وهذا يعني أن اللّه أيأسه أو أقنطه من إيمانهم ، ونهاه أن يغتم بما فعلوه من التكذيب والإيذاء. بِما كانُوا يَفْعَلُونَ من الشرك ، فدعا عليهم بقوله : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً [نوح ٧١/ ٢٦] فأجاب اللّه دعاءه.
الْفُلْكَ السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع. بِأَعْيُنِنا بحفظنا وعنايتنا ورعايتنا ، على طريق التمثيل.
وَوَحْيِنا إليك كيف تصنعها. الَّذِينَ ظَلَمُوا كفروا بترك إهلاكهم والمقصود : لا تدعني برفع العذاب عنهم.
إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ محكوم عليهم بالإغراق ، فلا سبيل إلى كفه.
وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ حكاية حال ماضية. مَلَأٌ جماعة. سَخِرُوا مِنْهُ استهزءوا به لعمله السفينة ، فإنه كان يعملها ، في برية بعيدة عن الماء ، فكانوا يضحكون منه ويقولون له : صرت نجارا بعد ما كنت نبيا. قالَ : إِنْ

تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ أي سنهزأ بكم إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة ، ونجونا وتركناكم. وقيل : المراد بالسخرية : الاستجهال. عَذابٌ يُخْزِيهِ يذله ويفضحه. وَيَحِلُّ ينزل. عَذابٌ مُقِيمٌ دائم وهو عذاب النار.

ج ١٢ ، ص : ٦٧

(٦٥/١٢)

حَتَّى إِذا .. حَتَّى هي التي يبتدأ بعدها الكلام ، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء. فإن كانت غاية فهي غاية للصنع ، أي لقوله : وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ أي وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد. ويكون ما بعد يَصْنَعُ من الكلام حالا من يَصْنَعُ كأنه قال :

يصنعها ، والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه ، سخروا منه. وجواب كُلَّما إما سَخِرُوا وإما قالَ وسَخِرُوا بدل من مَرَّ أو صفة لملأ.

جاءَ أَمْرُنا بإهلاكهم. وَفارَ التَّنُّورُ أي نبع الماء فيه وارتفع كالقدر تفور ، والتَّنُّورُ تنور الخبز ، ابتدأ منه النبع ، على خرق العادة ، وكان ذلك علامة لنوح. وكان في الكوفة في موضع مسجدها ، أو في الهند ، أو بعين وردة بأرض الجزيرة. وقيل : التَّنُّورُ وجه الأرض.

احْمِلْ فِيها في السفينة. مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ أي ذكر وأنثى ، أي من كل أنواعهما.

اثْنَيْنِ ذكرا وأنثى. جاء في القصة : إن اللّه حشر لنوح السباع والطير وغيرهما ، فجعل يضرب بيديه في كل نوع ، فتقع يده اليمنى على الذكر ، واليسرى على الأنثى ، فيحملها في السفينة.

وَأَهْلَكَ أي زوجته وأولاده. إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أي منهم بالإهلاك والإغراق ، وهو ولده كنعان وزوجته ، وأخذ معه سام وحام ويافث وزوجاتهم الثلاثة.

إِلَّا قَلِيلٌ قيل : كانوا ثمانين ، نصفهم رجال ونصفهم نساء ، وقيل : كانوا تسعة وسبعين :

زوجته المسلمة ، وبنوه الثلاثة (سام وحام ويافث) ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم.

مَجْراها وَمُرْساها أي جريها ومنتهى سيرها. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أي لولا مغفرته للسيئات ورحمته بالعباد ، لما أنجاكم ، فهو رحيم حيث لم يهلكنا.

المناسبة :

الآيات تتمة لما ذكر قبلها ، تتضمن الإعداد لإغراق قوم نوح وإهلاكهم ، ومقابلة السخرية والتهكم بالتخطيط للنجاة وغرق القوم.

التفسير والبيان :

(٦٦/١٢)

يخبر اللّه تعالى أنه أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن أحد من قومك بدعوتك إلا من قد آمن سابقا ، فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ، فدعا عليهم نوح عليه

ج ١٢ ، ص : ٦٨

السلام بقوله : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً [نوح ٧١/ ٢٦].

واصنع الفلك أي السفينة أداة النجاة بأعيننا أي بمرأى منا وبرعايتنا وحفظنا وحراستنا ، وبتعليمك بوحينا كيفية الصنع ، حتى لا تخطئ ، فقوله وَوَحْيِنا يعني تعليمنا لك ما تصنعه ، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير.

واستعمل القرآن تعبير الأعين لكمال العناية وتمام الرعاية في قوله تعالى لموسى : وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي [طه ٢٠/ ٣٩] وقوله للنبي محمد صلى اللّه عليه وسلّم : وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا [الطور ٥٢/ ٤٨].

وَلا تُخاطِبْنِي ... أي ولا تراجعني يا نوح ولا تدعني في شأن قومك ودفع العذاب عنهم بشفاعتك ، فقد وجب عليهم العذاب ، وتم الحكم عليهم بالإغراق. والمقصود ألا تأخذك بهم رأفة ولا شفقة.

وبدأ يصنع السفينة ، وكلما مر عليه جماعة من أشراف قومه ، استهزءوا منه ومن عمله السفينة ، وكذبوا بما توعدهم به من الغرق. قال نوح متوعدا بوعيد شديد وتهديد أكيد : إن تسخروا منا لصنع ما نصنع مما لا يفيد شيئا في ظنكم ، فإنا نسخر منكم في المستقبل حين الغرق ، كما تسخرون منا الآن ، أي نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا ، والحرق في الآخرة.

فسوف تعلمون قريبا بعد تمام عملنا من يأتيه عذاب يهينه في الدنيا ، وهو عذاب الغرق ، ويحل عليه عذاب مقيم ، أي دائم مستمر أبدا في الآخرة.

(٦٧/١٢)

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا .. أي حتى إذا حان وقت أمرنا بالهلاك من الأمطار المتتابعة ، وفار التنور أي نبع الماء من التنور ، موقد الخبز ، وارتفع كما تفور القدر بغليانها ، والفوران : الغليان ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ،

ج ١٢ ، ص : ٦٩

و عن ابن عباس : التنور وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيونا تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار ، صارت تفور ماء. وهذا هو المعنى الأول لأن العرب تسمي وجه الأرض تنورا ، قال تعالى : فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً ، فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ،

وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ [القمر ٥٤/ ١١- ١٣].

وقلنا لنوح حينئذ : احمل في السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين : ذكرا وأنثى ، للحفاظ على أصل النوع الحيواني. واحمل فيها أهلك أي أهل بيتك من الذكور والإناث إلا أمرأتك وابنك : يام أو كنعان ، وهما من سبق عليه القول أنه من أهل النار ، للعلم بأنه يختار الكفر ، لا لتقديره عليه ، تعالى اللّه عن ذلك.

وخذ معك من آمن من قومك ، وإن لم يؤمن إلا عدد قليل ، أو نزر يسير ، مع طول المدة ودعوتهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاما. قيل : كانوا ستة أو ثمانية رجال ، ونساءهم : نوحا عليه السلام وأهله وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، وقال ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا ، منهم نساؤهم.

ولم ير الحق سبحانه وتعالى حاجة لبيان العدد لقلتهم التي لا تستحق الذكر ، ولم يبين أنواع الحيوان المحمولة ولا كيفية حملها ، فذلك متروك للبشر.

وَقالَ : ارْكَبُوا فِيها أخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لمن حملهم معه في السفينة : بسم اللّه يكون جريها على سطح الماء ، وبسم اللّه يكون منتهى سيرها وهو رسوها ، أي بتسخيره تعالى وقدرته يكون مجراها ومرساها ، لا بقوتنا.

إن ربي غفور لذنوب عباده رحيم بهم ، فلو لا مغفرته لذنوبكم ورحمته بكم لما نجاكم فقوله : إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أي لأهل السفينة.

أخرج الطبراني عن

ج ١٢ ، ص : ٧٠

الحسين بن علي رضي اللّه عنه أنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : بسم اللّه الملك الرحمن الرحيم : بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وفي رواية أخرى لأبي القاسم الطبراني عن ابن عباس عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال : « أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم اللّه الملك الرحمن :

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. الآية. بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها .. الآية » .

وذكر المغفرة والرحمة بعد ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين هو في الجملة شأن القرآن في بيان الأضداد والمتقابلات ، كما في قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [الأعراف ٧/ ١٦٧] وقوله : وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ [الرعد ١٣/ ٦]

ونحو ذلك من الآيات التي تقرن بين الرحمة والانتقام.

وذكر آية المغفرة والرحمة هنا في وقت الإهلاك وإظهار القهر لبيان فضل اللّه على عباده الذين نجاهم ، فهم في جميع الأحوال بحاجة إلى إعانة اللّه وفضله وإحسانه ، والإنسان لا ينفك عادة عن أنواع الزلات والخطايا ، فإن نجاتهم لا ببركة علمهم كما قد يظنون ، وإنما بمحض فضل اللّه ، لإزالة العجب منهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١- الإياس من إيمان قوم نوح واستدامة كفرهم ، تحقيقا لنزول الوعيد بهم.

(٦٩/١٢)

و هذا يدل على صحة قول أهل السنة في القضاء والقدر ، فإنه تعالى أخبر عن قوم نوح أنهم لا يؤمنون ، ولا بد أن يقع ما يتفق مع هذا الخبر ، وإلا انقلب علم اللّه جهلا وكذبا ، وذلك محال.

ج ١٢ ، ص : ٧١

٢- لطف اللّه بنبيه نوح ، إذ أخبره قبل الهلاك بألا يغتم بهلاك قومه ، حتى لا يصبح بائسا حزينا.

٣- أول سفينة عبرت البحر هي سفينة نوح ، وكان صنعها برعاية اللّه وتعليمه نوحا كيفية الصنع.

والمقصود من بِأَعْيُنِنا معنى الإدراك والإحاطة ، لا التجسيم لأنه سبحانه منزه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف ، لا ربّ غيره.

واتخذ نوح عليه السلام السفينة في سنتين ، كما قال ابن عباس ، وقيل : في ثلاثين سنة ، كما قال كعب ، وقيل في مائة سنة كما ذكر زيد بن أسلم. وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها. أما طولها وعرضها فعن ابن عباس :

كان طولها ثلاث مائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وسمكها ثلاثون ذراعا وكانت من خشب الساج.

٤- من الغباوة سخرية الناس من نبي يوحي إليه فيما يفعل ، وسخريتهم إما بقولهم : يا نوح صرت بعد النبوة نجارا ، وإما لأنهم لم يشاهدوا سفينة تبنى وتجري على الماء. وسخرية نوح كانت عند الغرق ، والمراد بالسخرية الاستجهال أي إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا.

٥- ماء الطوفان جاء من السماء : فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ وفوران التنور على وجه الأرض كان علامة.

٦- من رحمة اللّه بخلقه نجاة نوح ومن آمن معه من قومه ، وهم ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بنيه : سام وحام ويافث وزوجاتهم. ومن فضله تعالى الحفاظ على أصل الثروة الحيوانية ، إذ أمر اللّه نوحا عليه السلام باصطحاب الحيوانات من كل شيء زوجين ذكر وأنثى.

٧- الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل.

ج ١٢ ، ص : ٧٢

(٧٠/١٢)

انتهاء الطوفان ونجاة السفينة وهلاك ابن نوح مع استشفاع أبيه [سورة هود (١١) : الآيات ٤٢ الى ٤٧]

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (٤٢) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (٤٥) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (٤٦)

قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٤٧)

الإعراب :

لا عاصِمَ اسم لا ، وخبرها : مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وهو متعلق بمحذوف ، تقديره :

لا ذا عصمة كائن من أمر اللّه. الْيَوْمَ معمول الظرف ، وإن تقدم عليه ، كقولهم : كلّ يوم لك درهم. أي في اليوم.

مَنْ رَحِمَ منصوب على أنه استثناء منقطع لأن عاصِمَ فاعل ، ومَنْ رَحِمَ مفعول. وقيل : لا عاصِمَ بمعنى معصوم ، فلا يكون مَنْ رَحِمَ استثناء منقطعا ، وإنما هو

ج ١٢ ، ص : ٧٣

بدل مرفوع من عاصِمَ. والتقدير : لا عاصم اليوم من أمر اللّه إلا من رحم أي الراحم ، وهو اللّه تعالى.

وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ مبتدأ وخبر.

(٧١/١٢)

إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ يعود الضمير إلى السؤال ، أي إن سؤالك أن أنجي كافرا عمل غير صالح ، أو يعود إلى الابن ، والمراد : إنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ومن قرأه عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ جعله فعلا ماضيا ، ونصب غَيْرُ على أنه مفعول به ، وهذه القراءة تدل على أن الضمير

في إِنَّهُ يعود على الابن.

فَلا تَسْئَلْنِ الأصل فيه أن تأتي بثلاث نونات : نوني التوكيد ونون الوقاية ، فاجتمعت ثلاث نونات فاستثقلوا اجتماعها ، فحذفوا الوسطى لأن نون الوقاية لا تحذف ، وكسرت الشديدة للياء ، ثم حذفت اكتفاء بالكسرة.

البلاغة :

يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي بين الأرض والسماء طباق ، وبين ابلعي وأقلعي جناس ناقص.

قال أبو حيان : في هذه الآية و، حد وعشرون نوعا من البديع بالرغم من أن ألفاظها تسع عشرة لفظة : المناسبة في قوله : أَقْلِعِي وابْلَعِي ، والمطابقة بذكر الأرض والسماء ، والمجاز في قوله يا سَماءُ المراد مطر السماء.

والاستعارة في قوله : أَقْلِعِي ، والإشارة في قوله وَغِيضَ الْماءُ فإنها إشارة إلى معان كثيرة ، والتمثيل في قوله : وَقُضِيَ الْأَمْرُ عبر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين ، والإرداف في قوله : وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ فلفظ وَاسْتَوَتْ كلام تام ، أردفه بقوله عَلَى الْجُودِيِّ قصدا للمبالغة في التمكن بهذا المكان ، والتعليل في قوله : وَغِيضَ الْماءُ فإنه علة للاستواء ، والاحتراس في قوله : وَقِيلَ : بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وهو أيضا ذم لهم ودعاء عليهم ، والإيضاح بقوله الظَّالِمِينَ أي القوم الذين سبق ذكرهم في قوله : وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ ...

(٧٢/١٢)

فالألف واللام في القوم للعهد ، والمساواة وَاسْتَوَتْ فلفظها مساو لمعناها ، وحسن النّسق ، لعطف قضايا بعضها على بعض ، والإيجاز لذكر القصة باللفظ القصير مستوعبا للمعاني الجمة ، والتسهيم لأن أول الآية يا أَرْضُ ابْلَعِي فاقتضى آخرها وَيا سَماءُ أَقْلِعِي والتهذيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بكمال الحسن ، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في قرارها ، والتجنيس في قوله أَقْلِعِي وابْلَعِي والمقابلة في قوله : يا أَرْضُ ابْلَعِي وَيا سَماءُ أَقْلِعِي والذم في قوله :

ج ١٢ ، ص : ٧٤

بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ والوصف : قص القصة ووصفها بأحسن وصف (النهر الماد من البحر لأبي حيان : ٥/ ٢٢٧) بهامش البحر المحيط.

المفردات اللغوية :

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ متصل بمحذوف دل عليه : ارْكَبُوا أي فركبوا مسمين ، وهي تجري وهم فيها مَوْجٍ جمع موجة : وهي ما يرتفع من الماء الكثير عند اضطرابه كَالْجِبالِ في الارتفاع والعظم وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ كنعان

وَكانَ فِي مَعْزِلٍ عن السفينة عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه سَآوِي سألجأ يَعْصِمُنِي يمنعني ويحفظني مِنْ أَمْرِ اللَّهِ عذاب إِلَّا لكن مَنْ رَحِمَ اللّه ، فهو المعصوم ابْلَعِي ماءَكِ اشربي الماء الذي نبع منك ، فشربته دون ما نزل من السماء ، فصار أنهارا وبحارا أَقْلِعِي أمسكي عن المطر ، فأمسكت.

وَغِيضَ نقص وَقُضِيَ الْأَمْرُ تم أمر هلاك قوم نوح الكافرين وإنجاء المؤمنين وَاسْتَوَتْ وقفت واستقرت السفينة عَلَى الْجُودِيِّ جبل بالجزيرة بقرب الموصل في ديار بكر. وهذا النداء والخطاب بالأمر استعارة مجازية بُعْداً هلاكا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الكافرين.

(٧٣/١٢)

و الآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها ، والدلالة على كنه الحال ، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وإيراد الأخبار للمجهول للدلالة على تعظيم الفاعل ، وأنه متعين في نفسه.

إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي

إن كنعان من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ الذي لا خلف فيه وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ أعلمهم وأعدلهم.

إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الناجين أو ليس من أهل دينك. قال ابن عباس : كان ابنه من صلبه ، ولكنه لم يكن مؤمنا ، وما بغت امرأة نبي قط. ومعنى الآية : إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك. إِنَّهُ أي سؤالك إياي بنجاته أو إن ابنك ذو عمل غير صالح ، فإنه كافر ، ولا نجاة للكافرين. وفي قراءة بكسر ميم عَمَلٌ ونصب غير ، فالضمير لابنه ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ من إنجاء ابنك مِنَ الْجاهِلِينَ بسؤالك ما لم تعلم لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال ، وأغناه عن السؤال ، لكن أشغله حب الولد عنه ، حتى اشتبه عليه الأمر.

أَنْ أَسْئَلَكَ في المستقبل ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ما لا علم لي بصحته وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ما فرط مني من السؤال وَتَرْحَمْنِي بالتوبة والتفضل علي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ أعمالا.

المناسبة :

بعد أن أمر نوح عليه السلام أهله والمؤمنين بركوب السفينة قائلين : بسم

ج ١٢ ، ص : ٧٥

اللّه ، أعقبه بتصوير إلهي رائع لسير السفينة وسط المياه ذات الأمواج العظيمة ، بسبب الرياح الشديدة العاصفة ، وبقصد بيان شدة الهول والفزع.

التفسير والبيان :

السفينة تجري بسرعة ، سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض ، حتى طفت على رؤوس الجبال ، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا ، وقيل : بثمانين ميلا.

(٧٤/١٢)

إنها تجري بهم وسط أمواج كالجبال الشاهقة في ارتفاعها وعظم حجمها ، وهذا يدل على حصول رياح عاصفة شديدة حينذاك ، والمقصود : بيان شدة الهول والفزع.

وهي تسير بإذن اللّه وتحت كنفه ورعايته وحراسته ، كما قال تعالى : إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ ، لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ [الحاقة ٦٩/ ١١- ١٢] وقال سبحانه : وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا ، جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ. وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر ٥٤/ ١٣- ١٥].

واستولت الشفقة وعاطفة الأبوة على نوح ، فنادى ابنه وهو الابن الرابع ، واسمه يام أو كنعان ، وكان في مكان منعزل عنه ، وكان كافرا دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ، ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ، ناداه بقوله : يا بني اركب معنا الفلك ، ولا تكن مع الكافرين الهالكين.

فرد الابن العاصي عليه قائلا : سآوي وأصير إلى جبل يحفظني من الغرق في الماء ، ظنا منه أنه ماء سيل عادي يمكن النجاة منه بالتحصن في مكان عال أو جبل شامخ.

فأجابه نوح عليه السلام : ليس شيء يعصم اليوم من أمر اللّه وعذابه الذي

ج ١٢ ، ص : ٧٦

يعاقب به الكافرين ، لكن يحفظ من رحم اللّه ، ومن رحمه اللّه فهو المعصوم ، أي إلا مكان من رحم اللّه من المؤمنين ، وكان لهم غفورا رحيما ، غفورا لذنوبهم رحيما بهم إذا تابوا وأنابوا. أو إلا الراحم وهو اللّه ، وقيل : إن عاصما بمعنى معصوم ، كما يقال : طاعم وكاس ، بمعنى مطعوم ومكسو.

وحال الماء الذي بدأ يرتفع بين الوالد والولد أثناء النقاش فكان من المغرقين الهالكين.

وما أدهش هذا المنظر الرهيب ، ماء ينهمر من السماء ، وأرض تتفجر بالمياه ، فيرتفع حتى يغطي أعالي الجبال ، ويغمر الأرض.

(٧٥/١٢)

و لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة ، أمر اللّه الأرض أن تبلغ ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ، وتم النداء العلوي : يا أرض ابلعي ماءك الذي تفجر

منك ، ويا سماء كفّي عن المطر ، فغاض الماء ، أي نقص ، امتثالا للأمر ، وقضي الأمر ، أي وأنجز ما وعد اللّه نوحا من هلاك قومه الظالمين ، واستقرت السفينة بمن فيها على جبل الجودي بالجزيرة شمال العراق ، في الموصل ، وقيل : هلاكا وخسارا للقوم الظالمين ، وبعدا من رحمة اللّه ، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم ، فلم يبق لهم بقية ، بسبب ظلمهم وكفرهم.

واستبدت العاطفة مرة أخرى بنوح على ابنه ، فسأل ربه سؤال تسليم وكشف عن حال ولده ، فقال مناديا ربه : رب إن ابني من أهلي ، وقد وعدتني بنجاتهم ، ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فما مصيره ، وأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم بالحق ، فحكمك يصدر عن كمال العلم والحكمة ، وتمام العدل والصواب ، حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالغرق.

فأجابه ربه : يا نوح إن ابنك ليس من أهلك الذين وعدت بإنجائهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، وابنك ذو عمل غير صالح ، أي تنكر

ج ١٢ ، ص : ٧٧

لدعوة الهدى والصلاح ، وانضم مع الكافرين وهذا تعليل لانتفاء كونه من أهله ، قال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك. ، فهو على حذف مضاف.

فلا تطلب مني شيئا ليس لك به علم صحيح ، ولا تلتمس مني التماسا لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ، حتى تقف على كنهه.

إني أنهاك أن تكون من فئة الجاهلين الذين يطلبون إبطال حكمته وحكمه وتقديره في خلقه ، رعاية لأهوائهم ، ومجمل المعنى : أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك أن تكون من الآثمين.

(٧٦/١٢)

و قد تضمن دعاؤه معنى السؤال أو سمي نداؤه سؤالا ، ولا سؤال فيه ، أي وإن لم يصرح به لأن ذكر الوعد بنجاة أهله من الغرق استنجاز له ، فرتب عليه طلب نجاة ابنه. وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلا وغباوة ، ووعظه ألا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

وفي الآية دلالة على أن العبرة بقرابة الدين ، لا بقرابة النسب ، وأن حكم اللّه في خلقه قائم على العدل المطلق دون محاباة نبي أو ولي ، وأن الأنبياء قد يخطئون في اجتهادهم ، ويعد ذلك ذنبا بالنظر إلى مقامهم الرفيع وتمام معرفتهم بربهم ، وأنه لا يجوز الدعاء بطلب ما يغاير سنن اللّه في خلقه ، وأن من الجهالة أن يدعو ولي بما نهي عنه الأنبياء.

وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر ، وعلى جعل الجهل كناية عن الذنب ، وهو أمر مشهور في القرآن ، كما قالت تعالى : أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ [البقرة ٢/ ٦٧] وقال : يَعْمَلُونَ السُّوءَ

بِجَهالَةٍ [النساء ٤/ ١٧].

ويحمل كل ما صدر من نوح وغيره من خطأ الاجتهاد على ترك الأفضل والأكمل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وبناء عليه حصل العتاب والأمر

ج ١٢ ، ص : ٧٨

بالاستغفار ، ولا يدل هذا الأمر على سابقة ذنب ، مثل : إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ ... وَاسْتَغْفِرْهُ [النصر ١١٠/ ١ و٣] ومعلوم أن مجيء نصر اللّه والفتح ودخول الناس في دين اللّه أفواجا ، ليست بذنب يوجب الاستغفار ، وقال تعالى :

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ [محمد ٤٧/ ١٩] وليس جميعهم مذنبين ، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل.

لذا طلب نوح المغفرة من ربه ، فقال : قالَ : رَبِّ ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ..

أي قال نوح : رب إني التجئ إليك وأستعيذ بك وبجلالك أن أسألك ما ليس لي به علم صحيح ، وإن لم تغفر لي ذنب سؤالي هذا ، وترحمني بقبول توبتي وإنابتي ، أكن من الخاسرين أعمالا.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات العبر والعظات التالية :

١- إجراء السفن في البحار بقدرة اللّه تعالى وإرادته ، وحفظه ورعايته.

٢- لن يحقق العناد والاستكبار فائدة أو مصلحة لمن يتصف بهما ، فقد أغرق اللّه ابن نوح واسمه كنعان ، وقيل : يام لأنه كان كافرا ، ولم يستفد شيئا من الاعتصام بأعالي الجبال ، فإذا وقع العذاب العام على الكفار فلا مانع منه لأنه يوم حقّ فيه ذلك العذاب ، إلا من رحمه اللّه ، فهو يعصمه.

٣- آية وَقِيلَ : يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ ... في أعلى مستوى البلاغة والفصاحة والإيجاز ، لما فيها من التعبير عن قضايا كثيرة تحتاج إلى بيان صاف ، بعبارة محكمة موجزة ، محققة لأغراض عديدة ، وذات ألوان بيانية بلاغية وآفاق متنوعة.

٤- إنما سأل نوح عليه السلام ربه ودعا لإنجاء ابنه ، لوعده تعالى له بإنجاء أهله في قوله : وَأَهْلَكَ وترك قوله : إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بدليل

ج ١٢ ، ص : ٧٩

قوله له : وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ أي لا تكن منهم لأنه كان عنده مؤمنا في ظنه إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل في إنجاء بعضهم وكان ابنه يسرّ الكفر ويظهر الإيمان ، فأخبر اللّه تعالى نوحا بما

تفرد به من علم الغيوب ، أي علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت. وقال الحسن : كان منافقا ولذلك استحل نوح أن يناديه. وعنه أيضا : كان ابن امرأته ، بدليل

قراءة عليّ :

« و نادى نوح ابنها »

لكنها قراءة شاذة ، فلا نترك المتفق عليها ، والصحيح أنه كان ابنه ، لكن ليس على منهج أبيه في الدين والإيمان والاستقامة.

(٧٨/١٢)

٥- لم يعص نوح اللّه تعالى فيما سأل من إنجاء ابنه ، وإنما كان خطأ في الاجتهاد ، بنية حسنة ، وعدّ هذا ذنبا لأنه ما كان ينبغي لأمثاله من أهل العلم الصحيح الوقوع في هذا الخطأ غير المقصود ، وترك الأفضل والأكمل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، لذا عاتبه اللّه تعالى وأمره بالاستغفار.

٦- إن رابطة الدين أقوى من رابطة النسب ، ولا علاقة للصلاح والتقوى بالوارثة والأنساب ، لذا نجى اللّه المؤمنين من قوم نوح ، وأهلك ابنه وزوجته مع الكافرين. والصحيح أنه كان ابنه ، ولكن كان مخالفا في النية والعمل والدّين ، لذا قال تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ.

٧- هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم ، وإن كانوا صالحين. وفيها أيضا دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعا ، ومن أهل البيت فمن أوصى لأهله دخل في ذلك ابنه ، ومن تضمنه منزله ، وهو في عياله. قال تعالى في آية أخرى : وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [الصافات ٣٧/ ٧٥- ٧٦].

٨- العدل الإلهي مطلق ، لا محاباة فيه لنبي أو ولي ، وإنه تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم : فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ، وَلا يَتَساءَلُونَ [المؤمنون ٢٣/ ١٠١].

ج ١٢ ، ص : ٨٠

فمن يغتر بنسبه ولا يعمل بما يرضي ربه ، فهو جاهل بشرع اللّه ودينه ،

قال صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الترمذي : « يا معشر قريش لا يأتيني الناس بالأعمال ، وتأتوني بالأنساب » .

٩- إن غيرة اللّه على حرماته اقتضت تحذير الأنبياء من الأخطاء ولو كانت غير مقصودة. قال ابن العربي عن آية : إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ :

(٧٩/١٢)

و هذه زيادة من اللّه وموعظة ، يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين ، فقال نوح : رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشكر اللّه تذللّه وتواضعه.

١٠- كان اعتذار نوح بمثابة توبة كاملة تتضمن عنصري حقيقة التوبة وهما :

الأول- في المستقبل : وهو العزم على الترك ، وإليه الإشارة بقوله : إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ والثاني- في الماضي : وهو الندم على ما مضى ، وإليه الإشارة بقوله : وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ.

١١- كان الطوفان عاما شاملا لكل الأرض ، في رأي المفسرين وأهل الكتاب ، ويؤيدهم ما يقول علماء الجغرافية من وجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ، وهي لا تكون إلا في البحر. والذي يجب اعتقاده أن الطوفان كان شاملا لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم ، وذلك في منطقة الشرق الأوسط ، أما أجزاء الكرة الأرضية الأخرى فلا يدل نص قاطع في القرآن على تغطيتها بالطوفان.

ج ١٢ ، ص : ٨١

العبرة من قصة نوح عليه السلام [سورة هود (١١) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

الإعراب :

تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ : تِلْكَ مبتدأ ، وخبره : مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ. نُوحِيها خبر بعد خبر ، أو في موضع نصب على الحال ، أي تلك كائنة من أنباء الغيب نوحيها إليك.

و يجوز أن يكون : تِلْكَ مبتدأ ، ونُوحِيها : خبره ، ومِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ : من صلته ، وتقديره : تلك نوحيها إليك من أنباء الغيب.

وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ أُمَمٍ مبتدأ ، وسَنُمَتِّعُهُمْ صفة ، والخبر محذوف تقديره : وممن معك أمم سنمتعهم ، ودل عليه قوله مِمَّنْ مَعَكَ.

المفردات اللغوية :

اهْبِطْ بِسَلامٍ أنزل من السفينة بسلامة أو بتحية ، أي مسلما من المكاره من جهتنا أو مسلما عليك وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ خيرات عليك ومباركا عليك ، أو زيادات في نسلك حتى تصير آدم ثانيا وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ أي وعلى أمم هم الذين معك في السفينة ، أي من أولادهم وذريتهم هم المؤمنون ، سموا أمما لتشعب الأمم منهم ، فهم أصول البشرية ، وقد تسللت الأعراق والأجناس من أولاد نوح : سام (و هم السامانيون) وحام (و هم الأفارقة) ويافث (و هم أهل الصين واليابان وأمثالهم).

ج ١٢ ، ص : ٨٢

وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا ، ثم يمسّهم منا عذاب أليم في الآخرة ، والمراد بهم الكفار من ذرية من معه ، وقيل : قوم هود وصالح ولوط وشعيب ، والعذاب : هو ما نزل بهم.

تِلْكَ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ من بعض أخبار ما غاب عنك نُوحِيها إِلَيْكَ يا محمد مِنْ قَبْلِ هذا القرآن فَاصْبِرْ على التبليغ وأذى قومك كما صبر نوح إِنَّ الْعاقِبَةَ المحمودة في الدنيا بالظفر ، وفي الآخرة بالفوز لِلْمُتَّقِينَ عن الشرك والمعاصي.

المناسبة :

بعد أن أخبر اللّه تعالى عن استواء السفينة واستقرارها على الجودي ، ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين ، ذكر تعالى أمرين هما عبرة القصة :

الأول- تكريم نوح عليه السلام والمؤمنين معه بوعده تعالى عند الخروج من السفينة بالسلامة أولا ، ثم بالبركة ثانيا ، والسلامة تتضمن الدعوة لهم بالوقاية من المكروه لأنهم كانوا كالخائفين على وضعهم : كيف يعيشون وكيف يحققون حاجاتهم من المأكول والمشروب ، بعد أن عم الغرق جميع الأرض ، وعلموا أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان.

ثم إنه تعالى لما وعد نوحا ومن معه بالسلامة ، أردفه بأن وعدهم بالبركة وهي عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ونيل الأمل.

والثاني- الإخبار عن أمور غائبة عن الخلق ، تكون بمثابة الإنذار والإرهاب والاعتبار ، وإعطاء الأمثلة للصبر الذي هو مفتاح الفرج :

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عما قيل لنوح عليه السلام ، حين أرست السفينة على الجودي ، من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته

ج ١٢ ، ص : ٨٣

إلى يوم القيامة ، كما قال محمد بن كعب : دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

(٨٢/١٢)

و المعنى : قال اللّه أو الملائكة لنوح بعد انتهاء الطوفان وحبس المطر وابتلاع الأرض ماءها : اهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من جبل الجودي إلى الأرض ، فقد ابتلعت الماء وجفّت ، بسلام منا ، أي بسلامة وأمن أو بتحية ، أي مسلما محفوظا من جهتنا ، أو مسلما عليك مكرّما كما قال تعالى : سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ [الصافات ٣٧/ ٧٩] ، وبركات عليك ، والبركات : نعم ثابتة وخيرات نامية ، أي ومباركا عليك في المعايش والأرزاق ، تفيض عليك ، وعلى أمم ممن معك نسلا وتولدا ، أي هم ومن يتناسل منهم من ذرية ، ويصير التقدير : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم سنمتعهم ، فيدخل في قوله مِمَّنْ مَعَكَ كل مؤمن إلى يوم القيامة ، وفي قوله : وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ كل كافر إلى يوم القيامة ، كما روي ذلك عن محمد بن كعب.

والمعنى : إن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ، ينشئون ممن معك. وممن معك أمم ممتعون بالدنيا ، منقلبون إلى النار.

وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء ، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة.

وهكذا عم السلام والتبريك كل المؤمنين ، على اختلاف تجمعاتهم. لكن من أولئك المؤمنين سيكون من نسلهم أمم وجماعات آخرون من بعدهم ، يمتعون في الدنيا بالأرزاق والبركات ، ثم يصيبهم العذاب الأليم في الآخرة ، لكفرهم وعنادهم ، فانقسم الناس بعد نوح قسمين : قسم مؤمنون صالحون ممتعون في الدنيا والآخرة ، وقسم ممتعون في الدنيا فقط معذبون في الآخرة.

ثم ذكر اللّه تعالى العبرة العامة من قصة نوح : تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ

ج ١٢ ، ص : ٨٤

أي تلك الأخبار عن نوح وقومه من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيها إليك على وجهها ، كأنك تشاهدها ، ونعلمك بها وحيا منا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا أحد من قومك ، حتى يقول من يكذبك : إنك تعلمتها من إنسان ، بل أخبرك اللّه بها.

(٨٣/١٢)

فاصبر على تكذيب المكذبين من قومك ، وأذاهم لك ، وعلى تبليغ رسالتك كما صبر نوح على أذى الكفار ، فإن النصر والفوز والنجاة للمتقين الذين يطيعون اللّه ويتجنبون المعاصي ، وإنا سننصرك ونرعاك ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين ، حيث نصرناهم على أعدائهم : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا [غافر ٤٠/ ٥١] الآية ، وقال تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ [الصافات ٣٧/ ١٧١- ١٧٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيتان إلى ما يأتي :

١- السلامة والأمن ، والتحية والتسليم والتكريم ، والبركات والنعم من اللّه تعالى ، على كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وذلك بدءا من نوح عليه السلام ومن آمن معه.

٢- المتاع والانتفاع بنعم الدنيا ، والتعذيب في الآخرة ، لكل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ، بدءا من ذرية المؤمنين في عصر نوح عليه السلام وذرية أمم من بعدهم.

٣- كان خبر نوح وقصته مع قومه من أنباء ما غاب عن النبي محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، أوحى اللّه بها إليه وأطلعه عليها ، دون أن يكون عالما هو وقومه بها قبل ذلك ،

ج ١٢ ، ص : ٨٥

فلم يعرف أحد أمر الطوفان ، وكانت القصة على النحو الصحيح الدقيق مجهولة عند النبي صلى اللّه عليه وسلّم وعند قومه.

٤- كان الغرض من ذكر قصة نوح في سورة يونس هو معرفة وجه الشبه بين قوم نوح وقوم محمد عليهما السلام ، وهو ان قوم نوح كذبوه لأنه هددهم بنزول العذاب ، فاستعجلوه ، ثم ظهر في نهاية الأمر ، وكذلك قوم محمد صلى اللّه عليه وسلّم استعجلوا نزول العذاب مثل قوم نوح. فوجه الشبه في سورة يونس هو استعجال العذاب.

و في هذه السورة (هود) أعاد اللّه تعالى ذكر هذه القصة لهدف آخر ، وهو بيان أن إقدام الكفار على الإيذاء كان حاصلا في زمن نوح ، فلما صبر عليه السلام ، نال الفتح والظفر ، فلتكن يا محمد كذلك ، لتنال المقصود ، فقد عرفت مآل الصبر عند نوح والمؤمنين ، وعاقبة الكفر ، فوجه الشبه هو الإيذاء ، وأن الصبر عليه مؤد إلى النصر.

٥- إن الصبر على مشاق تبليغ الرسالة الإلهية ، وإذاية القوم ، مفتاح الفرج ، وسبيل الظفر والنصر ، كما صبر نوح ومحمد وأولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فقد صبر نوح على أذى قومه ،

ثم نصره اللّه عليهم ، وكذلك صبر النبي صلى اللّه عليه وسلّم على أذى العرب الكفار ، فأيده اللّه ، وأعزّه ، ونصره عليهم نصرا مؤزرا.

٦- إن العاقبة في الدنيا بالظفر ، وفي الآخرة بالفوز للمتقين عن الشرك والمعاصي ، القائمين بأوامر اللّه ، الملتزمين حدوده ، المطيعين شرعه.

٧- يدل إيراد قصة نوح عليه السلام على نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، فما كان يعلم هو ولا أحد من قومه ذلك القصص المحكم التام الشامل لأخبار نوح وقومه.

ج ١٢ ، ص : ٨٦

قصة هود عليه السلام [سورة هود (١١) : الآيات ٥٠ الى ٦٠]

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)

وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

ج ١٢ ، ص : ٨٧

الإعراب :

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً أَخاهُمْ منصوب بفعل مقدر ، أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا. وغَيْرُهُ بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ، وقرئ بالجر صفة على اللفظ.

مِدْراراً حال من السَّماءَ ، والعامل فيه يُرْسِلِ. والأصل في مدرار أن يكون مدرارة ، ولكنهم يحذفون هاء التأنيث عادة من مفعال كامرأة معطار ، ومن مفعيل كامرأة معطير ، ومن فاعل كامرأة طالق وحائض. عَنْ قَوْلِكَ حال من الضمير في تاركي. ما مِنْ دَابَّةٍ في موضع رفع بالابتداء. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا إن : حرف نفي بمعنى ما ، أي ما نقول إلا هذه المقالة ، فالاستثناء من المصدر الذي دل عليه الفعل ، مثل أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى

[الصافات ٣٧/ ٥٩] فموتتنا مستثنى من أنواع الموت الذي دل عليها قوله : بِمَيِّتِينَ.

فقد ذكر الفعل ويستثني من مدلوله ، كما يستثني من الظرف والحال ، مثال الأول : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ [يونس ١٠/ ٤٥] ساعَةً : مستثنى مما دل عليه لَمْ يَلْبَثُوا ، أي كأن لم يلبثوا في الأوقات إلا ساعة من النهار ومثال الثاني : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا متمسكين بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ [آل عمران ٣/ ١١٢] أي ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال أينما ثقفوا إلا متمسكين بحبل من اللّه ، أي عهد من اللّه. وَتِلْكَ عادٌ مبتدأ وخبر ، وبُعْداً منصوب بفعل مقدر ، أي أن المصدر قائم مقام فعله.

البلاغة :

يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً عبر بالسماء عن المطر من قبيل المجاز المرسل ، لنزوله من السماء ، ومدرار : للمبالغة.

فَكِيدُونِي جَمِيعاً أمر بمعنى التعجيز.

ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها استعارة تمثيلية ، شبه الخلق وهم في قبضة اللّه وملكه بمن يقود دابة بناصيتها ، فهي مقدورة له.

إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ استعارة ، فإنه استعار الطريق المستقيم للدلالة على كمال العدل.

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا الأمر كناية عن العذاب.

نَجَّيْنا هُوداً .. وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ فيه إطناب ، لتكرار لفظ الإنجاء بقصد بيان أن الأمر شديد عظيم الأهوال.

وَعَصَوْا رُسُلَهُ المراد عصوا رسولهم هودا ، من قبيل المجاز المرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض.

ج ١٢ ، ص : ٨٨

أَلا إِنَّ عاداً .. أَلا بُعْداً لِعادٍ تكرار حرف التنبيه ، وإعادة لفظ « عاد » للمبالغة في تهويل حالهم.

المفردات اللغوية :

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم من القبيلة وواحدا منهم ، وهو عطف على قوله وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ وهُوداً : عطف بيان اعْبُدُوا اللَّهَ وحده.

ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ مِنْ : زائدة للتأكيد. إِنْ أَنْتُمْ ما أنتم في عبادتكم الأوثان. إِلَّا مُفْتَرُونَ كاذبون على اللّه باتخاذ الأوثان شركاء للّه وجعلها شفعاء عند اللّه تعالى.

لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ الضمير في عَلَيْهِ عائد على الدعاء إلى اللّه وتوحيده. إِنْ أَجْرِيَ ما أجري. فَطَرَنِي خلقني على الفطرة السليمة- فطرة التوحيد للّه والمقصود من الآية بيان إخلاصه في النصيحة ، فإنها لا تفيد ما دامت مشوبة بالمطامع.

(٨٨/١٢)

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ من الشرك. ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ أخلصوا التوبة من المعاصي والكفر للّه ، وارجعوا إليه بالطاعة ، أي اطلبوا المغفرة من اللّه بالإيمان ، ثم توسلوا إليها بالتوبة ، ثم لا يكون التبري من الغير إلا بالإيمان باللّه والرغبة فيما عنده. يُرْسِلِ السَّماءَ المطر ، وكانوا قد منعوه واشتدت حاجتهم إليه لأنهم كانوا أصحاب زروع. مِدْراراً كثير الدر. وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ أي يزدكم قوة مع قوتكم بالمال والولد ، أو يضاعف قوتكم بالتناسل والأموال. وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ مشركين.

بِبَيِّنَةٍ ببرهان على قولك ، وبحجة تدل على صحة دعواك ، وهذا لفرط عنادهم ، وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. بِتارِكِي آلِهَتِنا بتاركي عبادتهم. عَنْ قَوْلِكَ صادرين عن قولك أو لقولك. وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إقناط له من الإجابة والتصديق.

إِنْ نَقُولُ ما نقول في شأنك. اعْتَراكَ أصابك. بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ بجنون ، لسبك إياها وصدك عنها ، فأنت تهذي وتتكلم بالخرافات ، والجملة مفعول القول ، وإلا لغو لأن الاستثناء مفرغ. فَكِيدُونِي اجتمعوا على الكيد لي في إهلاكي من غير إنظار. جَمِيعاً أنتم وأوثانكم. ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ تمهلون. والمراد بيان عجزهم عن إلحاق الضرر به ليعلموا أن آلهتهم جماد لا تضر ولا تنفع. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي أي وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضروني ، فإني متوكل على اللّه ، واثق برعايته.

ما مِنْ دَابَّةٍ نسمة تدب على الأرض. إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها أي إلا وهو مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها على ما يريد بها ، فلا نفع ولا ضرر إلا بإذنه ، والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك.

ج ١٢ ، ص : ٨٩

(٨٩/١٢)

و خص الناصية بالذكر لأن من أخذ بناصيته يكون في غاية الذل. إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي على الحق والعدل ، لا يضيع عنده معتصم ، ولا يفوته ظالم.

فَإِنْ تَوَلَّوْا أي تعرضوا وتتولوا ، وقد حذفت فيه إحدى التاءين. فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ أي فقد أديت ما علي من الإبلاغ ، وإلزام الحجة ، فلا تفريط مني ولا عذر لكم ، فقد أبلغتكم رسالة ربي. وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ استئناف بالوعيد لهم ، بأن اللّه يهلكهم ، ويستخلف قوما آخرين في ديارهم وأموالهم. وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً بتوليكم وإشراككم. حَفِيظٌ رقيب.

أَمْرُنا عذابا أو أمرنا بالعذاب. وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ هداية ، وكانوا أربعة آلاف. غَلِيظٍ شديد ، وهذا تعريض بأنهم كما عذبوا في الدنيا بريح السموم ، فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الشديد.

وَتِلْكَ عادٌ أنت اسم الإشارة باعتبار القبيلة ، أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم ، أي فانظروا آثارهم في الأرض. جَحَدُوا كفروا. وَعَصَوْا رُسُلَهُ جمع الرسل لأن من عصى رسولا ، عصى جميع الرسل لاشتراكهم في أصل ما جاؤوا به وهو التوحيد. وَاتَّبَعُوا أي السفلة. أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ أي معاند للحق ، يعني كبراءهم ورؤساءهم الطاغين ، والمعنى :

عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم ، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم.

وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين ، في الدنيا من الناس ، ويوم القيامة لعنة على رؤوس الناس ، توقعهم في العذاب. كَفَرُوا رَبَّهُمْ جحدوه أو كفروا نعمه ، أو كفروا به ، فحذف الجار. أَلا بُعْداً لِعادٍ أي من رحمة اللّه ، وهو دعاء عليهم بالهلاك. والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم من العذاب ، بسبب أفعالهم.

قَوْمِ هُودٍ عطف بيان لعاد ، لتمييزهم عن عاد الثانية عاد إرم.

المناسبة :

هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها اللّه تعالى في هذه السورة ، وقد ذكرت هذه القصة في سورة الأعراف بأسلوب ونظم آخر. وكان هود أول من تكلم بالعربية من ذرية نوح.

وفي إيراد هذه القصة هنا شبه بقصة نوح مع قومه ، ففيها تبليغ هود الدعوة والتكاليف إلى قومه ، وردهم عليه ، وما انتهت به القصة من إنجاء المؤمنين ، وإهلاك الكافرين.

ج ١٢ ، ص : ٩٠

التفسير والبيان :

دعا هود قومه إلى أنواع من التكاليف :

النوع الأول- دعوتهم إلى التوحيد ، في قوله تعالى : يا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللَّهَ أي وكما أرسلنا نوحا ، أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا ، والمراد أخا لهم في النسب والقبيلة ، لا في الدين لأن هودا كان رجلا من قبيلة عاد ، فيقال للرجل : يا أخا العرب ، والمراد رجل منهم ، وكانت هذه القبيلة قبيلة عربية تسكن بناحية اليمن في الأحقاف (شمال حضرموت) وكانت قبيلة ذات قوة وشدة ، وأصحاب زرع وضرع.

إنه أمرهم بعبادة اللّه وحده لا شريك له ، ناهيا لهم عن الأوثان التي افتروها ، فقال لهم : آمركم بعبادة اللّه الذي لا إله غيره ، ولا تعبدوا من دونه وثنا ولا صنما ، ولا تشركوا به شيئا ، مالكم من إله غيره ، خلقكم ورزقكم ، وأمدكم بالنعم الوفيرة ، فما أنتم إلا مفترون الكذب على اللّه باتخاذكم الشركاء للّه ، ووصفكم إياهم بأنهم شفعاء.

ويا قوم ، لا أطلب على ما أدعوكم عليه من عبادة اللّه ونبذ عبادة الأوثان أجرا أو مالا ينفعني ، فما أجري أو ثوابي إلا على اللّه الذي خلقني على الفطرة السليمة فطرة التوحيد ، أفلا تعقلون قول من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة ، وتقدرون ما يقال لكم من نصح قائم على الإخلاص والأمانة ، وتعلمون أني مصيب في المنع من عبادة الأصنام.

و النوع الثاني- من التكاليف التي ذكرها هود لقومه : الاستغفار والتوبة فقال : ويا قوم ، اطلبوا المغفرة من اللّه على الشرك والكفر والذنوب السابقة ، وأخلصوا التوبة له ، وعما تستقبلون ، فإذا استغفرتم وتبتم يرسل اللّه

عليكم مطرا كثيرا متتابعا ، وقد كانوا بأشد الحاجة إلى المطر بعد أن منعوه لأنهم أصحاب زروع وبساتين ، ويزدكم قوة إلى قوتكم بالأموال والأولاد ، وعزا إلى عزكم ، وقد كانوا أشداء أقوياء يهمهم التفوق والغلبة على الناس ، والاعتزاز بالقوة ، كما قال تعالى : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ، وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [الأعراف ٧/ ٦٩] وقال سبحانه : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ [الشعراء ٢٦/ ١٢٨- ١٣٣] وقال عز وجل : فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً [فصلت ٤١/ ١٥].

وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ولا تعرضوا عني وعن دعوتي وعما أرغبكم فيه ، مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

وفائدة الاستغفار المذكورة في الآية ، لها ما يؤيدها في السنة النبوية ، ففي الحديث الذي أخرجه أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس : « من لزم الاستغفار ، جعل اللّه له من كل همّ فرجا ، ومن كل ضيق

مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .
وبعد أن حكى تعالى ما ذكره هود لقومه ، حكى ما ذكره القوم له :

(٩٢/١٢)

قالُوا : يا هُودُ .. أي قالوا لنبيهم : ما جئتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه أنك رسول من عند اللّه ، ولن نترك عبادة آلهتنا بمجرد قولك : اتركوهم ، وما نحن لك بمصدقين ، وما نظن إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب شتمك لها ونهيك عن عبادتها وعيبك لها.
فكان جوابهم متضمنا أربعة أشياء كلها عناد وحماقة واستكبار ، وهي المطالبة بالبينة والإصرار على عبادة الآلهة ، مع أنهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو اللّه تعالى ، وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر وعدم التصديق برسالة هود مما يدل
ج ١٢ ، ص : ٩٢
على الإصرار والتقليد والجحود وإفساد عقله وجعله مجنونا بواسطة الآلهة.
فقال لهم هود : أشهد اللّه على نفسي واشهدوا على أني بريء من شرككم ومن عبادة الأصنام ، ولا يعني هذا أنهم كانوا أهلا للشهادة ، ولكنه نهاية للتقرير ، أي لتعرفوا ، ولم يقل : إني أشهد اللّه وأشهدكم ، لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما ، فإن إشهاد اللّه على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم.
وإذا كنت بريئا من جميع الأنداد والأصنام ، أي مما تشركون من دون اللّه ، فإني أعلن ذلك صراحة ، فاجمعوا كل ما تستطيعون من أنواع الكيد لي ، جميعا أي أنتم وآلهتكم ، ولا تمهلوني طرفة عين ، إني فوضت أمري كله للّه ربي وربكم ، ووكلته في حفظي ، فهو على كل شيء قدير.
فما من دابة تدب على الأرض أو السماء إلا هي تحت سلطان اللّه وقهره فهو مصرف أمرها ومسخرها ، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور ، إن ربي على الحق والعدل.

(٩٣/١٢)

و قد تضمن جوابه الدال على التحدي والمعجزة الباهرة وقلة المبالاة بهم عدة أمور هي : البراءة من الشرك ، وإشهاد اللّه على ذلك ، وإشهادهم على براءته من شركهم ، وطلبه المكايدة له ، وإظهار قلة المبالاة بهم وعدم خوفه منهم ومن آلهتهم. وهذا موقف مشابه تماما لموقف نوح في قوله السابق :

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ، ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ [يونس ١٠/ ٧١] وقوله : قُلِ : ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ، ثُمَّ كِيدُونِ ، فَلا تُنْظِرُونِ [الأعراف ٧/ ١٩٥].

فَإِنْ تَوَلَّوْا .. أي فإن تتولوا وتعرضوا عما جئتكم به من عبادة اللّه ربكم فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ١٢ ، ص : ٩٣

وحده لا شريك له ، فقد بلغتكم رسالة ربي التي بعثني بها إليكم ، ولا عتاب علي على تفريط في التبليغ ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم ، فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول. ثم استأنف كلاما جديدا فقال : ويهلككم اللّه ويجيء بقوم آخرين ، يخلفونكم في دياركم وأموالكم ويكونون أطوع للّه منكم ، ولا تضرونه شيئا بتوليكم وكفركم ، بل يعود وبال ذلك عليكم ، وما تضرون إلا أنفسكم ، إن ربي على كل شيء رقيب ، مهيمن عليه ، فما تخفى عليه أعمالكم ، ولا يغفل عن مؤاخذتكم.

ثم ذكر اللّه تعالى العذاب وآثاره وعاقبة أمر هود وقومه ، فقال : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا .. أي ولما حان وقت نزول أمرنا بالعذاب ، ووقع عذابنا ، وهو الريح العقيم ، نجينا هودا والمؤمنين معه من عذاب شديد شاق ثقيل ، برحمة من لدنا ولطف منا ، وأهلكنا قومه عن آخرهم.

(٩٤/١٢)

و سبب ذلك العقاب أن عادا كفروا بآيات ربهم وحججه ، وعصوا رسله ، وقد جمع الرسل والمقصود رسولهم هودا لأن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ، فهم كفروا بهود ، فصار كفرهم كفرا بجميع الأنبياء ، واتّبعوا أمر رؤسائهم الجبابرة الطغاة المعاندين.

فلهذا لحقت بهم لعنة اللّه في الدنيا ، ولعنة عباده المؤمنين كلما ذكروا ، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق : ألا إن عادا كفروا بربهم وبنعمه ، وجحدوا بآياته ، وكذبوا رسله ، ألا بعدا وطردا من رحمة اللّه لعاد قوم هود ، وهذا دعاء عليهم بالهلاك والدمار والبعد من الرحمة.

والخلاصة : إنه تعالى جمع أوصاف عاد في ثلاثة : جحود دلائل المعجزات على الصدق ، ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم ، وعصيان رسولهم ، ومن عصى رسولا واحدا ، فقد عصى جميع الرسل ، لقوله تعالى : لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

ج ١٢ ، ص : ٩٤

مِنْ رُسُلِهِ

[البقرة ٢/ ٢٨٥] ، وتقليد القوم رؤساءهم ، ثم ذكر تعالى عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة وهي مصاحبة اللعن لهم في الدنيا والآخرة ، ومعنى اللعنة :

الإبعاد من رحمة اللّه تعالى ومن كل خير ، ثم بين تعالى السبب الأصلي في استحقاق تلك الأحوال فقال : أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أي جحدوه ، أو كفروا بربهم على حذف الباء ، أو نعمة ربهم ، على حذف المضاف. وفائدة قوله : أَلا بُعْداً لِعادٍ بعد قوله : وَأُتْبِعُوا .. الدلالة على غاية التأكيد. وفائدة قوله لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ تعيين عاد القديمة ، تمييزا لهم عن عاد التي هي إرم ذات العماد ، فقصد به إزالة الاشتباه ، أو لمزيد التأكيد.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت قصة هود مع قومه على ما يلي :

١- حصر هود عليه السلام دعوته في نوعين من التكاليف هما : الدعوة إلى التوحيد وعبادة اللّه وحده ، والاستغفار ثم التوبة ، والفرق بينهما أن الاستغفار :

طلب المغفرة وهو المطلوب بالذات ، والتوبة : هي السبب إليها ، وذلك بالإعراض أو الإقلاع عما يضاد المغفرة ، وقدم المغفرة لأنها هي الغرض المطلوب ، والتوبة سبب إليها. وقد تقدم في أول السورة توضيح الفرق.

٢- اقتصرت إجابة عاد قوم هود له على التركيز على عبادة الآلهة من الأصنام والأوثان ، وتقليد الأسلاف ، وذلك يدل على تعطيل الفكر والعقل ، وعدم النظر الحر الطليق القائم على الاستدلال بالأدلة الكثيرة والمعجزات المتضافرة التي أظهرها اللّه على يد هود عليه السلام ، ومنها تحديهم بالمكايدة والمعاداة والإضرار له جميعا هم وآلهتهم ، وعدم الإمهال ساعة ، وهو موقف يدل مع كثرة الأعداء على كمال الثقة بنصر اللّه تعالى ، وهو أيضا من أعلام النبوة : أن يكون الرسول وحده

يقول لقومه : فَكِيدُونِي جَمِيعاً .. وكذلك

قال النبي صلى اللّه عليه وسلّم لقريش ، وقال نوح عليه السلام : فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ [يونس ١٠/ ٧١]

٣- التوكل على اللّه الخالق القاهر المتصرف بالمخلوقات كيف يشاء ، والمانع مما يشاء هو من أصول الإيمان التي تمنع وصول الضرر إلى النبي هود عليه السلام وكل مؤمن صادق مخلص ، فما من نفس تدب على الأرض أو في السماء إلا وهي تحت سلطان اللّه وقهره وتصرفه.

٤- اللّه تعالى قادر على الحق والعدل ، وهو سبحانه وإن كان قادرا على قوم عاد العتاة الأشداء ، لكنه لا يظلمهم ، ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب.

٥- مهمة الأنبياء هي تبليغ الرسالات ومحاجة الكفار ، فإن أعرض الناس عن دعواتهم وبيانهم ، فهم أي الأنبياء قد أبرؤوا الذمة ، وأدوا الغرض ، وكان الناس الكافرون المعرضون هم الذين يخسرون ، ويتضررون ، ويتعرضون للعذاب في الدنيا بالإهلاك ، واستخلاف قوم آخرين هم أطوع للّه منهم يوحدونه ويعبدونه ، وفي الآخرة بدخول جهنم. واللّه رقيب على كل شيء من أقوال العباد وأفعالهم ، ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

٦- أحوال قبيلة عاد خطيرة ذات أوصاف ثلاثة : هي الجحود بآيات ربهم ، وعصيان رسولهم ، واتباعهم أو تقليدهم أوامر رؤسائهم دون تفكير ولا روية.

٧- كانت عقوبة قبيلة هود لحوق اللعنة عليهم في الدنيا من اللّه ومن الناس ، وهلاكهم بريح صرصر عاتية وبعدهم عن الخير ، والطرد من رحمة اللّه في يوم القيامة ، وما ربك بظلام للعبيد.

ج ١٢ ، ص : ٩٦

قصة صالح عليه السلام [سورة هود (١١) : الآيات ٦١ الى ٦٨]

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (٦٨)

الإعراب :

ثَمُودَ ممنوع من الصرف عند الجمهور ، على إرادة القبيلة ، وقرأه بعضهم مصروفا على إرادة الحي.

لَكُمْ آيَةً إما حال من ناقَةُ اللَّهِ أي : هذه ناقة اللّه لكم آية بيّنة ظاهرة ، وعامله معنى الإشارة ، وإما تمييز أي : هذه ناقة اللّه لكم من جملة الآيات.

وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ من قرأه بالكسر أعربه على الأصل ، ومن قرأه بالفتح بناه لإضافته
ج ١٢ ، ص : ٩٧

(٩٨/١٢)

إلى غير متمكّن لأن ظرف الزمان إذا أضيف إلى اسم غير متمكن أو مبني أو فعل ماض ، بني ، كما في قول الشاعر :
على حين عاتبت المشيب على الصّبا فقلت : ألمّا تصح ، والشيب وازع فبنى حين على الفتح لإضافته إلى الفعل الماضي. والتنوين في إذا من يَوْمِئِذٍ عوض عن جملة محذوفة ، ويسمى تنوين التعويض.
وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ قال : أخذ لأنه فصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وهو الَّذِينَ ظَلَمُوا أو لأن تأنيث الصيحة غير حقيقي ، أو محمول على المعنى لأن الصيحة في معنى الصياح ، كقوله تعالى : فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ .. لأن موعظة في معنى وعظ.
أَلا إِنَّ ثَمُودَ من صرفه جعله اسم الحي ، ومن لم يصرفه جعله اسم القبيلة معرفة ، فلم ينصرف للتعريف والتأنيث.
كَأَنْ مخففة ، واسمها محذوف ، أي كأنهم.
البلاغة :
فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ استفهام معناه النفي ، أي لا ينصرني منه إن عصيته أحد.
المفردات اللغوية :
وَإِلى ثَمُودَ أي وأرسلنا إلى ثمود أَخاهُمْ من القبيلة اعْبُدُوا اللَّهَ وحدّوه هُوَ أَنْشَأَكُمْ ابتدأ خلقكم وتكوينكم منها ، لا غيره ، فإنه خلق آدم ومواد النّطف التي خلق نسله منها من التراب وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها جعلكم تعمرونها ، وأبقاكم عمركم فيها ، تسكنون بها فَاسْتَغْفِرُوهُ من الشرك ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ارجعوا إليه بالطاعة وأقلعوا عن الذنب إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ قريب الرحمة من خلقه بعلمه مُجِيبٌ لمن سأله أو لداعيه.

(٩٩/١٢)

مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا مأمولا أن تكون لنا سيدا أو مستشارا في الأمور لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد ، فلما سمعنا هذا القول الذي صدر منك ، انقطع رجاؤنا عنك أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا من الأوثان ، على حكاية الحال الماضية وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ من التوحيد ، والتبري من الأوثان مُرِيبٍ موقع في الريبة أو الريب أي الظن والشك أَرَأَيْتُمْ من رؤية القلب ، أي أتدبرتم ؟

عَلى بَيِّنَةٍ بيان وبصيرة ، واستعمل حرف الشك في قوله إِنْ كُنْتُ باعتبار

ج ١٢ ، ص : ٩٨

المخاطبين رَحْمَةً نبوة فَمَنْ يَنْصُرُنِي يمنعني مِنَ اللَّهِ أي من عذابه إِنْ عَصَيْتُهُ في تبليغ رسالته ، والمنع عن الإشراك به فَما تَزِيدُونَنِي أي فما تطلبون مني باتباعكم غَيْرَ تَخْسِيرٍ تضليل أو إيقاع في الخسران باستبدال الشرك بالتوحيد ، أو بإبطال ما منحني اللّه به والتعرض لعذابه ، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ دعوها ترعى نباتها وتشرب ماءها وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ عقر فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ عاجل لا يتراخى عن مسكم لها بالسوء إلا يسيرا ، وهو ثلاثة أيام ، إن عقرتموها فَعَقَرُوها قتلوها ، عقرها قدار بأمرهم فَقالَ صالح تَمَتَّعُوا عيشوا في منازلكم ثلاثة أيام : الأربعاء والخميس والجمعة ، ثم تهلكون غَيْرُ مَكْذُوبٍ فيه.

(١٠٠/١٢)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا بإهلاكهم نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وهم أربعة آلاف وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ أي ونجيناهم من هلاكهم بالصيحة أو ذلهم أو فضيحتهم يوم القيامة الْقَوِيُّ القادر على كل شيء الْعَزِيزُ الغالب على كل شي ء. الصَّيْحَةُ المرة الواحدة من الصوت الشديد المهلك ، والمراد بها الصاعقة التي أحدثت رجفة في القلوب ، وصعق بها الكافرون جاثِمِينَ باركين على الركب ميتين ، أو ساقطين على وجوههم مصعوقين ، والجثوم للطائر كالبروك للبعير يَغْنَوْا يقيموا فِيها في دارهم بُعْداً هلاكا وطردا من رحمة اللّه ، وهو اللعن.

المناسبة :

هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وهي قصة صالح مع ثمود ، وصالح هو الرسول الثاني من العرب ، ومساكن قبيلته ثمود :

الحجر : وهي بين الحجاز والشام ، وآثار مدائنهم باقية إلى اليوم.

ونظم هذه القصة مثل النظم المذكور في قصة هود ، إلا أنه لما أمرهم بالتوحيد هاهنا ذكر في تقريره دليلين : الإنشاء من الأرض ، والاستعمار فيها أي جعلكم عمارها. وقد ذكرت قصة صالح في سورة الأعراف.

وسيأتي ذكر هذه القصة أيضا في سورة الشعراء والنمل والقمر والحجر وغيرها ، ومضمون القصة تبليغ صالح دعوته ، ومناقشتهم ، وإنذارهم بالهلاك ، وردودهم عليه ، وتأييد صدقه بمعجزة الناقة ، وقتلهم لها ، وإهلاكهم بالصيحة أو الصاعقة.

ج ١٢ ، ص : ٩٩

التفسير والبيان :

ولقد أرسلنا إلى ثمود الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد ، أرسلنا لهم رجلا منهم أي من قبيلتهم ، وهو صالح عليه السلام ، فأمرهم بعبادة اللّه وحده ، وأقام لهم دليلين على التوحيد :

(١٠١/١٢)

الدليل الأول- قوله : هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أي ابتدأ خلقكم منها ، إذ خلق منها أباكم آدم فهو أبو البشر ، ومادة التراب هي المادة الأولى التي خلق منها آدم ، ثم خلقكم أنتم من سلالة من طين ، بالوسائط التالية : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة تكسى بعدئذ بهيكل عظمي ولحم ، وأصل النطفة من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء إما من نبات الأرض أو من اللحم الذي يرجع إلى النبات.

والدليل الثاني- وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها أي جعلكم عمارا تعمرونها وتستغلونها بالزراعة والصناعة والبناء والتعدين. فكون الأرض قابلة للعمارة النافعة للإنسان ، وكون الإنسان قادرا عليها ، دليل على وجود الصانع الحكيم ، الذي قدر فهدى ، ومنح الإنسان العقل الهادي والأداة لتسخير موجودات الدنيا ، وجعل له القدرة على التصرف.

وإذا كان اللّه هو المستحق للعبادة وحده ، فاستغفروه لسالف ذنوبكم ، من الشرك والمعصية ، ثم توبوا إليه بالإقلاع عن الذنب في الماضي ، والعزم على عدم العودة إليه وإلى أمثاله في المستقبل.

إن ربي قريب من خلقه بالرحمة والعلم والسمع ، مجيب دعوة الداعي المحتاج المخلص بفضله ورحمته ، كقوله تعالى : وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ [البقرة ٢/ ١٨٦]

ج ١٢ ، ص : ١٠٠

فأجابوه بكلام يدل على الجهل والعناد : قالُوا : يا صالِحُ .. أي قال قوم ثمود : يا صالح ، قد كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ، أو كنا نأمل أن تكون سيدا أو مستشارا في الأمور لما نرى لك من رجاحة في العقل وسداد في التفكير ، فالآن خيبت الآمال وقطعت الرجاء. وقال كعب : كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم لأنه كان ذا حسب وثروة. وعن ابن عباس : كان فاضلا خيّرا. والظاهر الذي حكاه الجمهور أن قوله : مَرْجُوًّا مشورا نؤمل فيك أن تكون سيدا سادّا مسدّ الأكابر.

(١٠٢/١٢)

ثم تعجبوا من دعوته قائلين :

أ تنهانا عن عبادة الآباء والأسلاف ؟ وقد تتابعوا على تلك العبادة كابرا عن كابر دون إنكار من أحد.

وإننا نشك كثيرا في صحة ما تدعونا إليه من عبادة اللّه وحده ، وترك التوسل إليه بالشفعاء المقربين عنده ، وهو شك موقع في التهمة وسوء الظن.

والشك : هو أن يبقى الإنسان متوقفا بين النفي والإثبات ، والمريب : هو الذي يظن به السوء.

والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ، ووجوب متابعة الآباء والأسلاف. وهذا نظير ما حكاه اللّه تعالى عن كفار مكة حيث قالوا : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ [ص ٣٨/ ٥].

فأجابهم صالح مبينا ثباته على المبدأ ومنهج النبوة : قالَ : يا قَوْمِ ، أَرَأَيْتُمْ .. أي كيف أعصي اللّه في ترك ما أنا عليه من البينة ؟ أخبروني ماذا أفعل ، إن كنت على برهان وبصيرة ويقين فيما أرسلني به إليكم ، وآتاني منه رحمة ، أي نبوة تتضمن تبليغ ما أوحى به إلي.

ج ١٢ ، ص : ١٠١

و قدّروا أني نبي على الحقيقة ، وكان على يقين أنه على بيّنة لأن خطابه للجاحدين ، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره ، فمن يمنعني من عذاب اللّه ؟ ! وإذا تابعتكم وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة اللّه وحده ، لما نفعتموني ، ولما رددتموني حينئذ غير خسارة وضلال ، باستبدال بما عند اللّه ما عندكم.

ولما كانت عادة الأنبياء ابتداء الدعوة إلى عبادة اللّه ، ثم اتباعها بدعوى النبوة ، فإن صالحا عليه السلام الذي طلبوا منه المعجزة على صحة قوله ، أتاهم بمعجزة الناقة. روي أن قومه خرجوا في عيد لهم ، فسألوه أن يأتيهم بآية ، وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة ، فدعا صالح ربه ، فخرجت الناقة كما سألوا.

(١٠٣/١٢)

و قال لهم : هذه آية على صدقي : ناقة اللّه ، التي تتميز عن سائر الإبل بأكلها وشربها وغزارة لبنها ، كما قال تعالى : إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ، وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [القمر ٥٤/ ٢٧- ٢٨].

فاتركوها تأكل ما شاءت في أرض اللّه من المراعي ، دون أن تتحملوا عبء مؤنتها ، ولا تمسوها بسوء أيا كان نوعه ، فيأخذكم عذاب عاجل لا يتأخر عن إصابتكم إلا يسيرا وذلك ثلاثة أيام ، ثم يقع عليكم.

فلم يسمعوا نصحه ، وكذبوه وعقروها ، عقرها بأمرهم قدار بن سالف ، كما قال تعالى : فَنادَوْا صاحِبَهُمْ

فَتَعاطى فَعَقَرَ [القمر ٥٤/ ٢٩] فقال لهم : استمتعوا بالعيش في داركم ، أي بلدكم ، وتسمى البلاد الديار ، مدة ثلاثة أيام ، ذلك وعد مؤكد غير مكذوب فيه.

ثم وقع ما أوعدهم به : فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا .. أي فلما حان وقت أمرنا بالعذاب والإهلاك ، وحل العقاب ووقعت الواقعة ، ونزلت الصاعقة ، نجينا صالحا والمؤمنين معه ، برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب شديد ، ومن ذل ومهانة

ج ١٢ ، ص : ١٠٢

حدثت يومئذ أي يوم وقوع الهلاك أو يوم القيامة ، والخزي : الذل العظيم البالغ حد الفضيحة ، إن ربك هو القوي القادر الغالب على كل شيء ، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وكلمة يَوْمِئِذٍ إما بفتح الميم فهو معرب ، أو بكسرها فهو مبني مضاف لغير متمكن.

وأصبح أمرهم أنه أخذتهم صيحة العذاب وهي الصاعقة ذات الصوت الشديد المهلك ، التي تزلزل القلوب ، وتصعق عند سماعها النفوس ، فصعقوا بها جميعا ، وأصبحوا جثثا هامدة ملقاة على الأرض.

(١٠٤/١٢)

و كأنهم لسرعة هلاكهم لم يوجدوا في الدنيا ، ولم يقيموا في ديارهم ، بسبب كفرهم وجحودهم بآيات ربهم ، ألا إنهم كفروا بربهم ، فاستحقوا عقابه الشديد ، ألا بعدا لهم عن رحمة اللّه ، وسحقا لثمود ، وهلاكا لهم ولأمثالهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت قصة صالح مع قومه ثمود على العبر والعظات التالية :

١- إن جحود ثمود وكفرهم بآيات اللّه وعدم إطاعتهم أوامر رسولهم كان هو شأن هؤلاء القوم إيثارا لتقليد الآباء والأسلاف ، بالرغم من أن صالحا عليه السلام منهم نسبا وقبيلة ، وأقام لهم الأدلة الكافية الشافية على وجوب عبادة اللّه وتوحيده ، من الخلق والإيجاد في الأرض ، وجعلهم عمارا لها.

٢- إن الاستغفار من الذنوب والتوبة من المعاصي سبب سريع لإجابة الدعاء لأن اللّه قريب من عباده ، رحيم بهم ، مجيب دعوة المحتاجين والمضطرين ، قريب الإجابة لمن دعاه.

٣- لا تلاقي بين جحود الجاحدين من ثمود وأمثالهم وبين النبي صالح وأمثاله من الأنبياء لأن الجاحدين متمسكون بتقليد الآباء والأسلاف ، والنبي ثابت على مبدئه ثبوت الجبال الراسيات ، لأنه على يقين من صحة دعوته ، وبصيرة من

ج ١٢ ، ص : ١٠٣

صدق ما أوحى اللّه به إليه ، ولأنه أشد الناس خوفا من عذاب اللّه إن عصاه وخالف أمره.

٤- كانت الناقة معجزة عجيبة مدهشة لخلقها من الصخرة وخلقها في جوف الجبل ، وخلقها حاملا من غير ذكر ، وخلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة ، ولما كان لها من شرب يوم ، ولكل القوم شرب يوم آخر ، ولإدرارها بلبن كثير يكفي الخلق العظيم ، فهذه ستة وجوه ، كل وجه منه معجز ، مما جعل تلك الناقة آية ومعجزة.

٥- اقتضى العدل الإلهي ورحمة اللّه إنجاء صالح عليه السلام ومن آمن معه ، وكانوا أربعة آلاف ، وإهلاك قبيلة ثمود بسبب الجحود برسالة نبيهم ، وكفرهم بربهم ، وإنكارهم وجوده.

(١٠٥/١٢)

٦- لا شك بأن وعد الأنبياء صادق صحيح ، ووعيدهم مؤكد الحصول ، وقد أوعد صالح قومه بالعذاب بعد ثلاثة أيام ، وتحقق ذلك في اليوم الرابع.

٧- كان عذابهم بالصيحة أو بالصاعقة أو بالرجفة ، صيح بهم فماتوا ، وأصبحوا جثثا ملقاة هنا وهناك في أنحاء ديارهم. والصيحة : إما صيحة جبريل ، أو صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة ، وصوت كل شيء في الأرض ، فتقطعت قلوبهم وماتوا ، لما أحدثته من رهبة وهيبة عظيمة.

٨- سحقا وهلاكا لثمود الذين كفروا ربهم ، وبعدا وطردا لهم عن رحمة اللّه بسبب جحودهم وكفرهم.

ج ١٢ ، ص : ١٠٤

قصة إبراهيم عليه السلام- بشارته بإسحاق ويعقوب- [سورة هود (١١) : الآيات ٦٩ الى ٧٦]

وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

الإعراب :

وَلَقَدْ اللام لتأكيد الخبر ، ودخلت لَقَدْ هاهنا لأن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقع.

(١٠٦/١٢)

قالُوا : سَلاماً ، قالَ : سَلامٌ الأول منصوب بقالوا أو على المصدر ، والثاني مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف أي هو سلام ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، أي وعليكم سلام ، أو مرفوع على الحكاية.
أَنْ جاءَ إما في محل نصب على تقدير حذف حرف الجرّ ، أي عن جاء ، وإما في محل
ج ١٢ ، ص : ١٠٥
رفع على أنه فاعل لَبِثَ أي فما لبث مجيئه ، أي ما أبطأ مجيئه بعجل حنيذ ، أي مشوي.
وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ منصوب بتقدير فعل دل عليه فَبَشَّرْناها أي بشرناها بإسحاق ، ووهبنا له يعقوب ، أو معطوف على موضع قوله : بِإِسْحاقَ. ويقرأ بالضم مبتدأ ، أو مرفوعا بالجار والمجرور ، ويقرأ بالجر معطوفا على بِإِسْحاقَ.
شَيْخاً حال من معنى اسم الإشارة أو التنبيه ، ويقرأ بالرفع إما خبرا بعد خبر أو بدلا من بَعْلِي أو يكون بَعْلِي بدلا من هذا ، وشيخ خبر عن هذا ، أو شيخ خبر مبتدأ آخر ، أي هذا شيخ ، ونظيره في هذه الأوجه الأربعة قوله تعالى : ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا [الكهف ١٨/ ١٠٦].
أَهْلَ الْبَيْتِ منصوب على المدح أو النداء بقصد التخصيص ، والأصح أنه منصوب على الاختصاص.
فَلَمَّا ذَهَبَ .. لما ظرف زمان ، جوابه محذوف ، أي أقبل يجادلنا. وجملة يُجادِلُنا حال من ضمير أقبل وهو ضمير إبراهيم.
آتِيهِمْ عَذابٌ مرفوع باسم الفاعل الذي جرى خبرا ، فجرى مجرى الفعل ، أي فإنه يأتيهم.
البلاغة :
أَأَلِدُ ؟ استفهام معناه التعجب.
ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ .. وَجاءَتْهُ بينهما طباق.
جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ كناية عن العذاب الذي حكم به اللّه عليهم.
المفردات اللغوية :

رُسُلُنا الملائكة ، قيل : كانوا تسعة ، وقيل : ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل بِالْبُشْرى ببشارة الولد ، وقيل : بهلاك قوم لوط قالُوا : سَلاماً سلمنا عليك سلاما ، أو منصوب بقالوا أي ذكروا سلاما قالَ : سَلامٌ أمركم سلام أو جوابي سلام أو وعليكم سلام ، وقد أجابهم بالرفع بأحسن من تحيتهم فَما لَبِثَ أبطأ حَنِيذٍ مشوي بالرّضف أي بالحجارة المحماة لا تَصِلُ إِلَيْهِ أي لا تمتد للتناول نَكِرَهُمْ أنكر ذلك منهم ، ضد عرفه وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً أحسّ منهم خوفا في نفسه إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ إنا ملائكة مرسلة إليهم بالعذاب ،

و إنما نمدّ إليه أيدينا لأنا لا نأكل. ولوط : النبي الكريم ابن أخي إبراهيم وأول من آمن به.

وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ وراء الستر ، تسمع محاورتهم ، أو تقوم بالخدمة. فَضَحِكَتْ سرورا بزوال الخوف ، أو بهلاك أهل الفساد وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ أي وهبناها من بعد إسحاق يعقوب يا وَيْلَتى أصله يا ويلي وهلاكي أي يا عجبا ، وهي كلمة تقال عند التعجب من بلية أو فجيعة أو فضيحة. بَعْلِي زوجي ، وأصله القائم بالأمر ، ويجمع على بعولة شَيْخاً ابن مائة أو مائة وعشرين أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ابنة تسعين أو تسع وتسعين ، فهي عقيم إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ يعني الولد من هرمين ، وهو تعجب من حيث العادة لا القدرة الإلهية مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قدرته وحكمته ، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات ، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ، ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل ، فضلا عمن نشأت وشبت في ملاحظة الآيات. إِنَّهُ حَمِيدٌ تحمد أفعاله مَجِيدٌ كثير الخير والإحسان الرَّوْعُ الخوف والرعب وَجاءَتْهُ الْبُشْرى بدل الروع.

(١٠٨/١٢)

يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ يجادل رسلنا في شأنهم قائلا : إن فيها لوطا. لَحَلِيمٌ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه أَوَّاهٌ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس مُنِيبٌ راجع إلى اللّه ، والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط رحمته.

يا إِبْراهِيمُ على إرادة القول ، أي قالت الملائكة : يا إبراهيم أَعْرِضْ عن هذا الجدال إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ قدره بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم غَيْرُ مَرْدُودٍ غير مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

المناسبة :

هذه هي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وقد ذكرت قصة إبراهيم في سورة البقرة ، وذكر إبراهيم في القرآن كثيرا ، ذكر مع أبيه وقومه ، وذكر هنا مع الملائكة مبشرين له بإسحاق ويعقوب ، مخبرين له بهلاك قوم لوط ، وذكر مع إسماعيل خاصة في موضع آخر ، وكانت قرى لوط بنواحي الشام ، وإبراهيم ببلاد فلسطين ، فلما أنزل اللّه الملائكة بعذاب قوم لوط ، مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن ضيافته.

التفسير والبيان :

واللّه لقد جاءت رسلنا الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وقيل مع

جبريل سبعة ملائكة آخرون ، وذلك مروي عن عطاء وغيره من التابعين ، جاءت الرسل إبراهيم بالبشرى تبشره بالولد إسحاق لقوله تعالى هنا :

فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وقوله : وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ [الذاريات ٥١/ ٢٨].

وقيل : البشرى بهلاك قوم لوط وسلامة لوط. قالوا : سلاما عليك ، قال : سلام عليكم ، وهذا أحسن مما حيوه لأن الرفع بقوله سَلامٌ يدل على الثبوت والدوام ، كما ذكر علماء البيان.

(١٠٩/١٢)

فما لبث أي فما أبطأ وذهب سريعا ، فأتاهم بالضيافة بعجل (و هو فتى البقر) مشوي على الرّضف (جمع رضفة) وهي الحجارة المحماة بالنار أو بالشمس ، كما قال تعالى : فَراغَ إِلى أَهْلِهِ ، فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، قالَ : أَلا تَأْكُلُونَ [الذاريات ٥١/ ٢٦].

فلما رأى إبراهيم أيديهم لا تمتد إلى الطعام ، أنكر ذلك منهم ، ووجد في نفسه خوفا وفزعا منهم ، إذ أدرك أنهم ليسوا بشرا ، وربما كانوا ملائكة عذاب.

قالوا له : لا تخف ، فنحن لا نريد سوءا بك ، وإنما أرسلنا لا هلاك قوم لوط ، وكانت ديارهم قريبة من دياره.

ونحن نبشرك بغلام عليم ، يحفظ نسلك ، ويبقي ذكرك ، وهو إسحاق ، ثم يعقوب من بعده وهو الذي من ذريته أنبياء بني إسرائيل.

وكانت امرأة إبراهيم قائمة وراء ستار بحيث ترى الملائكة ، أو كانت واقفة تخدم الملائكة ، فضحكت سرورا بزوال الخوف وتحقيق الأمن ، أو استبشارا بهلاك قوم لوط لكراهتها لأفعالهم المنكرة ، وغلظ كفرهم وعنادهم ، فجوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس : فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ أي فبشرناها بولد هو إسحاق ، وسيلد لإسحاق ولد هو يعقوب كما في قوله تعالى : وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ [الأنعام ٦/ ٨٤].

وفسر مجاهد وعكرمة : فَضَحِكَتْ أي حاضت ، وكانت آيسة ، تحقيقا للبشارة.

ج ١٢ ، ص : ١٠٨

و هو تفسير غريب مخالف لرأي الجماهير.

وذلك لأنه لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر ، تمنّت سارّة أن يكون لها ابن ، وأيست لكبر سنّها ، فبشرت بولد يكون نبيا ، ويلد نبيا ، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها.

قالت سارّة لما بشرت بالولد : عجبا كيف ألد وأنا عجوز كبيرة شيخة عقيم ، وزوجي في سن الشيخوخة لا يولد لمثله ، إن هذا الخبر لشيء عجيب غريب عادة.

فأجابتها الملائكة : كيف تعجبين من قضاء اللّه وقدره ، أي لا عجب من ان يرزقكما اللّه الولد ، وهو إسحاق ، فإن اللّه لا يعجزه شيء في الكون وهو على كل شيء قدير : إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [يس ٣٦/ ٨٢].

فإن رحمة اللّه الواسعة وبركاته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة ، وقد تووارثت النبوة في نسل إبراهيم إلى يوم القيامة ، إنه تعالى المحمود في جميع أفعاله وأقواله ، المستحق لجميع المحامد ، الممجد في صفاته وذاته ، الكثير الخير والإحسان ، فهو محمود ماجد.

ثم أخبر اللّه تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الخوف من الملائكة حين لم يأكلوا ، وبشروه بعد ذلك بالولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط ، وعلم أنهم ملائكة العذاب لقوم لوط ، أخذ يجادل الملائكة وهم رسل اللّه في قوم لوط ، وجعلت مجادلتهم مجادلة للّه لأنهم جاؤوا بأمره.

لأن إبراهيم حليم غير متعجل بالانتقام من المسيء إليه ، كثير التأوه مما يسوء الناس ويؤلمهم ، ويرجع إلى اللّه في كل أموره ، أي أن رقة قلبه وفرط رحمته حملته على المجادلة.

ج ١٢ ، ص : ١٠٩

فأجابته الملائكة : يا إبراهيم أعرض عن الجدال في أمر قوم لوط ، إنه قد جاء أمر ربك بتنفيذ القضاء والعذاب فيهم ، وإنهم آتيهم عذاب غير مصروف ولا مدفوع عنهم أبدا ، لا بجدال ولا بدعاء ولا بشفاعة ونحوها.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت القصة إلى ما يلي :

١- تبادل السلام بين الملائكة وبين الأنبياء ، فقد سلم الملائكة على إبراهيم عليه السلام بقولهم : سلاما ، كما تقول : قالوا خيرا ، فرد عليهم بتحية أحسن ، فقال : سلام عليكم.

٢- دلت الآية أن من أدب الضيف أن يعجّل قراه ، فيقدم الموجود الميسر في الحال ، ثم يتبعه بغيره إن كان لديه شيء وسعة ، ولا يتكلف المفقود غير المستطاع الذي يتضايق به.

و الضيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيين والصالحين. وهي سنة وليست بواجبة ،

لقوله صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه البخاري عن أبي شريح ، وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة : «

الضيافة ثلاثة أيام ، وجائزته يوم وليلة ، فما كان وراء ذلك ، فهو صدقة » .

و

قوله صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه عن أبي شريح وأبي هريرة : « من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

والمخاطب بالضيافة أهل المدن أو الحضر والبادية في رأي الشافعي ، وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة ،

لحديث القضاعي عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « الضيافة على أهل الوبر ، وليست على أهل المدر »

لكنه حديث لا يصح ، كما قال القرطبي.

ج ١٢ ، ص : ١١٠

و السنة إذا قدّم للضيف الطعام أن يبادر المقدّم إليه بالأكل فإن تكريم الضيف من مضيفه تعجيل التقديم ، وتكريم صاحب المنزل من ضيفه المبادرة بالقبول. فلما قبض الملائكة أيديهم ، تخوف إبراهيم ، أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه.

ومن أدب الطعام : أن ينظر المضيف في ضيفه ، هل يأكل أولا ؟ وذلك بلمح نظر سريع ، لا بتأكيد النظر. روي أن أعرابيا أكل مع سليمان بن عبد الملك ، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة ، فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك فقال له : أتنظر إلي نظر من يرى الشعرة في لقمتي ؟ ! واللّه لا أكلت معك.

٣- مشاركة الزوجة لعواطف زوجها أمر مستحسن ، فإن سارّة ضحكت استبشارا بتعذيب قوم لوط ، لكراهتها خبائثهم ، قال الجمهور : هو الضحك المعروف. وأنكر بعض اللغويين أن يكون في لغة العرب : ضحكت بمعنى حاضت.

٤- من السنة قيام المرأة بخدمة الرجال الضيوف بنفسها ، وترجم البخاري لحديث في ذلك : « باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس » قال القرطبي : ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب.

٥- امتنع الملائكة من الطعام لأنهم ملائكة ، والملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وإنما أتوا إبراهيم في صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها ، وهو كان مشغوفا بالضيافة.

٦- ذكر الطبري أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا : لا نأكل طعاما إلا بثمن فقال لهم : «

ثمنه أن تذكروا اللّه في أوله ، وتحمدوه في آخره » فقال جبريل لأصحابه : بحق اتخذ اللّه هذا خليلا. ودل هذا على أن التسمية في أول الطعام ، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا.

ج ١٢ ، ص : ١١١

٧- إن رحمة اللّه متكاثرة ، وبركاته على أهل بيت النبوة متعاقبة ، فكان التبشير بولادة ولد لزوجين عجوزين معجزة خارقة للعادة ، وتخصيصا لبيت النبوة بكرامة عالية رفيعة ، واللّه تعالى قادر على كل شيء ، وإنه حميد مجيد ، فلا عجب بعدئذ.

٨- إن جدل إبراهيم في شأن إهلاك قوم لوط ليس من الذنوب ، بدليل إيراد المدح العظيم عقبه بقوله تعالى : إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ أي إن رقة قلبه وفرط رحمته وسعة حلمه حملته على المجادلة ، التي كان المراد منها سعي إبراهيم في تأخير العذاب عن قوم لوط ، رجاء إقدامهم على الإيمان والتوبة من المعاصي.

٩- دلت آية رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ على أن زوجة الرجل من أهل البيت ، وأن أزواج الأنبياء من أهل البيت ، فعائشة رضي اللّه عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى اللّه عليه وسلّم وممن قال اللّه فيهم : وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [الأحزاب ٣٣/ ٣٣].

قصة لوط عليه السلام مع قومه [سورة هود (١١) : الآيات ٧٧ الى ٨٣]

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي ءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (٧٩) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

ج ١٢ ، ص : ١١٢

الإعراب :

يُهْرَعُونَ في موضع الحال.

هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ هؤُلاءِ مبتدأ ، وبَناتِي عطف بيان ، وهُنَّ ضمير فصل ، وأَطْهَرُ خبر المبتدأ.

فِي ضَيْفِي وحّد الضيف وإن كان جمعا في المعنى لأن ضيفا في الأصل مصدر يصلح للواحد والاثنين والجماعة.

لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً .. لَوْ حرف امتناع لامتناع ، وجوابه محذوف تقديره : لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد ، والحذف هاهنا أبلغ لأنه يوهم تعظيم الجزاء. وآوِي منصوب بأن ، ليكون الفعل معها بتأويل المصدر معطوفا على قُوَّةً وتقديره : لو أن لي بكم قوة أو اويا. مثل قول ميسون بنت الحارث أم يزيد بن معاوية :

(١١٤/١٢)

و لبس عباءة وتقرّ عيني أحبّ إلى من لبس الشفوف أي : وأن تقرّ عيني.

إِلَّا امْرَأَتَكَ مستثنى منصوب من قوله : فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ ويرفع على البدل من أَحَدٌ. والمراد بالنهي وَلا يَلْتَفِتْ في رأي المبرد المخاطب ، ولفظه لغيره ، كما تقول لغلامك : لا يخرج فلان ، أي لا تدعه يخرج.

البلاغة :

أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ استفهام معناه التعجب والتوبيخ.

ج ١٢ ، ص : ١١٣

أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ استعارة ، والمراد بها قومه وعشيرته لأن الإنسان يلجأ إليهم ويستند كالاستناد إلى ركن.

عالِيَها سافِلَها بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

(١١٥/١٢)

سِي ءَ بِهِمْ ساءه مجيئهم وحزن بسببهم لأنهم جاؤوا في صورة غلمان ، فظن أنهم أناس ، فخاف أن يقصدهم قومه ، فيعجز عن مدافعتهم. وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه ، وهو كناية عن شدة الانقباض ، للعجز عن مدافعة المكروه ، يقال : ما لي به ذرع أي مالي به طاقة عَصِيبٌ شديد الأذى. يُهْرَعُونَ يسرعون ، يقال : هرع وأهرع : إذا حمل على الإسراع وَمِنْ قَبْلُ قبل مجيئهم كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ الفواحش وهي إتيان الرجال في الأدبار. هؤُلاءِ بَناتِي فتزوجوهن هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ أنظف فعلا أو أقل فحشا ، وقال أبو حيان : الأحسن أن تكون الإضافة مجازية أي بنات قومي ، أي البنات

أطهر لكم إذ النبي يتنزل منزلة الأب لقومه. وفي قراءة ابن مسعود : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ، وهو أب لهم » ويدل عليه : أنه فيما قيل : لم يكن له إلا بنتان ، وهذا بلفظ الجمع ، وأيضا فلا يمكن أن يزوج ابنتيه من جميع قومه. وقيل : أشار إلى بنات نفسه ، وندبهم إلى النكاح إذ كان من سنتهم تزويج المؤمنة بالكافر. وقيل : (أحل وأطهر) ليس أفعل التفضيل إذ لا طهارة في إتيان الذكور. وَلا تُخْزُونِ تفضحوني ، من الخزي ، أو لا تخجلوني من الخزاية بمعنى الحياء فِي ضَيْفِي أضيافي ، يطلق الضيف على الواحد والجمع رَشِيدٌ ذو رشد وعقل يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح مِنْ حَقٍّ من حاجة لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ من إتيان الرجال.

(١١٦/١٢)

لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً طاقة ، أي لو قويت بنفسي على دفعكم أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ قوي أمتنع به عنكم ، أو عشيرة تنصرني ، لبطشت بكم لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بسوء فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ طائفة أو بقية من الليل ، والسّرى : السير ليلا وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ولا يتخلف أو ولا ينظر إلى ورائه ، والنهي في اللفظ لأحد ، وفي المعنى للوط ، وسبب النهي ألا يرى عظيم ما ينزل بهم إِلَّا امْرَأَتَكَ فلا تسر بها إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ تعليل بطريقة الاستئناف ، قيل : إنه لم يخرج بها ، وقيل : خرجت والتفتت فقالت : وا قوماه ، فجاءها حجر فقتلها. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ كأنه علة الأمر بالإسراء ، أو قد سألهم عن وقت هلاكهم ، فأخبروه بذلك.

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا عذابنا أو أمرنا به جَعَلْنا عالِيَها أي قراهم سافِلَها بأن رفعها جبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض مِنْ سِجِّيلٍ طين طبخ بالنار ، بدليل آية أخرى لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ [الذاريات ٥١/ ٣٣] أي طين متحجر.

ج ١٢ ، ص : ١١٤

مَنْضُودٍ متتابع منظم ومعدّ لعذابهم مُسَوَّمَةً معلمة للعذاب ، أي لها علامة خاصة عند ربك أي في خزائنه وَما هِيَ الحجارة أو بلادهم مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ أي أهل مكة وأمثالهم ، وهذا وعيد لكل ظالم ، روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه سأل جبريل عليه السلام ، فقال : يعني ظالمي أمتك ، ما من ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة.

المناسبة :

(١١٧/١٢)

هذه هي القصّة الخامسة من القصص المذكورة في هذه السّورة ، وهي قصة لوط عليه السّلام ، وقوم لوط : أهل سدوم في الأردن. قال ابن عباس : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط (ابن أخي إبراهيم) وبين القريتين أربع فراسخ ، ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم ، وكانوا في غاية الحسن ، ولم يعرف لوط أنهم ملائكة اللّه.

التفسير والبيان :

ولما جاءت رسلنا من الملائكة لوطا ، بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم هذه الليلة ، وكانوا في أجمل صورة بهيئة شباب حسان الوجوه ، ابتلاء من اللّه ، فساءه شأنهم ومجيئهم ، وضاقت نفسه بسببهم لأنه ظنّ أنهم من الإنس ، فخاف عليهم خبث قومه ، وأن يعجزوا عن مقاومتهم ، وقال : هذا يوم عصيب أي شديد البلاء.

وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ .. وجاء لوطا قومه عند ما سمعوا بالضّيوف وقدومهم ، بإخبار امرأته قومها ، يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك ، لإتيان الفاحشة ، وليس ذلك غريبا ، فإنهم كانوا قبل مجيئهم يعملون السّيئات ويرتكبون الفواحش ، فلم يزل هذا من سجيّتهم ، حتى أخذوا وهم على تلك الحال ، كما حكى اللّه عنهم : أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ [العنكبوت ٢٩/ ٢٩] أي ظلوا يقترفون الفاحشة إلى وقت الهلاك.

ج ١٢ ، ص : ١١٥

(١١٨/١٢)

قالَ : يا قَوْمِ ، هؤُلاءِ .. قال لوط : يا قوم ، هؤلاء البنات فتزوّجوهنّ ، والمراد بنات القوم ونساؤهم فإن النّبي للأمّة بمنزلة الوالد ، كما قال ابن عباس ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدّنيا والآخرة ، كما قال لهم في الآية الأخرى : أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ ، وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ [الشّعراء ٢٦/ ١٦٥- ١٦٦] ، قال مجاهد وقتادة وغير واحد : لم يكنّ بناته ، ولكن كنّ من أمته ، وكلّ نبي أبو أمته. وقال ابن جريج : أمرهم أن يتزوّجوا النّساء ، لم يعرض عليهم سفاحا. وقال سعيد بن جبير : يعني نساءهم هنّ بناته ، وهو أب لهم.

فَاتَّقُوا اللَّهَ .. أي فاخشوا اللّه ، وأقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ، ولا تفضحوني أو لا تخجلوني في ضيوفي ، فإن إهانتهم إهانة لي.

أليس منكم رجل فيه رشد وحكمة وعقل وخير يقبل ما آمر به ويترك ما أنهى عنه ، ويهديكم إلى الطريق الأقوم.

قالوا : لقد علمت سابقا ألا حاجة لنا في النّساء ولا نشتهيهنّ ، فلا فائدة فيما تقول ، وليس لنا غرض

إلا في الذّكور ، وأنت تعلم ذلك منا ، فأي فائدة في تكرار القول علينا في ذلك ؟ والمراد أنهم صمموا على ما يريدون.

قال لوط لقومه متوعّدا : لو كان لدي قوة تقاتل معي ، أو عشيرة تؤازرني وتنصرني عليكم ، وتدفع الشّرّ عني ، لكنت قاتلتكم وحلت بينكم وبين ما تريدون.

وبعد هذه المخاوف من الفضيحة التي أقلقت لوطا على ضيفانه ، بشرته الملائكة بنجاته منهم وهلاكهم بالعذاب : قالُوا : يا لُوطُ ، إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ..

أي قالت الملائكة للوط : إنا رسل ربّك أرسلنا لنجاتك من شرّهم ، وإهلاكهم ، لن يصلوا بسوء إليك ولا إلى ضيوفك ، وحينئذ طمس اللّه أعينهم ، فلم يعودوا

ج ١٢ ، ص : ١١٦

(١١٩/١٢)

يبصروا لوطا ومن معه ، كما قال تعالى : وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ، فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ ، فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ [القمر ٥٤/ ٣٧].

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ .. أي فاخرج من هذه القرية في جزء من الليل يكفي لتجاوز حدودها ، كما قال تعالى : فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذّاريات ٥١/ ٣٥- ٣٦].

وَلا يَلْتَفِتْ .. أي ولا ينظر أحد منكم إلى ما وراءه أبدا ، حتى لا يصيبه شيء من العذاب ، أو يتعاطف معهم ، وامضوا حيث تؤمرون.

إِلَّا امْرَأَتَكَ ... أي امض بأهلك إلا امرأتك فلا تأخذها معك ، إنه مصيبها ما أصابهم من العذاب لأنها كانت كافرة خائنة.

ثم ذكر علّة الإسراء ليلا ، فقال : إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ .. أي إن موعد عذابهم وبدءه هو الصّبح من طلوع الفجر إلى شروق الشّمس ، كما قال تعالى :

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ [الحجر ١٥/ ٧٣].

أليس موعد الصّبح بموعد قريب ، وسبب اختيار هذا الوقت كونهم متجمعين في مساكنهم. روي أنهم لما قالوا للوط عليه السّلام : إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ قال : أريد أعجل من ذلك ، بل الساعة ، فقالوا : أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ قال المفسّرون : إن لوطا عليه السّلام لما سمع هذا الكلام ، خرج بأهله في الليل. فلما جاء أمرنا بالعذاب ، وكان ذلك عند طلوع الشّمس ، ونفذ قضاؤنا ، جعلنا عاليها وهي سدوم سافلها ، وخسفنا بهم الأرض ، وأمطرنا عليهم حجارة من طين متحجّر ، منضّد بعضها فوق بعض وتتابع

في النّزول عليهم ، مسوّمة أي معلّمة للعذاب ، عليها علامة خاصة عند ربّك أي في خزائنه ، كقوله تعالى :

ج ١٢ ، ص : ١١٧

وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى . فَغَشَّاها ما غَشَّى [النّجم ٥٣/ ٥٣- ٥٤]. فمن لم يمت حتى سقط للأرض ، أمطر اللّه عليه ، وهو تحت الأرض الحجارة ، حجارة من سجيل ، أي طين متحجّر قوي شديد.

وفي التّفسير : أمطرنا في العذاب ، ومطرنا في الرّحمة.

ثم ذكر اللّه تعالى العبرة من القصة متوعّدا بها كلّ ظالم فقال : وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ أي وما هذه النّقمة أو تلك القرى التي وقعت فيها ممن تشبه بهم في ظلمهم كأهل مكة ببعيد عنه ، والمقصود أنه تعالى يرميهم بها.

قال أنس : سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم جبريل عن هذا ، فقال : يعني عن ظالمي أمتك ، ما من ظالم منهم ، إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة.

وفي هذا عبرة للظالمين في كلّ زمان ومكان. وجاء بِبَعِيدٍ مذكّرا على معنى بمكان بعيد.

ونظير الآية : وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [الصافات ٣٧/ ١٣٧- ١٣٨] ، أي وإنكم لتمرّون على ديارهم في أسفاركم نهارا أو ليلا ، أفلا تعقلون وتتدبّرون بما نزل بهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت قصة لوط عليه السّلام مع قومه على ما يأتي :

١- إنّ المؤمن يغار على حرمات اللّه ، ويستبق وقوع الحوادث استعدادا للبلاء قبل نزوله ، لذا استاء لوط عليه السّلام من مجيء وقد الملائكة (ملائكة العذاب الذين بشّروا إبراهيم بالولد) وضاق صدره بمجيئهم وكرهه ، وقال : هذا يوم شديد في الشّر.

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ ، بصرت بنتا لوط- وهما تستقيان- بالملائكة ، ورأتا هيئة حسنة

ج ١٢ ، ص : ١١٨